

بقلم : غاستون باشلار
ترجمة : نهاد خياطة

الفصل الخامس

كيمياء النار : تاريخ مسألة خاطئة

في هذا الفصل سوف نفي ميدان الدرس ظاهرية فنحاول درس الجهود التي بذلتها المعرفة الموضوعية في الظاهرات الحادثة بالنار . لكن هذه المسألة لا تكاد تشكل ، في نظرنا ، احدى مشكلات التاريخ العلمي ، لان ما فيها من علم قد زيفته تقويمات كنا بيّنا أثرها في الفصول المتقدمة . نهائيا ، ليس علينا أبدا أن نتناول ما سوى تاريخ العوائق التي راكمتها احداس النار في العلم . ان أحداس النار تشكل عائقاً في طريق المعرفة ، وكلما صعبت ازالتها كانت أظهر من الناحية البسيكولوجية . ان الموضوع يتعلق، على نحو شبه ملتو ، بنوع من التحليل النفسي المستمر بالرغم من اختلاف وجهات النظر . وبدلا من أن يتجه هذا التحليل الى الشاعر والحالم ، يتجه الى علماء الكيمياء وعلماء الحياة من القرون الخالية . فهذا التحليل يعترض استمرار الفكر والهاجس فيتضح له أن الفكر دائماً هو المضطرب والمنهزم نتيجة لهذا الاتحاد بين الافكار والاحلام . ولذلك كان ضرورياً ، مثلما بيّنا في عمل سابق ، أن نتناول الروح العلمية بالتحليل النفسي ، ونقسرها على سلوك التفكير الاستدلالي الذي لا يساير الهاجس بل يوقفه ويفتته ويحول دونه .

★ الآداب الأجنبية ــ ٣

يمكننا أن نأتي بدليل عاجل على تنافر مشكلة النار مع العرض التاريخي · فقد وضع السيد ج · ك · فريغوري كتابا اتسم بالوضوح والذكاء عن تاريخ العقائد المتعلقة بالاشتعال منذ أيام هيرقليط حتى لافوازييه · والحال أن هذا الكتاب يربط الافكار ربطا سريعا حتى أن خمسين صفحة كافية لان تقص حكاية « العلم » في عشرين قرنا · يضاف الى ذلك ، أن هذه النظريات لو تكشف خطؤها موضوعيا لدى لافوازييه ، لاقتضى تدقيق الصفة الفكرية لها · من العبث الاعتراض بأن العقائد الارسطية واضحة ، وانها اذا ما ادخلت عليها تعديلات ملائمة يمكنها تفسير مختلف أحوال المعرفة العلمية ، والتكيف مع فلسفة مختلف العهود · يبقى أن صلابة هذه العقائد وديمومتها لا تُحددان جيدا باللجوء الى قيمتها الوحيدة من التفسير الموضوعي · يجب النزول الى ما هو أعمق ، وعندئذ نلامس القيم اللاشعورية · وانها لهي هذه القيم اللاشعورية التي تصنع ديمومة مبادىء معينة من التفسير · بشيء من العذاب العذب ، ينبغي على التحليل النفسي أن يحمل العلماء على الاقرار بدوافعهم التي لايعترفون بها عادة ·

- ٢ -

لعل النار هي الظاهرة التي شغلت اهتمام الكيمياويين أكثر من أية ظاهرة أخرى · ولقد ساد الاعتقاد زمنا طويلا بأن حل اللغز المركزي للكون يتوقف على حل لغز النار · كتب بويرهاف في حوالي ١٧٢٠ يقول (١) : « اذا أخطأت في تبيّن طبيعة النار ، امتد خطؤك الى جميع فروع الفيزياء ، وما ذلك الا لان النار دوما هي العامل الرئيسي في جميع ما تنتجه الطبيعة » · وبعد نصف قرن يقوم شيل فيذكرنا من جهة (٢) « بالصعوبات التي لا حصر لها التي تنشأ عن البحث في النار · وانه لما يخيفنا حقا أن نتفكر في تلك القرون المديدة وقد انقضت دون أن يتوصل فيها الى مزيد معرفة من خصائصها الطبيعية » ، ومن جهة أخرى، « بالاخطاء المضادة التي يقع فيها بعض الناس اذ يفسر طبيعة النار وظاهراتها

(1) Boerhaave, Eléments de Chimie, Trad. 2 Vol., Leide, 1752, T. 1, P. 144.
(2) Chrles - Guillaume Scheele, Traité Chimique de L'art et du feu, Trad., Paris, 1781.

بكثير من اليسر حتى ليخيل للمرء أن جميع الصعوبات قد تذللت تماماً • لكن ما أكثر الاعتراضات التي تنهض في وجه هؤلاء ! وما هو الا أن تغدو الحرارة ناراً عنصرية حتى تكون الحرارة أثراً من آثار النار : هنا يكون الضوء هو النار الانقى وعنصراً من العناصر ، هنا ينتشر الضوء على مدى الكرة الارضية قاطبة ، ويتولى سعار النار العنصرية مهمة إيصال حركتها المباشرة اليه ، هنا يضحى الضوء عنصراً يمكن ضبطه بواسطة حامض البنغ Acidum Pingue الذي أطلقه تمدده المزعوم ، الخ » • ان هذا التأجج الذي أشار اليه شيل اشارةظاهرة لما يميز جدلية الجهل (ديالكتية الجهل) ، التي تذهب من الظلمة الى العمى متناولة في يسر المصطلحات الخاصة بنفس المسألة اللازمة لحلها • وبما أن النار لم تستطع الكشف عن سرها ، فقد اعتبرت وكأنها علّة عالمية قادرة على تفسير كل شيء • وكلما كان انسان ما قبل العهد العلمي أمياً ، كانت المسألة التي يتخيرها لبحثه كبيرة ، فهو لا يؤلف الا كتيباً صغيراً عن هذه المسألة الكبيرة • هكذا اقتصر كتاب المركيز دي شاتليه ، وهو كتاب يبحث في مسألة النار ، على ١٣٩ صفحة فقط •

في العهود السابقة على العهد العلمي ، كان من الامور البالغة الصعوبةتحديد موضوع للدرس • فقد كانت المفهومات الاستحيائية والمفهومات الجوهريةمختلطة أشد الاختلاط في ظاهرة النار أكثر منها في أية ظاهرة أخرى • فبينما استطعنا في كتابنا العام أن نحلل هذه المفهومات تحليلاً منفصلاً ، ينبغي علينا هنا أن نتناولها بالدرس وهي في اختلاطها • واذا استطعنا أن نمضي في التحليل قدماً ، فبفضل هذه الافكار العلمية التي أتاحت لنا شيئاً فشيئاً أن نميز هذه الاخطاء• لكن النار لم تجد عملها كما وجدته الكهرباء ، فظلت عند انسان ما قبل العهد العلمي مثل ظاهرة معقدة تستمد قوامها من الكيمياء وعلم الحياة في آن • يجب علينا ، اذن ، أن نحترس ازاء مفهوم النار من اتخاذ الموقف التعميمي الذي يتفق مع غموض التفسيرات التي تذهب وتجيء من الحياة الى المادة ومن المادة الى الحياة في مقابلات لا تنتهي في سبيل تبيان ظاهرات النار •

وهكذا تفيدنا النار في توضيح القضايا التي عرضناها في كتابنا عن تكوّن،

الروح العلمية La Formation de L'esprit Scientifique ، خاصة وانه ،عن طريق الافكار الساذجة التي تتكون منها هذه الروح ، يقدم لنا مثالا على العقبة الجوهرية L'obstacle Substantialiste وعلى العقبة الاستحيائية L'obstacle Animiste اللتين تعترضان سير التفكير العلمي ٠

سوف تبين ، بادىء ذي بدء ، الحالات التي تتبدى فيها التوكيدات الجوهرية غير مستندة الى أدنى دليل ٠ فالأب ل- كاستل مثلا لا يشك في واقعية النار (٣) Le Réalisme du feu : « ان الالوان السوداء المستعملة في الرسم هي في معظمها ناتجة عن النار ، والنار دوما تترك في الاجسام التي تتلقى أثرها الحي شيئا مما يقرض ويحرق ٠ يريد البعض أن يقول أن هذه هي الاجزاء المشتعلة التي تظل في الكلس ، وفي الرماد ، وفي الفحم ، وفي الدخان » ٠ ما من شيء يسوّغ هذه الديمومة الجوهرية Permanence Substantielle للنار في المادة الملوِّنة (بكسر الواو) ، لكننا هنا نرى كيف يقوم التفكير الجوهري بوظيفته : الذي يتلقى النار يجب أن يظل مشتعلا ، وبالتالي أكالا أو قراضا Corrosif .

أحياناً يتبدّى التوكيد الجوهري في نقاء ساكن ، مجردا تماما عن أي دليل، بل عن أي شبيه ٠ هكذا كتب دي كارلا (٤) : « ان الذرات المشتعلة تدفيء لأنها تكون ، وهي تكون لأنها كانت ٠٠٠ لا ينفك هذا الفعل يحدث الا اذا افتقر الى سببه » ٠ تتبدى الخصيصة الحشوية للنسبة الجوهرية هنا في أجلى مظاهرها ٠ وان النكتة التي أطلقها موليير عن القوة المنومة التي في الافيون ما منعت مؤلفا كبيرا في نهاية القرن الثامن عشر من القول بأن للقوة المولدة للحرارة في الحرارة خاصية التدفئة ٠

للنار ، عند كثير من المفكرين ، مثل هذه **القيمة** التي لا يحد شيء من بسطة نفوذها ٠ فبويرهاف يزعم أنه لا يقدم أية فرضية عن النار ، لكنه لايتردد في القول أن « عناصر النار تتلاقى في كل مكان ، وانها توجد في الذهب الذي هو

(3) R.-P. Castel, L'Optique des couleurs, Paris, 1740. P. 34.
(4) Ducarla, Loc. Cit., P. 4.

أكثر الاجسام المعروفة صلابة كما توجد في فراغ توريتشلي (٥) والنار ، عند الكيمياوي كما عند الفيلسوف ، وعند المثقف كما عند الحالم ، تتجوهر في يسر حتى انها تعلق في الخواء كما تعلق في الملاء . لا شك أن الفيزياء الحديثة سوف تعترف بأن الخواء (الفضاء) تجتازه آلوف من تموجات الحرارة ، لكنها لن تجعل من هذه التموجات صفة للفضاء . واذا ما لاح ضوء في ميزان حرارة محرّك، لم تستنتج الروح العلمية من ذلك أن خواء توريتشلي يحتوي على نار كامنة .

أن تجوهر النار يوائم في يسر بين الصفات المتناقضة : فالنار يمكنها أن تكون حيّة سريعة في أشكال مبدّدة ، وعميقة متينة في أشكال مركزة . يكفي أن تثار مسألة التركز الجوهري حتى تتبين أكثر الاوجه اختلافا . وعند كارا ، وهو كاتب كثيرا ما أثر عنه في نهاية القرن الثامن عشر (٦) : « ان السائل الحراري المتمم (١) Phlogistique نادر جدا في القش والورق ، على حين أنه يكثر في الفحم الحجري . فبينما تلتهب المادتان الاوليان عند أول ملامسة من النار لهما ، نجدهما في الفحم تستغرق زمنا طويلا حتى تحترق . لا يمكن تفسير هذا الاختلاف في النتائج الا اذا اعترفنا بأن السائل الحراري المتمم هو في القش والورق — وان كان أقل مما في الفحم الحجري — أقل تركزا وأكثر تبددا ، وبالتالي اقل قابلية للتطور السريع . وهكـذا تفسر تجربـة ضئيلة الشأن ، كتجربة الورق الذي يشتعل سريعا ، بالكثافة الناشئة عن التركيز الجوهري للسائل الحراري . هنا ، ينبغي لنا أن ننوه بهذه الحاجة الى تفسير التفصيلات للتجربة الاولى . هذه الحاجة الى التفسير الدقيق ملاحظة كثيرا عند العقول غير العلمية التي تزعم انها لا تهمل شيئا وتأخذ بحسبانها جميع أوجه الخبرة الملموسة . هكذا تضعنا النار أمام مسألتين خاطئتين : لقد أثرت في مخيلتنا ونحن أطفال ! ان نار القش تبقى ، في الخافية ، نارا متميزة .

(5) Boerhaave, Loc. Cit., 1, P. 145.

(6) Carra, Dissertation Elémentaire sur la nature de la Lumière, de la Chaleur, du feu et de L'éléctricité, Londres, 1787, P. 50.

(١) سائل تصوره الكيمياويون القدامى لتفسير الاحتراق . — المعرب —

كذلك بالنسبة الى مارا ، الذي يمثل العقل غير المتشدد في ما قبل العهد العلمي ، تقوم علاقة الخبرة الاولى بالحدس الجوهري على أساس مباشر ايضا • ففي كتيّب يلخص أبحاثه من النار يعبر عن نفسه على هذا النحو (٧) : « لماذا يتصل السائل المشتعل بالمواد غير المشتعلة دون سواها ؟ أليس بفضل قرابةخاصة بين حبيباتها والسائل الحراري الذي تتشبع به هذه المواد ؟ هذه الجاذبيةملاحظة جيدا • عندما تنفخ الهواء في قصبة وتحاول ابعاد المادة المشتعلة عن اللهب الذي يلتهمها ، نلاحظ أن هذا لا ينكفيء بلا مقاومة وانه سرعان ما يستعيد الفراغ المتروك » • لقد كان بوسع مارا أن يضيف لكي تكتمل الصورة الاستحيائية التي تستولي على خافيته ، : « وهكذا تعود الكلاب الى الطريدة التي كانت قد أقصيت عنها » •

تتيح لنا هذه الخبرة المألوفة جدا أن نكوّن مقياساً عن عناد النار حين تباشر طعامها • حسبنا أن نطفيء ، على بعد قريب ، شمعة متقدة أو أن ننفخ في محلول ملتهب لكي يتكون عندنا مقياس ذاتي عن مقاومة النار • وهي مقاومة أخف وطأة من مقاومة الاشياء الجامدة للمس • وهي لا تحدث من الأثار الا ما يوجه الطفل نحو تبنّي نظرية استحيائية عن النار • وفي جميع الاحوال تعمد النار الى اظهار سوء خبيئتها : فهي صعبة الاشتعال ، كما هي صعبة الانطفاء • الجوهر ذو مزاج متقلب ، لذلك كانت النار شخصاً •

ما من شك في أن هذه الحيوية وهذا العناد اللذان تتصف النار بهما هما من الصفات الثانوية التي اجملتها المعرفة العلمية وشرحتها شرحا وافيا • ولقد أدىّ التجريد السليم اهمال شأنها • ان التجريد العلمي هو شفاء الخافية • لانه ، في أصل الثقافة ، يقوم بعزل العوائق الموزعة على جميع تفصيلات الخبرة •

---

(7) Marat, Découvertes sur la feu, L'électricité et la Lumière, Constatées par une suite d'expériences nouvelles, Paris, 1779, P. 28.

- ٣ -

لكن ربما كانت الفكرة القائمة على أساس أن النار **تتغذى** كما يتغذى الكائن الحي هي التي تحتل أوسع مكان من بين الافكار التي تتشكل منها خافيتنا • فعبارة « غذى نارا » باتت عند الانسان المعاصر ترادف « ادامتها » ، لكن الكلمات تسيطر علينا بأكثر مما نظن ، والصورة القديمة تعود أحيانا الينا ، ما ان تعود الكلمة القديمة الى شفاهنا •

ليس من اليسير علينا أن تجمع النصوص التي تحتفظ فيها عبارة « غذاء النار » بقوة معناها الاصلي • يذكرنا أحد الكتاب في القرن السادس عشر بأن(٨) : « المصريين كانوا يعتقدون بأنه (غذاء النار) حيوان ساحر لا يشبع، يلتهم كل ما يلد ويتكاثر ، ثم يلتهم نفسه ، بعد أن يكون قد أتى على كل شيء ولم يبق عنده من حرارة وحركة لا يتمكن من ادخال الطعام في جوفه والهواء اللازم لنفسه » • وهكذا يمضي فيجنير في كتابه كله ناسجا على هذا المنوال • فهو يرى في كيمياء النار جميع خصائص الهضم • وهو يرى ، كما يرى غيره من المؤلفين ، ان الدخان براز النار • وهناك مؤلف آخر كتب في حوالي نفس الفترة يقول (٩) : « كان الفرس يقدمون الذبيحة للنار لكي تأكلها على المذبح وهم يتلون هذه الصيغة ••• كلي وأولمي أيتها النار ، سيدة العالم كله » •

وفي القرن الثامن عشر يكتب بويرهاف قائلا أنه « يجد من الضروري توضيح ما يجب فهمه من عبارة **غذاء النار** في دراسة مطولة ••• فاذا سمي هكذا بالمعنى الضيق للكلمة ، فلأننا نعتقد بأن (هذا الجوهر) يؤدي واقعيا وظيفة التغذية للنار ، وأنه بفعل النار يتحول الى جوهر صاف من النار العنصرية ، وانه يتخلص من طبيعته الخاصة والاولية لكي يكتسب طبيعة النار ، وهكذا يقدم لنا واقعة تستحق منا الدرس (١٠) » • هذا ما فعله بويرهاف في صفحات عديدة حاول فيها

(8) Blaise de Vigenère, Traité du feu et du sel. Paris, 1622, P. 60.
(9) Jourdain Guibelet, Trois Discours Philosophiques, Eureux, 1603, P. 22.
(10) Boerhaave, Loc. Cit., t. 1, P. 303.

مقاومة الحدس الاستيحائي الذي أراد تجنبه لكن مقاومته كانت بالغة الضعف ، لانه لا يمكننا أبدا أن نقاوم حكما سابقا مقاومة تامة باضاعة كثير من الوقت في التهجم عليه • على كل حال ، لم يتخلص بويرهاف من الحكم السابق الاستيحائي الا بتقوية الحكم السابق الجوهري : فهو يرى ان **غذاء النار** يتحول الى **جوهر النار** • بالتمثل ، يصبح الغذاء نارا • لكن هذا التمثل الجوهري هو نفي لروح الكيمياء • الكيمياء يمكن أن تدرس كيف تتضام الجواهر وتمتزج وتتآلف • هذه ثلاثة مبادىء يمكن الدفاع عنها ، لكن الكيمياء لا يمكنها أن تدرس كيف يتمثل جوهر جوهرا آخر • وهي اذا قبلت بمثل هذا المفهوم ، وهو صيغة شبه علمية لمفهوم التغذية ، فقد أثارت ما هو مظلم بما هو أشد ظلاما ، أو بالاحرى فرضت على التفسير الموضوعي تلك الايضاحات الزائفة التي نعرفها في خبرتنا الداخلية عن الهضم •

سوف نرى الى أين تمضي بنا التقويمات اللا شعورية لغذاء النار ، وكيف انه من المرغوب فيه أن نتناول بالتحليل النفسي ما يمكن تسميته بعقدة بانتاغرويل Complexe de Pantagruel القائمة في خافية ما قبل العهد العلمي • والحق ان المبدأ القائل بأن كل ما يحترق يجب أن يتلقى طعام النار هو مبدأ يعود الى ما قبل العهد العلمي • كذلك ليس هناك ما هو أكثر شيوعا في كونيات العصور الوسطى والعهد ما قبل العلمي من مفهوم غذاء الكواكب المستمد من التبخرات الارضية • فالتبخرات تغذّى المذنّبات ، والمذنّبات بدورها تقدم الغذاء للشمس • نحن هنا لا نقدم الا بضعة نصوص ، جرى انتقاؤها في عهود متأخرة بقصد بيان ديمومة اسطورة الهضم وقوتها في تفسير الظاهرات المادية • وهكذا كتب روبينيه في عام ١٧٦٦ (١١) : « لقد قيل بشيء من الاحتمال ان الكرات المشعة تتغذّى من التبخرات التي تجتذبها الكرات المظلمة ، وان غذاء هذه الكرات الطبيعي هو هذا الدفق من الاجزاء المشتعلة التي تنبعث اليها من التبخرات على وجه الدوام ، والبقع الشمسية التي تتراءى لنا وكأنها تتمدد وتظلم كل الايام ليست الا تجمعا

(11) Robinet, Loc. Cit., t. 1, P. 44.

للأبخرة الهائلة التي تجتذبها ، والتي يكبر حجمها • ان هذا الدخان الذي نحسبه يرتفع الى السطح انما يسقط عليه على خلاف ما يظهر لنا • والشمس في النهاية تمتص كمية كبيرة جدا من المادة المختلفة التي لا تتغلف وتتلبّس بها وحسب ، كما يزعم ديكارت ، بل تشيع فيها كليا • وهي ، اذا جاز التعبير ، ما ان تنطفيء حتى تموت ، بالانتقال من حالة الضوء ، الذي هو حياتها ، الى حالة الظلمة ، التي يمكننا أن ندعوها موتا حقيقيا بالقياس اليها • وهكذا تموت العلقة فيما هي ترتوي من الدم » • يلاحظ هنا ان الحدس الهضمي له السيادة : فعند روبينيه تموت الشمس بسبب افراطها في الطعام •

ان مبدأ اغتذاء الكواكب بالنار يبدو في غاية الوضوح اذا نحن قبلنا بالفكرة التي ظلت شائعة جدا حتى القرن الثامن عشر ، ومفادها ان « جميع الكواكب مخلوقة من جوهر سماوي واحد هو النار اللطيفة (١٢) » • فكانت تعقد مقارنة أساسية بين الكواكب المشكلة من النار اللطيفة السماوية والكبريتات المعدنية المشكلة من النار الكثيفة الارضية • وكان يعتقد انه بهذه المقارنة تتوحد الظاهرات الارضية والظاهرات السماوية ويتوصل بها الى رؤية شاملة للعالم •

هكذا تجتاز الافكار القديمة خلال العصور • انها تعود الينا دائما من خلال الهواجس التي نشعر بها نوعا ، محملة بشحنتها من السذاجة الاولية • فمثلا ، يقوم أحد كتاب القرن السابع عشر فيوحّد في يسر أفكار العصور القديمة وأفكار عصره (١٣) : « بما أن الكواكب في النهار تجتذب الابخرة لكي يأخذ منها الليل انعكاسه ، سميَ الليل باسم أوريبيد مطعم الكواكب النائمة » • بدون أسطورة الهضم ، بدون هذا الايقاع المعدي **للكائن الاكبر** ، الذي هو **الكون** ، الذي ينام ويأكل خالما نظامه على النهار والليل ــ بدون هذا كله ، يصبح كثير من احداس ما قبل العهد العلمي ، أو احداس الشعر ، غير قابل للتفسير •

(12) Joachim Poleman, Nouvelle Lumière de Médecine du Mystère du Soufre des Philosophes, Trad. du Latin, Rouen, 1721, P. 145.
(13) Guibelet, Loc. Cit., P. 22.

- ٤ -

مما يثير الاهتمام على وجه الخصوص ، ونحن في صدد تناول المعرفة الموضوعية بالتحليل النفسي ، أن نرى كيف يتصدى لتفسير الظاهرات الجديدة حدس محمل بالعاطفية كحدس النار • فقد كانت الحال على هذا المنوال حينما قام الفكر قبل ـ العلمي بالبحث عن تفسير للظاهرات الكهربائية •

والبرهنة على ان السائل الكهربائي عبارة عن نار ليس الا ما هي بالامر الصعب اذا نحن ارتضينا لانفسنا الوقوع في غواية الحدس الجوهري • هكذا سارع الاب دي مانجن (١٤) «الى الاقتناع بقوله «في جميع المواد القار ّية Bitumineux والكبريتية ، كالزجاج والقطران نلتقي بالمادة الكهربائية ، كما الصاعقة تستمد مادتها من المواد القارية والكبريتية المتجذبة بفعل الشمس » • ينتج عن ذلك ان ليس علينا الا البرهنة على ان الزجاج مادة حاوية على النار ، وتصنيفه في فئة الكبريت والقطران • هكذا يرى الاب دي مانجن « ان الرائحة الكبريتية التي يطلقها (الزجاج) عند احتكاكه وتكسر ّه (هي البرهان القاطع) على ان المواد القار ّية والزيتية غالبة عليه » • الا ينبغي هنا أن نذكّر بعلم الجذور اللغوية القديم ، وهو العلم ذو الفعالية الشديدة في الروح قبل ـ العلمية ، الذي يزعم ان الزاج Vitriol القارش قد جاء من زيت الزجاج Huile de Vitre ؟

هنا ، يبدو الحدس الداخلي ، الصميمي ، الوثيق الصلة بالحدس الجوهري في منتهى البراعة بمقدار ما يدعي القدرة على تفسير الظاهرات العلمية البالغة التحديد • فالزيت والقار والمطاط والصمغ الصنوبري ـ هذه المواد على وجه الخصوص وضع الله النار في قلبها كما يوضع اللب في داخل القشرة التي تحتويه وتطبق عليه » • وما أن يقع المرء تحت وطأة مجاز الخاصية الجوهرية التي تنطوي عليها القشرة حتى يغدو أسلوبه مثقلا بالصور البيانية • ولئن كانت النار الكهربائية

(14) Abbé de Mangin, Question Nouvelle et Interessante sur L'electricité, 1749, PP. 17, 23, 26.

« تستطيع أن تشير الى نفسها خلسة ، حيث تكمن الكريات النارية ، التي يمتلىء بها نسيج الاجسام الذاتية الكهربائية ، وتستطيع أن تفصل هذا الجم المغير من الاكياس الصغيرة التي تتمتع بقوة الامساك بهذه النار الحمية ، السرية ، الداخلية، وتستطيع أن تتحد بها جميعا ، فان هذه الحزم النارية الطليقة ، المتقلقلة ، المحتشدة ، الصائلة ، المتجمعة ، المنيفة الهياج ، تستطيع أن تبعث في النار الكهربائية فعلاً وقوة وسرعة وتسارعا وغضباً ينشأ عنه انفصال في المركب وتكسير واحتراق وتفتيت » • لكن لما كان هذا الامر محالا ، كان لا بد لاجسام ذاتية الكهربائية ، من مثل الصمغ الصنوبري ، أن تترك النار مقفلا عليها في داخل قشراتها الصغيرة ، لانها غير قدرة على تلقي الكهرباء عن طريق الانتقال • هذا هو التفسير اللغوي لخاصية الاجسام الرديئة النقل الكهربائي أو العازلة ، بكل ما فيه من تصور وهمي ، وبكل ما يحمله من حرفية • يضاف الى ذلك ان هذا التفسير الذي يترتب عليه نكران خاصية من الخصائص هو تفسير في منتهى الغرابة ، لانه تفسير لا نرى فيه ضرورة للنتيجة • ويبدو ان هذه النتيجة ما هي الا قطع لهاجس كان يتطور في يسر عندما نكتفي بتجميع المترادفات اللغوية •

وعندما نقر بأن الشرارات الكهربائية الصادرة عن الجسم البشري المكهرب انما تقوم باشعال ماء الحياة (*) ، نكون عندئذ أمام عجيبة حقيقية • النار الكهربائية ، اذن ، هي نار حقيقية • ان ونكلر يؤكد « حادثة بمثل هذه الغرابة »• والحق اننا لا يمكننا أن نرى كيف يتأتى لمثل هذه (النار) اللماعة ، الحارة ، اللهابة ، أن يحتويها الجسم البشري بدون مضايقة ! فهذا مفكر دقيق وساد مثل ونكلر لا يعتوره شك في مسلمة جوهرية ، وانه لهو غياب النقد الفلسفي الذي يلد المسألة الخاطئة (١٥) •

« ان السائل لا يمكن ان يشعل شيئا الا اذا كان حاويا على جزئيات نارية »

(*) نوع من المشروب Eau-de-Vie . — المعرب —

(15) Winkler, Essai sur la Nature, les Effets et les Causes de L'éléctricité, Trad., Paris, 1748, P 139.

وبما ان النار تخرج من الجسم البشري ، فلأنها كانت فيما مضى داخل الجسم البشري ٠ الا يجدر بنا أن نلاحظ مبلغ السهولة التي استطاع بها انسان مما قبل العهد العلمي أن يقبل بمثل هذه النتيجة وهو يسير غير مرتاب وراء الغوايات التي نوهنا بها في الفصول السابقة ؟ السر الوحيد هو ان النار تشعل الكحول (*) في الخارج بينما هي لا تشعل الانسجة في الداخل ٠ ان فقدان الحدس الواقعي لا يؤدي مع ذلك الى نفي حقيقة النار ٠ ان حقيقة النار هي من الحقائق التي لا يمكن نفيها ٠

- ٥ -

ان جعل كل من الحرارة والنار حقيقة واقعة هو من الامور البارزة جدا حين يستخدم في موضوعات الجواهر الجزئية والجواهر النباتية ٠ ان الغواية الواقعية قد تفضي بنا الى معتقدات وممارسات غريبة ٠ هاكم واحدا من بين ألف الامثلة التي أوردها باكون في (سيلفا روم المقطع ٤٥٦) « اذا كان لنا أن نؤس بصلة قربى معينة ، فما علينا الا نحدث عدة ثقوب في جذع شجرة التوت وندخل فيها أسافين معمولة من خشب شجرة ذات طبيعة حارة ، كالبطم والمصطكا (**) والعاباك والمرمر الخ ٠٠٠ حتى نحصل على توت من نوع ممتاز ويبدو للشجرة نمو كثير - وهو أثر يمكن أن نعزوه الى هذه الحرارة الاضافية التي تنشّط النسغ وتحييه وتقوّيه ، والى الحرارة الاصلية التي للشجرة » ٠ ان هذا الاعتقاد بفعالية الجواهر الحارة يتصف بالديمومة عند اناس معينين ، لكنه على الاغلب يضعف وينتقل شيئا فشيئا الى حال من المجاز أو الرمز ٠ وهكذا زالت قيمة أكاليل الغار وباتت تصنع الآن من الورق الاخضر ٠ لكن ما هي دي في تمام قيمتها (١٦) « ان أغصان

(*) الاصل العربي للكلمة الفرنجية Alcool هو (الكحل) لا الكحول كما شاع خطأ ٠ - المعرب -

(**) المصطكا : شجر من الفصيلة البطمية يستخرج منه علك تجاري معروف ٠ - المعرب -

(16) Jean-Baptiste Fayol, L'Harmonie céléste, Paris, 1672, P. 320.

هذه الشجـرة التي كرّسها الاقدمون للشمس ، لتتويج جميع غزاة الارض ، اذا ما تصادمت فيما بينها انبثقت منها نار ، مثلما تنشق من عظام الليث » . والنتيجة الواقعية لذلك ليست ببعيدة : « فالغار يشفي قروح الرأس ، ويمحو نمش الوجه» . ما أشد لمعان الجبين تحت الاكليل ! أما في عصرنا هذا الذي أضحت فيه القيم كلها من قبيل المجازات ، فلم تعد أكاليل الغار إلا شماء للعطرسة المقروحة .

انبا مدعوون لان نضرب صفحا عن جميع هذه المعتقدات الساذجة لاننـا لم نعد نفهمها الا في نطاق تفسيرها على انها من قبيل المجاز . لكنـا ننسى انها تنطبق على حقائق بسيكولوجية . والحال ان المجاز ، في الغالب لا يمكننا أن نجرّده تماما عن الواقعية أو المحسوسية . لاننا ما نزال نلمس ، في بعض التحديدات التامـة التجريد أثراً لشيء من الحسي . وان تناول المعرفة الموضوعية بالتحليل النفسي يجب أن يعيد الحياة الى عملية التجريد عن الواقـع وأن ينجزها . وما يعطينـا مقياسا صحيحا للاحطام المتعلقة بالنار هو انها ما زالت مرتبطة الى الآن ، ولعـل ذلك أكثر من أي شيء آخر ، بتوكيدات محسوسة واختبارات داخلية لم يتطـرق البحث اليهـا .

وهكذا نجد أن بعض الصفات الخاصة جدا ، وهي مما يجب أن يتناولـه المدرس على وجه الخصوص ، قد جرى تفسيره بالرجوع البسيط الى النار الداخلية . من ذلك مثلا ، « القوة الفائقة التي نلاحظها في بعض النباتات ... التي تنطوي في داخلها على كمية من النار أكثر ممـا تنطوي عليه سواها رغم كونهـا من نفس الفصيلة . هكذا يتطلب النبات الحساس (الميموزا) نارا أكثر مما يتطلبه نبات آخر أو شيء طبيعي . أفهم من هذا ، ان هذا النبات اذا لمس جسما آخر تقل اليه قسما كبيرا من ناره ، التي هي حياته ، فيقع في المرض وتذوي أوراقه وغصونـه الى أن يحين الوقت لاستعادة قواه فيستمد من جديد نارا من الهواء الذي يحيط به» . لهذه النار الداخلية ، التي يطلقها النبات الحساس (الميموزا) حتى الاستنزاف ، اسم آخر عند المحلل النفسي . لكنه لا يرقى الى درجة المعرفة **الموضوعية** . انـا لا نرى شيئا يمكنه ان يبيح لنا موضوعيا ان نعقد المقارنة بين نبات حساس عار عن الارتكاس (رد الفعل) وآخر حساس استنزفت منه ناره . ان التحليل النفسي

للمعرفة الموضوعية يجب أن يطرد نهائيا جميع الافكار المعمية التي لم تتشكل في الخبرة الموضوعية تخصيصاً •

لقد طالما تكرر القول ، في جميع المجالات وبدون أدنى ظل من البرهان ، بأن النار هي مبدأ الحياة • ان مثل هذا القول هو من القدم حتى لقد بات يتداول تلقائيا • ويبدو أنه مقنع **بصفة عامة** ، لكنه مقيد بتحفظ وحيد هو أنه لا ينطبق على أية **حالة خاصة** • وكلما كان هذا التطبيق دقيقا ، كان أكثر مدعاة الى الضحك • هكذا وصل أحد أطباء التوليد ، بعد أن بحث مطوّلا في نمو الجنين وفي فائدة ماء السابياء(*) ، الى القول بأن الماء ، هذا السائل الناقل الغذاء في الممالك الثلاث ، يجب أن يكون مشبعا بالنار • ولعلنا نجد في خاتمة بحثه مثالا صبيانيا على العملية الطبيعية بين الماء والنار (١٧) . « الانبات هو نوع من الشراهة تتوق بها (النار) الى الاتحاد بالماء الذي يقوم في الحقيقة بدور المعدّل » • هذا الحدس الجوهري للنار المنشّطة للماء هو من الغواية بحيث يحمل مؤلفنا على « تعميق » نظرية علمية قائمة في منتهى البساطة والوضوح على مبدأ أرخميدس : « ألا يجب أن نتخلى بالمرة عن المبدأ السخيف القائل بأن الماء يتحول بخارا ويتصاعد في الجو لانه ، وهو في حالته الجديدة ، أخف من حجم الهواء ؟ » • يرى هذا المؤلف ان مبدأ أرخميدس يصل الى آلية فقيرة جدا • فهو بالعكس يرى من الواضح أنها هي النار ، هذا السائل المنشط « الذي لا مطالة فيه » ، التي تسحب الماء وترفعه الى أعلى • « ربما كانت النار هي هذا المبدأ الفاعل ، هذا السبب الثاني الذي تلقّى كل طاقته من الخالق ، والذي عنته الاسفار المقدسة بهذه العبارة : « وكانت روح الله ترفرف فوق الماء » • هذا هو « التحليق » الذي يحمل طبيبا مولدا على التأمل في ماء السابياء •

(*) ماء السابياء Annios غشاء الجنين لدى الحيوانات اللبونة والطيور والزواحف • ـ المعرب ـ

(17) David, loc. cit., PP. 290, 292

- ٦ -

ان النار ، من حيث جوهر ، هي أكثر الجواهر تعرضا للتقويم ، الامر الذي يترتب عليه تشويه الاحكام الموضوعية أكثر من أي شيء آخر • اذ يبلغ تقويمها ، في اعتبارات كثيرة ، الى درجة ترقى بها الى قيمة الذهب • فالذهب ، فيما عدا قيمته المتعلقة بالاثبات اللازم لتحويل المعادن وقيمته المتعلقة بالعلاج مما كان شائعا في الصيدلة قبل ـ العلمية ، ليس له الا قيمة تجارية • كذلك كثيرا ما يعزو السيميائي قيمة للذهب لانه قابل لتلقي النار العنصرية : « ان خلاصة الذهب نار كلها » • زيادة على ذلك ، ان النار متقلبة التقويم اذ تنقل من أكثر القيم ايغالا في الميتافيزيائية الى أكثر المنافع جلاء • فهي المبدأ الفاعل الاساسي الذي يختصر جميع أفعال الطبيعة • في القرن الثامن عشر كتب أحد السيميائيين(١٨) : « النار ••• هي الطبيعة التي لا تصنع شيئاً عبثا ، ولا يمكن أن تخطيء ولا يصنع شيء بدونها » • وعلى سبيل الملاحظة العابرة ، قد لا يقول الرومانسي شيئا آخر عندما يتكلم عن الحب • أن أقل مشاركة من النار كافية ، اذ ما أن تبصم خاتم حضورها حتى تظهر لنا قوتها : « النار دائما هي الاقل من حيث الكمية ، لكنها الاولى من حيث النوعية » • ان هذا العمل المنسوب للكميات الخسيسة هو من الاعراض البارزة جدا • وحين نفكر في هذا العمل غير مستندين الى براهين موضوعية ، كما هو الحال هنا ، فلأن الكمية الخسيسة الداخلة في الاعتبار قد جرى تعظيمها بواسطة ارادة القوة • اننا كثيرا ما تركز العمل الكيمياوي في مسحوق اضفاء Poudre de projection والعقدي سم رعاف، وحباً مائلاً ، لا يوصف ، في هدية متواضعة • ان للنار أعمالا من هذا القبيل في حافية (لا شعور) انسان ما قبل العهد العلمي : فذرة واحدة من النار في أحلام كونية معينة كافية لاشعال العالم •

ان الكاتب الذي ينتقد الصور السهلة معلنا (١٩) : « اننا لم نعد في ذلك

(18) Lettre philosophique en suite du Cosmopolite, Paris, 1723, PP 9, 12.
(19) Reynier, Du feu et de quelques-une de ses principaux effets, Lausanne, 1787, PP. 29, 34.

العصر الذي كان يُفسر فيه لذع بعض الاجسام المحلة (بكسر الحاء) وتأثيراتها بما عليه جزئياتها وأشكالها من لطافة • تلك الاشكال التي كان يُزعم بأنها عبارة عن زوايا حادة تشيع في الاجسام وتفصل أجزاءها بعضها من بعضها الآخر• ثم يذهب يحبّر في وقت لاحق بضع صفحات قائلا . النار « هي العنصر الذي يسكن كل شيء ، وكل شيء مدين لها بوجوده ، وهي باعتبارها مبدأ الحياة والموت ، والوجود ، والعدم ، تتولى تحريك نفسها بنفسها ، وتحمل في داخلها قوة الحركة »• ان مثل هذا الكاتب ، على ما يبدو تتوقف عنده الروح الناقدة أمام القدرة الداخلية للنار ، لان التفسير بالنار يذهب الى مثل هذه الاعماق التي تستطيع أن تقرر الوجود والعدم للاشياء ، وفي نفس الوقت تجرد جميع التفسيرات الميكانية الفقيرة من قيمتها - ان التفسير بالنار هو تفسير غني دائما وفي جميع المجالات • ان التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية يجب ألا ينفك من شجب مثل هذا الادعاء بالعمق والثراء الداخليين • لذلك كان من حقنا أن نتناول بالنقد ما عليه النظرية الذرية المجازية من بساطة • كما ينبغي لنا أن نقر بأنها قابلة للبحث الموضوعي على حين ان اللجوء الى قدرة النار غير المحسوسة ، كما هو الحال بالنسبة الى لذع بعض العناصر المحلة ، يذهب بنا الى حد مقاومة كل امكانية للبحث الموضوعي•

ان معادلة النار والحياة تشكل الاساس في نظام باراسلز Paracelse الذي يرى ان النار هي الحياة ، وان الذي يحتوي على النار انما يمتلك بزرة الحياة بحق • فالزئبق العادي ، في نظر اتباع باراسلز ، ثمين لانه يحتوي على نار بالغة الكمال ، وعلى حياة سماوية دفينة ، تماما كما يقول بويرهاف (٢٠) • والنار ، هذه الدفينة ، هي التي يجب استحضار فعلها من أجل الشفاء والتوليد • وهناك نيقولادي‌لوك ، الذي يقيم كل تقويمه للنار على أساس صميميتها (٢١) • فالنار ، عنده « اما داخلية ، واما خارجية • فالخارجية آلية ، مفسدة ، مخربة • والداخلية بازرة ، مولّدة ، منضجة » • وللحصول على جوهر النار ، يجب الذهاب

(20) Boerhaave, loc. cit., t. 11, P. 876.
(21) Nicolas de Locques, Les Rudiments de la philosophie naturelle touchant le systeme du corps mixte, Paris, 1665, PP. 36, 47.

الى المبع ، الى حيث تكون مختزنــة ومتكثفة ، أي الى المعــادن • ها كم ، ادن ، افضل ما تمتقت عنه قريحة الكيمياويين القدامى Spagiristes تبريراً لمنهجهم : « هذه النار السماوية ، التي تصنع الحياة ، هي نار شديدة الفعالية في الحيوان ، لانها تتبدد فيه بأكثر مما تتبدد في النبات والمعادن • ولهذا السبب شغل الفلاسفة أنفسهــم دوامآ بالبحث عمــا يكفل اعــادة تموينهــا • ولما رأوا أنهم لا يمكنهــم الاحتفاظ بها طويلا بواسطة مار الحياة ، التي هي في الحيوان والنبات ، عمــدوا الى البحث عنها في المعادن حيث تكون أشد ثباتا وأقل قابلية للاحتراق ، وأكثــر تحمماً واعتدالاً في الفعل ، تاركين الاعشاب الى اتباع غالين Galénistes يصسمون السلطة منها حين لا تكون هده النار المباركة الا كما تكون الشرارة » •

باختصار ، لقد كان الاعتقاد في المملكة العالمية بأن النار تؤدي بنا الى هده النتيجة الجدلية (الديالكتية) السريعة . ادا كانت النار مبددة في الحيوان ، فلأنها مكثفة في المعادن ، حيث نجدها دفينة ، صميمية ، جوهرية بالتالي كلية القدرة • هكدا الحب الصامت هو الحب المخلص •

- ٧ -

ان الايمان الشديد بالقدارات الخفية لا يمكن أن يتأتى حصراً عن الاختبار الخارجي للرفاه الــذي نستشعره ونحن أمام موقــد مضيء ، بل لا بد من اضافــة توكيدات أخرى ، موغلة في داخليتها ، دات صلة بالهضم ، وبالعذوبة المريحة التي نحسها اد نتناول حساء ساخنا ، وباللذع السليم الدي نحسه في المشروبات الروحية• والانسان الشمان تنقصه العناصر العاطفية الاولية لكي يفهم بسيكولوجية البداهة الواقعية ، ما دام لم يقم بتحليل هذه العناصر تحليلا نفسيا • لقد بينا في مكان آخر كل ما تدين به الكيمياء الواقعية لاسـطورة الهضم • ففيما يتعلــق باحساس الحرارة المعدية ، وما ترتب عليها من استنتاجات مغلوطة موضوعيا ، يمكننــا أن نجمع من ذلك ما لا حصر له من الروايات • هذا الاحساس ، في العالب ، هو المبدأ الحسي للصحة والمرض • أما فيما يتعلق باحساس الآلام الخفيفة ، فكتب الممارسين

تركز الانتباه بصفة خاصة على « الحرارات » و « السيّالات الحرورية » ، وما يعتري المعدة من حالات جافة تكفل لها الاشتعال • كل مؤلف يظن نفسه مضطرا لان يفسر هذه الحرارات تفسيرا متفقا مع منهجه ، ذلك لان هذا المنهج يفقد كل قيمة له ان هو لم يفسر كل ما له صلة بالمبدأ الاساسي للحرارة الحيوية • هكذا يفسر هيكيـه نار الهضم طبقـا لنظريتـه المتعلقة بالطاحونـة المعديـة ، فيذكرنـا بالدولاب الذي يشتعل بالاحتكاك • اذن ، ان طحن المعدة للاطعمة هو الذي ينشيء الحـرارة اللازمة « لاحراقها » • والصفة العلمية التي يتمتع بها عالم مثل هيكيه لا تسمـح له بالذهاب الى حد مشاركة بعض علماء التشريح اعتقادهم بأنهم « رأوا نارا تخرج من معدة العصافير » (٢٢) • الا أنه يدلي بهذا الرأي واضعا اياه في محله الصحيح ، سيّما أن صورة الانسان الذي يتقيأ لهبا وهو يرقص هي صورة محببةلدى الحافية (اللا شعور) • ان نظرية الاضطرابات المعدية حليقة بأن تفسح المجال لما لا نهاية له من الملاحظات ، فهي تتيح لنا البحث في أصل جميع المجازات التي آلت الى تصنيف الاطعمة بحسب حرارتها وبرودتها ، حرارتها اليابسة ، حرارتها الرطبة ، وقوتها المنعشة • كما تمكننا من أن نثبت في يسر مبلغ الضرر الذي سببته الاحكام المسبقة المتشكلة من الانطباعات الاولية ، العـابرة ، التافهة ، في الدراسة العلمية للقيـم الغـذائية •

وبذلـك نجدنا غير متردديـن في البحث عـن أصل من الاحساسات الداخليـة Cénésthésique لكي نفسر بعض الاحداس الفلسفية الاساسية ، لا سيما ونحـن نعتقد أن ما يحوزتنا من حرارة داخلية ، مغلّفة ، محفوظة ، ان هو الا عمليةهضم ممتعة ، تفضي بنا لا شعوريا الى التسليم بوجود نار خفية ، غير مرئية ، في داخـل المادة ، أو في بطن المعدن ــ على حد تعبير أهل السيمياء • ان النظرية التي تقوم على هذه النار المنبعثة من المادة تضعنا أمام مذهب مادي من نوع خاص يجب أن نوجد له تسمية خاصة ، اذ تمثل تباينا فلسفيا كبيرا يقع في موقع الوسط بـين المذهب المادي والمذهب الاستحيائي • فهذه الحرورية Calorisme تتفق مع جعـل

(22) Hecquet, de la digestion et des maladies de l'estomac, Paris, 1712, P 263.

النفس شأناً مادياً (تحديد النفس) أو مع جعل المادة شأناً حياً (استحياء المادة) ، فهي بهذا الاعتبار صيغة انتقال بين المادة والحياة • انها الوجدان الاصم للتمثل المادي للهضم ، ولحيونة غير الحي Animalisation de l'inanimé .

ونحن لو عدنا الى اسطورة الهضم هذه ، لاحسسنا بالمعنى والقوة فيما قيل على لسان الزئبق في الكوزموبوليت بصورة أفضل (٢٣) : « أنا نار في داخلي ، والنار مني بمثابة اللحم ، وهي حياتي » • وهناك سيميائي آخر يعبّر عن هذه الفكرة بطريقة أقل تخييلا لكنه يصل الى نفس النتيجة . « النار عنصر يتحرك في مركز كل شيء (٢٤) • ما أسهل أن يكون لمثل هذه العبارة معنى ! في الاساس ، ان القول بأن لجوهر ما داخلا ومركزا ليس أقل مجازية من القول بأن له بطنا ، وأن نتحدث عن صفة ومن ميل معناه اننا نتحدث عن قابلية لبطعام • وأن نضيف الى ذلك قولنا ، كما يفعل أهل السيمياء ، بأن هذا الداخل هو موقد تحضن فيه النار ـ المبدأ التي لا تقبل التحطم ليس الا اقامة ملتقيات مجازية متمركزة فوق عقائد يقينية ذات صلة بعملية الهضم • يجب أن نبذل جهودا كبيرة من الموضوعية لكي نفصل الحرارة عن الجواهر التي تتبدى فيها ، ولكي نجعل منها حالة انتقالية تماما ، وطاقة لا يمكن أن تكون كامنة ولا خبيئة بأي حال •

ان جعل النار في الداخل ، أو تدخيل النار Intériorisation du feu أمر لا يعظم من شأنها وحسب ، وانما يتيح الظهور لاكثر التناقضات شكلية • وهذا ، بحسب رأينا ، ليس دليلا على الخصائص الموضوعية بل على القيم البسيكولوجية • ولعل الانسان هو الشيء الطبيعي الاول الذي تحاول الطبيعة أن تتناقض معه ، وهذا هو السبب الذي من أجله تتجه الفاعلية الانسانية الى تغيير وجه الكوكب • لكننا ، في هذا المقال الصغير ، يجب ألا نأخذ بالاعتبار الا تناقضات النار وأكاذيبها • بفضل التدخيل ، نأتي الى الحديث عن النار غير المشتعلة •كتب يواكيم بولمان بعد أن اشتغل زمنا طويلا على مادة الكبريت ـ كتب يقول (٢٥) :

(23) Cosmopolite, loc. cit., P. 113.
(24) Lettre philosophique en suite du cosmopolite, loc., cit., P 18.
(25) Polman, loc. cit., P. 167.

« بما ان هذا الكبريت قد كان ، وهو في حالتـه الطبيعية ، نارا مشتعلة وضوءا ساطعا في الخارج فهو الآن لم يعد خارجيا بل داخلي وغير قابل للاشتعال • لم يعد نارا وهّاجة خارجيا بل داخليا • وكما كان في السابـق يحرق كل ما هو قابـل للاشتعال ، كذلك هو في الحاضر يحرق الامراض الخفيّة بقدرته • وكما كـان الكبريت قبل طبخه يلمع خارجيا ، فقد بات الآن لا يلمع الا في الامـراض أو في النفوس المظلمة ، التي ما هي الا أرواح أو خصائص لسرير الموت ••• والنار ترد هذه النفوس المظلمة نفوسا خيرة مثلما كانت عليه عنـدما كان الانسان سليمـا معافىً » • انما ، عندما نقرأ مثل هذه الصفحات ، يبقى لنا أن نتساءل من أي جهة هي واضحة ، ومن أي جهة هي غامضة • والحال ان ما كتبه بولـان غامض حقاً من الوجهة الموضوعية ، وان الانسـان العلمي المطلع على الكيميـاء والطب ليحتار في تسمية هذه الخبرات المذكورة • أما من الوجهة الذاتية فتبدّى لـــا كتابته واضحة اذا نحن بذلنا جهدا للحصول على مادة للتحليل النفسي ، واستمددنا، على وجه الخصوص ، العقد الناشئة من عاطفة التملك وانطباعات النار الداخلية• ان هذا لهو الدليل على ان هذه الكتابة ذات تماسك ذاتي ، لا تماسك موضوعي • ان تعيين محور الوضوح على هذا النحو ، سواء أكان ذاتيا أم موضوعيا ، ليبدو لنا انه أول تشخيص للتحليل النفسي للمعرفة الموضوعية • واذا كان مجمل الاعتقادات الشخصية ، في معرفة ما ، يتجاوز مجمل المعارف التي يمكن توضيحها وتعليمهـــا واثباتها ، كان التحليل النفسي ضرورة لا غنى عنها • ان بسيكولوجية رجل العلم يجب أن تجنح به الى بسيكولوجية متعارف عليها بوضوح ، والعالم يجب أن يتأى بنفسه عن تشخيص معرفته (*) ، وبصورة تناسبية يجب عليه أن يقسر نفسه على جعل اعتقاداته شأنا من شؤون المجتمع •

ان الاثار الفيزيولوجية التي تحدثها الحرارة في أجسامنا شائعة في المعرفة ما قبل ـ العلمية ، ودليل ذلك أن الحرارة الداخلية تحدد لنا أنواعاً منها لا يستطيع المختبر الحديث أن يميز فيما بينها • بعبارة أخرى ، أن الجسم البشري يوحي

(*) أي جعل معرفته شخصية او ذاتية • ـ المعرب ـ

لنا بنقاط نارية يضطر أهل السيمياء الى تحقيقها • يقول أحدهم (٢٦) : « يميز الفلاسفة (الحرارة) تبعا لدرجة حرارة الحيوان ، فيصنفون منها ثلاثة أنواع أو أربعة : فحرارة هاضمة كحرارة المعدة ، وأخرى مولدة كحرارة الرحم ، وثالثة مخثرة كحرارة السائل المنوي ، وأخرى دارة للبن كحرارة حلمات الثدي ••• فالحرارة في المعدة تفسخ المواد الغذائية وتهضمها ، وفي الرحم تحضن الجنين ، وفي الكلي والكبد وحلمات الثدي دارّة وحارقة » • وهكذا نجد أن الاحساس بالحرارة الداخلية ، مع ألف من المباينات الذاتية ، يجد ترجمة له في علـــم بالنعوت Science d'adjectifs كما هو الحال دائما في كـل علم تعترضـــه عوائق من الاعتقادات بالجوهر أو بالحياة •

ان اللجوء الى الجسم البشري كمصدر لمعرفة الحرارة يعرض نفسه منذ زمن بعيد ، حتى وان كانت الروح العلمية قد شهدت بعض التطور • لما أريد صنع أول ميزان للحرارة ، كان الجسم البشري احدى النقاط الثابتة التـي جرى التفكير فيها في بادىء الامر من أجل تعيين درجات الحرارة • يبقى أن نعرف بالانقلاب الموضوعي الذي أحدثه الطب الحديث حين يحدد حرارة الجسم البشري بالمقارنة مع الظاهرات الفيزيائية • ان المعرفة العامية تعمل من منظور معاكس ، حتى وان كانت داخل نطاق من التجارب المحددة بعض التحديد •

ـ ٩ ـ

لكن « هذه الحرارة الخفيفة ، التي تنعش فينا الحياة » ، كما يقول أحـد الاطباء في نهاية القرن الثامن عشر ، أكثر ما تكون ظهورا عندما نعتبرهاتحقيقا كليا للحياة ، وهي في اختلاطها أو في تركيبها ، وبدون أي تحييز مكاني • لان الحياة الجارية في الحفاء ما هي الا حرارة مختلطة • وان هذه النار الحية لهي التي تشكل الاساس في مفهوم النار الخبيئة ، غير المرئية ، التي لا لهيب لها •

وعندئذ تنطلق الحياة اللانهائية للهواجس العليمة من عقالها • ولما كانت

(26) Nicolas de Locques, loc., cit., T.I.P. 52.

النوعية البادية قد انفصلت عن المبدأ المشتعل ، وما عادت النار ذلك اللهيب الاصفر ، ولا ذلك الفحم الاحمر ، بل أضحت نارا غير مرئية ، فقد بات ممكنا أن تتقبل من الخصائص أكثرها تنوعاً ، ومن النعوت أكثرها اختلافا • لنأخذ الماء القوي l'Eau-forte الذي يحرق الروتر والحديد • فناره الخبيئة التي لا حرارة فيها تحرق المعدن حرقا كاملا فلا تبقي له على أثر ، هذا الفعل البسيط ، الخفي ، المثقل بالهواجس اللاشعورية ، انما يختفي وراء النعوت طبقا لقاعدة في الخافية (اللاشعور) مؤداها : ان الشيء ، **كلما قلت معرفتنا به زاد كلامنا عنه** • يقول تريوبران (٢٧) ، في معرض حديثه عن الماء القوي ، ان هذه النار الخبيئة لهي نار « لطيفة ، متبخرة ، هاضمة ، دائبة ، محيطة ، هوائية ، واضحة ، صافية ، منغلق عليها ، غير جارية ، متمايزة نافذة ، حية » • بكل بداهة ان هذه النعوت لا تعيِّن لنا شيئا ، بل تعبر عن عاطفة ، وعن حاجة للتدمير بارزة للعيان •

ان اللذع الذي يحدثه سائل ما ليدهش جميع النفوس • لقد طالما رأيت تلميذاتي وقد عرتهن الدهشة من تكلس الفدام (غطاء الزجاجة) بحامض الكبريت • فقد كانت بلوزات العاملات الشابات تتلوث بالاحماض على وجه الخصوص ، بالرغم من كل التوصيات ، أو لعل ذلك ناشيء عن هذه التوصيات ، ان أردنا النفاذ الى الدوافع الخفية الكامنة في الخافية (اللاشعور) • ذلك أن التفكير يتجه الى مضاعفة قوة الحامض ، وارادة التخريب تتضافر مع الخاصية التخريبية التي يعرف بها الحامض • ان التفكير في قوة ما لايعني استخدامها وحسب ، بل الافراط في استخدامها كذلك • فبدون هذه الارادة في استخدام القوة في افراط ، لا يمكن أن يتضح الشعور بالقوة • كتب مؤلف ايطالي مجهول ، في نهاية القرن السابع عشر ، مبدياً اعجابه بهذه القدرة الصميمة على التسخين التي نجدهـا في « المياه القوية ، وفي المشروبات المماثلة ، التي لذعها في الشتاء لا يقل عن لذع

(27) Crosset de la Heaumerie, Les secrets les plus cachés de la philosophie des anciens, Paris, 1722., P. 299.

لنار في جميع الفصول ، وتحدث آثارا كبيرة حتى ليعتقد في قدرتها على تدمير الطبيعة ، وردها الى العدم » •• وكمثال على هذه العدمية التي تميق بها مؤلف ايطالي طاعن في السن ، أن يكون من الامور المستغربة أن نقرأ هذا الخبر وما رافقه من تعليقات أوردتها صحف روما الصادرة في ٤ آذار ســـنة عام ١٩٣٧ • مؤدى الخبر أن السيد غبرييل دانتزيو قد بعث برسالة انهاها بهـذه العبارات الغامضة : « أنا ، منذ الآن فصاعدا ، رجل عجوز ، مريض ، ولذلك رأيت أن أعجل في نهايتي • لقد حظر علي الموت في ساحة القتال ، واني لأزدري الموت على الفراش ، ولذلك سوف أقوم بتجربة اختراعي الاخير » • ثم توضح الصحيفة مم يتكون هذا الاختراع : « إن الشاعر ، وقد أحس بدنو أجله ، قرر أن يغطس نفسه في حمام يجلب له الموت فورا ويحرّب للتو جميع أنسجة جسمه • انــــه الشاعر نفسه الذي اكتشف صيغة هذا السائل » • هكذا يعمل هاجسنا العلمي والفلسفي - فهو يظهر حدّة جميع القوى ويبحث عن المطلق في الحياة مثلمـا يبحث عنه في الموت • ولما كان لا بد لنا من أن نغيب ، وكان لا بد لغريزة الموت من أن تفرض نفسها يوما حتى على الحياة العارقة في بذخها ، فلماذا لا نغيب جميعا ولا نموت ميتة واحدة • اذن ، فلنطفيء نار حياتنا بنار عليا ، بنار عليا فوق ـ انسانية Par un surfeu surhumain ليس فيها لهيب ولا رماد ، بنار تحمل العدم الى قلب الكائن نفسه ، فحين تلتهم النار نفسها ، وتنقلب القوة على نفسها ، يتبدى بجلاء أن الكائن قد جمع شمله في نفس اللحظة التي يفقد فيها نفسه ، وان حدة الدمار لهي أكبر دليل وأنصع برهان على تحقق الوجود • ان هذا التناقض ، القائم في أساس حدس الكائن ، ليلائم تغيرات القيم الى ما لا نهاية •

– ١٠ –

عندما يعثر الفكر قبل ـ العلمي على مفهوم كمفهوم النار الكامنــة الذي تتلاشى فيه الصفة التحريبية ، نجده يتخذ موقفا يتميز بسهولة لا نظير لها : لقد بات من حقه أن يتناقض مع نفسه تناقضا ظاهرا من الوجهة العلمية •ذلك

لان التناقض ، الذي هو من طبيعة الخافية (اللاشعور) ، يضمحل في المعرفة قبل — العلمية • لنأخذ ، على سبيل المثال ، ذلك التناقض الذي يتخذ شكلا فجًا لدى كاتب اتسم بالروح الناقدة • فالنار ، عند رانييه كما هي عند السيدة دي شاتليه ، هي مبدأ التمدد • وبالتمدد يمكن الحصول على مقياس موضوعي• لكن هذا لا يمنع رانييه من الذهاب الى أن النار هي القدرة التي **تقلص وترص**• فالاجسام جميعاً مدينة للنار في تراص مبادئها • بدونها تغدو غير متراصة • لان النار ما أن تدخل في واصل Combinaison حتى تتقلص في فراغ أضيق بكثير من الفراغ الذي كانت تشغله (٢٨) النار ، اذن ، هي مبدأ التقلص بمثل ما هي مبدأ التمدد • هذه النظرية طلع بها عــــام ١٧٨٧ مؤلف كان همه أن يتجنب كل ثقافة آتية من العالم الخارجي • وكان أهــــل السيمياء يقولون أن « الحرارة تعزل ما تنافر من الاشياء وتطهر ما تجانس منها » • ولما لم يكن ثمة اتصال بين المؤلفين الذين نورد ذكرهم هنا ، كان جليا أننا نمس مسآ شديـدا أحد الحدوس ذات الطبيعة الذاتية التي تسعى الى المواءمة اعتسافاً بين النقائض•

وانما اتخذنا من هــــذا التناقض مثالا لتعلقه باحدى خصائص الهندسـة المستوية ، وبما انه كذلك ، كان من الامور التي لا طاقة لاحد باحتمالها • أما اذا أخذنا بالاعتبار تناقضات أخرى أشد خفــاء ، تناقضـات في مستوى الصوت الموغلة في غموضها ، فان الامر يفضي بنا الى الاعتقاد في يسر بأن هذا التناقض الهندسي ، شأنه كشأن التناقضات الاخرى ، قد نشأ عن بسيكولوجية النار بأكثر مما هو ناشيء عن فيزيائيتها • ولسوف نلح على ابراز هذه التناقضات لكي نبين أن التناقض من الخافية هو حاجة حقيقية بأكثر منه ضربا من المسامحة • والحق أن بلوغ الاصالة ممكن بأكثر ما يكون من اليسر بواسطة التناقض ، لان الاصالة هي من المزاعم التي تسود الخافية • وهي عندما تطبّق على المعارف الموضوعية ، **تتولى** هذه الحاجة الى الاصالة **ابراز** تفصيلات الظاهرة ، **وتحقيق** المتباينات ، **وتعليل** المصادفات ، تماما كما يصنع الروائي ، بفضل مجموعة اصطناعية من

---

(28) Reynier, loc., P. 39 et 43.

المزايا الفردية ، شخصية مريدة بفضل مجموعة من النتائج المفاجئة • هكذاشأن نيقولا دي لوك (٢٩) : « هذه الحرارة السماوية ، هذه الحرارة التي تصنع الحياة ، مقيدة غبية في مادة يابسة ، جد متمددة في مادة رطبة ، جد فاعلة في مادة حارة ، باردة متجلدة منكتمة في مادة باردة » • هكذا نجده يؤثر القول بأن النار متجلدة في المادة الباردة على القول بتلاشيها • أن التناقضات تتراكم لكي تحفظ للنار قيمتها •

بعد قليل سنتناول بالدرس مؤلفة عرفت بالعلم في الاوساط الادبية -لنأخذ كتاب المركيزة دي شاتليه • فالقارىء يجد نفسه في مركز الدرامة منذ الصفحات الاولى : النار لغز ، والنار شيء مألوف « النار بعيدة عن متناول ادراكنا ، رغم انها في داخل نفوسنا » • في النار ، اذن ، صميمة عمها نقص ظواهر النار • فهي تغاير ما هو مسموح بظهوره منها• والنور والحرارة عند السيدة دي شاتليه، حالتان من النار لا خاصيتان من خواصها • هذا التمييز الميتافيزيائي ينأى بنا عن الروح قبل ـ الوضعية التي أريد لها أن تتفق من كل وجه مع تجريبي القرن الثامن عشر • والسيدة دي شاتليه تمكث على القيام بسلسلة من التجارب ، الغرض منها فصل الذي يلمع عن الذي يسخن ، فتذكرنا بأن اشعة القمر غير محملة بالحرارة ، وانها غير محرقة وان تكثفت في بؤرة العدسة • القمر بارد ، ادن • هذه التأملات كافية لتسويغ هذه المقولة الغريبة : « ليست الحرارة شيئا أساسيا للنار الابتدائية » • تبدو السيدة دي شاتليه ، منذ الصفحة الرابعة من مذكرتها ، ذات فكر أصيل وعميق بفضل هذا التناقض وحده • وقد قالت هي عن نفسها انها ترى الطبيعة « بعين أخرى غير العين العامية » • ومع ذلك حسبها بعض الاختبارات الاولية أو الملاحظات الساذجة لكي تقرر أن في النار ميلاً نحو الاعلى دون أن تكون ذات وزن ، كما يريد لها ذلك بعض الكيمياويين • لكن هذه الملاحظات القابلة للاخذ والرد ، سرعان ما تفضي بها الى مبادىء ميتافيزيائية • « النار ، اذن ، هي الخصم الدائم للوزن ، انها تأبى الانقياد

(29) Nicolas de Locques, loc. cit., P. 46.

اليه · كل شيء في الطبيعة هو في تذبذب دائم بين التمدد والتقلص بفضل تأثير النار في الاجسام ، ومقاومة الاجسام لتاثير النار بفضل الوزن والتراص في اجزائها ··· أن تريد للنار وزنا معناه تدمير الطبيعة ، ومعنى ذلك بالتالي انتهاك حرمة أشد خواصها أساسية ، تلك الخاصية التي تكون بها واحدا من ملاجيء الخالق »· الا ينبغي لنا أن ندرك مدى فقدان التناسب بين الاختبارات والنتائج ؟ على أية حال ، ان السهولة التي تم بها اكتشاف قانون مضاد Contre-loi ينقص الوزن الكوني ، هي ظاهرة جد ملحوظة في فاعلية الخافية (اللاشعور) · ان الخافية هي عامل الجدليات المتكتلة التي كثيرا ما نجدها في المناقشات التي تصدر عن سوء نية ، وكثيرا ما نجدها جد مختلفة في الجدليات المنطقية الواضحة ، التي تعتمد على اختيار بيّن · ان الخافية تتخذ من التفصيلات الاستثنائية ذريعة تصنع منها تعميما معاكسا : ان فيزياء الخافية هي أبدا فيزياء الاستثناء · *

□ ■ □

* نشرت الفصول السابقة من « النار في التحليل النفسي » في الأعداد الماضية من « الاداب الأجنبية » ·

زوجانا

قصة : ميخائيل شولوخوف
ترجمة : ليان ديراني

ميخائيل شولوخوف

كاتب سوفيتي كبير،ذو شهرة عالمية، فاز بأكبر الجوائز العالمية : جائزة لينين وجائزة الدولة في الاتحاد السوفيتي وجائزة نوبل للآداب والجائزة البولونية (السنبلة الذهبية) ، كما حاز لقب دكتور شرف من أعرق الجامعات في اوروبا، ومنح عضوية المجمع العلمي .

اشهر رواياته : (الدون الهادىء) (الاراضي المستصلحة) (قدر انسان) .

تميزت كتاباته بواقعيتها الأصيلة التي تكشف عن الواقع بكل ما يزخر به من تنوع وغنى ، انها تنقل الحياة في زحمة الصراع المستمر بين المبادىء المتناحرة وترفع عاليا في العالم صوت الانسانية الاشتراكية.

عرف شولوخوف بقدرته الفائقة على التغلغل في قرارة أعماق الانسان ، كما عرفت كتاباته بتمكنها من اللغة الشعبية وفنها الراسخ في الوصف الانساني والطبيعي .

وراء الحظيرة البعيدة من عمد البرق ، خط متعرج من الغابات ، يكسو التلال : إنها غابات كاتشالوفكا وأتامانسك وروغوجينو . وثمة سفح زاخر بالاشواك ، ينحدر الى مزرعة كاتشالوفكا التي تنتهي اكواخها المنخفضة حيث تبدأ بيوت التعاونية.

كان أرسيني كليوفكين ، رئيس التعاونية ، واقفاً قرب جحر يربوع وهو منفرج الساقين ،قليل الانحناء. كانت الريح تعبث بقميصه وتدفع العرق من جبهته الى منبت أنفه ، الى جانبه الأب أرتيوم ،ويده الخشنة تظلل عينيه ، ينظر الى الجرار الذي يقسم الارض السوداء الى قطع براقة: لقد فلح أربع ديسياتين(١) منذ هذا

(١) «ديسياتين» وحدة قياسية روسية قديمة، تساوي ١٫٠٩ من الهكتار .

الصبـــاح ! وهي أول تجربة تجري اليوم ! ولقـد جف حلـق أرسـيني لشدة فرحه ، فهو يلاحق بنظراتـه شبح الجرار المحدودب ويمرر لسانه على شفتيه المسودتين من الحرارة ، قائلا :

ـ انت تتكلم على الآلة ، ايها الأب أرتيوم !

فاندفع العجوز وهو يلهث ويتأوه ويتعثر في الاخدود والتقط قبضة من التراب الغضاري ، ما لبث أن فتتها بين يديه والتفت الى أرسيني وهو يلقـي بعمرته على التراب الذي سحقته السكك وهتف بصوت باك :

ـ هذا ، لعمري ، ما يمزق الصدر ! خمسين عاماً قضيت ، وأنا أشقى من اجل ثوري وثوري يشقى من اجلي !.. احرث به نهاراً واسهر عليه ليلاً ، فما من سبيل الى النوم أو الراحة ! ولا احدثك عن الشتاء الذي اقضيـه في خوف دائم على البهائم ! فكيف تريد مني أن أتحمل الآن ؟

رسم العجوز إشارة يأس بمقبض سوطه الموجـه الى الجرار وأعـاد عمرته الى رأسه ومضى دون ان يلتفت الى الوراء .

احتجبت الشمس خلف الهضبة تمهيداً لحلول الظلام . وعجـل عبـق الربيع باكتساح السهب . فنزل السائق من جراره وبطرف كمه لطخ وجهـه بالغبار الأدكن .

اقبلت آنا نحو الغدير المجلل بطبقة من الجليد الرمادي القذر وهي تضم الطفل الى صدرها ، متعثرة في كل خطوة من خطـواتهـا . كـان القصب على ضفاف الغدير يضج في مهب الريح ورؤوسه الشعرية ، تقدم الى آنـا تحيات متعالية مقتضبة .

تقدمت من حفرة ماء . وكان سطحها مغطى بقشرة رقيقة وعلى شاطئهـا ما تبقى من الجليد ومن الروث المتجمد .

حدقت آنا الى فوهة الماء السوداء الغائرة وهي تزيـد من ضم طفلهـا اليها . فجثت . وفي هذه اللحظة نفسها ، تعالى بكاء الطفل تحت غطائـه وبين

اقمطته . واذا بموجة لاذعة من الخجل تصفع وجهها . فنهضت عن الارض واقمة وهرولت الى التماوية دون أن تلتفت الى الوراء . ها هوذا الباب الجميل الصنع ، وقد صبغه الشتاء بشيء من الاصفرار ، وها هو ذا هدير المولد الكهربائي وهو يعمل جاهداً في الاهراء ...

ارتقت آنا الدرجات بخطى متردده ودفعت باب المجاز بصريره ، وراح قلبها المذعور يخفق على انغام وقع اقدامها . هذا هو الباب الثالث الى اليسار ، دقته ، لم تتق جوابا . دقته بقوة اكبر . على هذه الثيران ، ولا سبيل الى اقناعها بأن تسير . يالمصيبة !

ـ من أين انت قادمة هكذا ؟

ـ من الطاحون . انقل حمولة كاملة من القمح ، ولكن الثيران لا تتحرك .

سارع أرسيني الى خلع عباءته ، والقاها على ذراعي المرأة وهو يمازحها :

ـ وان انا انقذتك من هذه الورطة ، اتقدمين لي كأسا ؟ كان يحدق في عينيها .

فأدارت عنه أنظارها وأعادت منديلها على وجهها .

ـ قدم لي مساعدتك دائما ... والحساب يتم فيما بعد ...

كان ارسيني في نحو السابعة والعشرين من العمر ، قوي البنية ، مفتول الساعدين . ما إن نقل ستة اكياس الى رأس الرابية ، حتى جلس على طرف العجلة وهو يتصبب عرقاً ، كي يأخذ قسطاً من الراحة .

ـ إذن ، ما من اخبار عن زوجك ؟

ـ هناك من عاد منهم من وراء البحار . من عند (ورانجل(١)) وروى خبر موته في تركيا .

ـ وكيف ستتصرفين الآن ؟

ـ كما كنت في الماضي ! حسناً ، تأخرنا .. شكراً لمساعدتك ، يا ارسيني اندريفتش !

---

(١) ورانجل : قائد روسي أبيض قاوم الثورة السوفيتية ، حتى انهزم وفر خارج البلاد .

ـ شكرك لا يسمن ولا يشبع من جوع !

جمدت البسمة على شفتي ارسيني ، فلزم الصمت برهة وجيزة ، ثم مال وامسك فجأة بالرأس المعصوب بمنديل أبيض ، واطبق شفتيه على الفم الندي المرتعش ، واذا بصفعة سريعة من اليد الخشنة توقد فيه جمرة الخجل ، فتخلصت منه آنا واعادت منديلها الى ما كان عليه وصاحت بصوت عال :

ـ الا تستحي ايها القذر !

ـ علام تصيحين بهذا الشكل ؟ قال ارسيني وهو يخفض صوته .

ـ اني متزوجة ، على كل حال ، اليس كذلك ؟ هذا مالا يليق ! فتش عن امرأة غيري ، تتلهى بها !

شدت آنا على اللجام وصاحت بصوت غارق بالدموع :

ـ هكذا انتم كلكم ! انتم لا تفكرون الا بهذا ، ايها التيوس الحقيرون !

□ □

ازدانت البساتين بأزهار بيضاء وازهار ورديه ، تشيع النشوة في النفس، وبدت بهية كأنها في أعراس الشباب . وكانت الضفادع في غدير كاتشالوفكا ، بين الجذور المحمرة الدبقة ، تثير جلبة صاخبه في الضباب المتصاعد من المياه . الطقس جميل ، وارسيني ، رئيس تعاونيه كاتشالوفكا حسن المزاج ، منشرح الصدر ، فالأرض لن تبقى بائرة ، دون حراثة (فالجرار موجود !) ولكن ثمة غصه تحز في قلبه وتمنع عنه الراحه والهدوء . . . ففي اليوم الثالث ، نهض ارسيني قبل صياح الديك ومضى الى ناحية الطاحون وجلس على ربوة عاليـة وعرة . لا فرق لديه اطلقت الـسوء الثرثارات فيه غداً لالسنتهن الفتان ، او انصرف فتيان التعاونيه الى النيل منه والطعن به ، على شرط أن يراها وأن يتمكن من القول لها ، انه منذ الخريف الماضي ، منذ ان كانا يعملان معاً ، جنباً الى جنب ، في حزم الشعير اكواما عالية ، منذ هذا الوقت ، لم يعد كثير الاهتمام بالعمل ولا بأي شيء آخر في الدنيا . . .

لمح المنديل الابيض على مسافة بعيدة جداً .

ــ صباح الخير يا آنا سيرفيفنا !
ــ صباح الخير يا أرسيني اندرييفتش !
ــ بودي لو أقول لك كلمتين اثنتين ...

ادارت له ظهرها وهي تعبث بمنديلها ، والامتعاص باد على محياها .

ــ على مرأى من الجميع ، الا تخجل ؟ كلمتين ، هيا تكلم !
ــ صبراً ، دعيني اتكلم !
ــ لا مجال الآن ! فالبقرة قد تشرد بين الذرة .
ــ انتظري ! تعالي الى ما بين اشجار الحور ، عندما يهبط الظلام ، فانا بحاجة الى التحدث اليك ...

فادخلت رأسها بين كتفيها ومشت دون أن تلتفت .

... كانت العواسج الشائكة تحتضن اعشاش السمانيات ، تحت اشجار الحور المتشابكة الاغصان ، وكان الضباب يخط في الليل دروباً وهمية بين الاعشاب . ترقب ارسيني هبوط الظلام وحين تدحرجت من اعلى الرابية كتل ترابية ، تحت وقع اقدام حذرة ، خفيفة ، احس كأن صقيعاً يدب في اصابعه ، وعرقاً يتصبب على جبينه .
ــ آنا ، أما زلت تنقمين عليّ من المرة السابقة ؟
ــ كلا ، فقد تعودت هذا ، منذ أن فقدت الزوج ...

ــ حسنا ، هاك الآن ما نويت أن أقول لك . انك تعيشين حياة أرملة وحمولك يضيق بك ذرعا ... افلا توافقين على أن تتزوج ؟ سألتزم جانب اللطف معك ! ايتها البهيمة ، لماذا تنوحين ؟ آه من هؤلاء النسوة الساذجات . هن جميعاً متشابهات ! ولئن كانت الهواجس تقلقك بشأن زوجك ، فانت مخطئة .. تعلمين اني لن أكرهك على البقاء معي ، اذا ما قدر له أن يعود ... فتمضين اليه ، اذا ما طاب لك ذلك ...

جلست الى جانبه على العشب المبلل بالندى ، مطأطئة الرأس . وأخذت ساقاً يابسة وراحت ترسم بها على التراب ، اشكالاً غريبة .

جذبها اليه بجبن وقد خشي أن تدفعه‌عنها وأن تصرخ فيه وتنفر منه في وسط هذا البستان كما فعلت في المرة السابقة . بيد أنه حدق الى عينيهما ، فلاحظ تحت ظل عصابتها ، بسمة ما زالت مبللة بالدموع .

ــ هلمي يا آنا ، لننس كل شيء ! لنمض ونسجل زواجنا ، لنصرف معاً الى العمل في تعاونيتنا ! فلن تقضي عمرك كله في الوحدة والكآبة ، اليس كذلك ؟

□ □

ها هو الجفاف . الماجل في المروج ترن فتبعث الذعر في الطيور . والناس الأخيار لا يحصدون الأعشاب حصداً بل يقتلعونها اقتلاعا . أما جرار التعاونية فقد كان خلف هضبة امديوشكا مشدوداً الى حصادتين اثنتين . وكانت أكوام القش في الغبار وفي الحرارة اللافحة ، أشبه بندوب على جسم السهب . فاذا ما آن أوان الظهر وتربعت الشمس في كبد السماء ، أراح أرسيني الغبار اللاذع عن منجله ومضى ينضح وجهه بالماء ، فيبصر امرأته آنا ، قادمة اليه . انه يعرف مشيتها السريعة على بعد فرسخ منه . ها هي ذي تأتي الى الحصادين بالطعام . فتدنو منهم وخداها متوردان من قبلات الشمس .

ــ أمتعبة أنت يا آنا ؟ بيتنا يبعد ما يزيد على ثلاثة عشر فرسخا ....

ــ كلا ، ليست المسافة بهذا القدر ، ولكن لولا هذه الحرارة ، لما كان لهذا شأن يذكر ...

جلسا جنباً الى جنب مستندين الى احدى الكومات . فداعب ارسيني ذراعها بيده الخشنة وسرى عنها ببسمة تحبب .

تلقته في هذا المساء ، أمام منزلهما وهي تمسك بالدرابزين ، كأنها تخاف على نفسها من الوقوع ، وبمشقة بالغة لفظت شفتاها المتعبتان :

ـ أرسيوشا ! الكسندر ٠٠٠! زوجي ٠٠٠ كتب رسالة من تركيا ٠٠٠ يقول انه عائد ٠٠٠

ان ما هو خير للبعض ليس خيراً للآخرين ٠٠٠

فالجفاف أحرق القمح في كاتشالوفكا ، وأغاني الصبايا لا تتجاوب فوق السنابل الفارغة ٠٠٠ اما في حقول التعاونية بين غابات كاتشالوفكا وآتاماسك وعلى طول الطريق ، حيث ظلت الريح حتى الخريف تعبث بلوحة (زراعة نموذجية) فقد ارتفع القمح وطال حتى بلغ بطن الخيل . فلكل نصيبه حسب الاحوال ٠٠٠ فالثري يا شتوروف (وهو يمتلك اثني عشر زوجاً من الثيران وسرباً كاملاً من الخيل وحصادة بخارية ونظارات ثاقبة كنظرات الفأر) حين كانت الامطار في الربيع تروي حقول كاتشالوفكا ، ولا تهطل على حقول التعاونية الا قطرات شحيحة ، كان هو يسخر ضاحكاً وسنه الصفراء تعبث بشعر لحيته التي هي بلون القمح الناضج ويقول :

ـ إن الله تعالى عادل . يسوق الغيث الى من يعيشون في طاعته ويرسون لواء محبته ! اما ساكنو التعاونية ففي وسعهم أن يتأهبوا دائما للزوال ! هذا ما يعلمهم كيف يعيشون ! عندما نقول لهم ، لولا الله تعالى ، لما كان شيء على الارض !

وكان يقول كذلك اشياء كثيرة اخرى ، وهو يتبختر على الطريق الممتد على طول الغابة ، ممسكا بجواده المعلوف ، البطر ، وموجهاً سوطه نحو اللوحة المدلاة من عمود وهي في مهب الريح . كان يهزأ ويضحك مكشراً عن انياب ، كأنياب الخنزير وبطنه يعلو ويهبط .

ـ « زراعة نموذجية » ٠٠٠ مهزلة المهازل ! سنتقابل في الخريف !

كان الجرار يقلب التراب على عمق نصف ساق ، على حين ان المزارعين في كاتشالوفكا ، فكانوا يحرثون كما يعرفون ، على طريقة اجدادهم . انهم لم يحصدوا سوى ثمانية مكاييل في الديسياتين الواحد ، اما التعاونية فقد بلغ الحصاد فيها اربعين مكيالا . كان الفلاحون في كاتشالوفكا يخفون حسدهم بضحكة صفراء قائلين :

ـ حقاً ، هناك اله يعطف على الايتام ...

بيد أن الامور جرت على هذا الشكل ، ففي ايلول ، يوم عيد القـريـة ، توجه سكان كاتشالوفكا جميعا الى التعاونية بعد ان عقدوا اجتماعا فيمابينهم. تمشوا قيلا ذهاباً وإياباً امام المخازن المكتظة بـالحبـوب وتفحصـوا الجرار وتلمسوه طويلا ، وحين آن أوان انصرافهم تقدم ارتيوم العجوز وهو المزارع من الطراز العتيق ، وانفرد بأرسيني ، ودس في أذنه لحيته المعممة برائحة الدخان وتمتم قائلا :

ـ يا ارسيني اندريفتش ، نحن نود ان نسألك خدمة لنا . اكراماً لله ، اقبلنا كلنا ، مهما بلغ عددنا ، اعضاء في تعاونيتك . نحن عشرون اسرة من افقر النـاس ...

فوجّه ارسيني الى الشيوخ تحية إجلال وهو يطفح بشراً :

ـ اهلاً بكم !

العمل في التعاونيه ليس قليلاً . ولا سيما في سنة الجفاف هذه . ففي المزارع وفي القرى المجاورة ، شح القمح ،فانطلق المتسولون على الطرق جماعات جماعات . وكان بينهم من يعرّج على كاتشالوفكا . فتتعالى تحت مصـاريـع النوافذ المطلية بالالوان ، أصوات متوسلة ، باكية !

ـ خبزاً اكراماً لله ....

فتفتح النافذة الموشاة بأوساخ الذباب ويطل وجه سكيرة مسن ، وتصيح معتـاظـة :

ـ تابعوا طريقكم ايها الكسـالى ، ان شئتم أن لا اطلق كلابي عليكم .اذهبوا الى التعاونية ! إنهم ، هم الذين نصّبوا هذه السلطـة ، وعليهم وحـدهم ان يطعمـوكم !

فكان هؤلاء البئسون يحتشدون كل يوم جماعـات وفرادى أمـام بـاب التعاونية ، الجميل الصنع .

ويبدو ارسيني الضامر الجسم ، الملوح بحرارة الشمس ، صائحا :

ــ ماذا تطلبون مني أن أصنع لكم ؟ لم يبق عندنا محل ! وليس لدينا من الطعام ما يكفينا واياكم !

بيد أن نسوة التعاونية كن يدمدمن كانهن المحل خارج حليته . واخيراً ، يدعى ارسيبي ، فيسوق الرجال الى الحصاده ، اما النسوة فيذهبن بالمتسولين اللاجين ، الى مخزن طويل هيىء للنوم ، ويظل صخب القدور الكبيرة والصغيرة قائماً ، ينطلق من نوافذ المطبخ حتى المساء .

وكان الأب أرتيوم ، أمين مخزن الحبوب يهرع لاهثاً ، مدعوراً ، مغيظاً !

ــ لم اعد قادراً على الوقوف في وجه هؤلاء النساء ! يجب أن تسارع الى تدارك الأمر ، يا ارسيبي ! لقد جئتني أيضا بطائفة كبيرة من العجائز ، وانتشلن مني مفاتيح المخزن ! ثمانية افواه اضافية على العشاء ، هذا ما لا يطاق !

ــ لا تبال يا عماه ! يقول ارسيبي باسماً .

لقد تضاعف أفراد التعاونية ... وازداد عدد الاولاد ازدياداً كبيرا . فانصرف قسم من الرجال الى حراثة الاراضي البائرة ، وعمل القسم الآخر في بناء المدرسة .

كانت التعاونية من الصباح الى المساء ، أشبه بقرية للنمل ، في غليان شديد . وكان ما ساور آنا من قلق قديم ، قد تبدد في خضم الاعمال والمشاغل اليومية . فاقلعت من التساؤل عما قد يحدث اذا ما ظهر زوجها الأول الى عالم الوجود .. تولى الصيف سريعا مثل برق حار . واخذ الخريف يجثم على أبواب التعاونية وشرع الأولاد يتوافدون الى المدرسة كجمع من المهى ، ارخيت لها الأعنة .

وفي بكرة احد ايام الخريف ، مثُل الكسندر ، زوج آنا ، عند الباب وبيده غصن شجرة بندق ، يرد به الكلاب . دخل بخطى ثابتة ، ففتح باب الغرفة ، واتكأ على مصراعه ، كبير القامة ، اسود اللون في معطفه المهترىء . قال ببساطة دون اية تحية ودون اية كلمة زائدة :

ــ آنا ، جئت لأذهب بك . اجمعي حوائجك .

صعقت آنا لهول المفاجأة ، فأخذت تروح وتجيء بين الخزانة والسرير ، تمسك بيد متشنجة ، هذه الحاجة تارة وغيرها تارة أخرى ، انتزعت منديلها عن المشجب ثم جلست مرهقة ونظراتها تتنقل بين زوجها وبين ارسيني .أخيراً حركت شفتيها بعناء وقالت :

ـ كلا ، لن اذهب . . .

ـ لن تذهبي ؟ سنرى . ـ ابتسم الكسندر بسمة شريرة ورفع كتفيه وخرج . أغلق الباب خلفه دون ضجيج ولكن بحزم .

قضت آنا هذا الخريف الطويل الكئيب في اضطراب مستمر ، فمال لونها الى الاصفرار سواء من جراء مرض ام من جراء هواجس ممضة . في مساء يوم سبت ، بعد أن حلبت البقرات ، ادخلت العجول الى الحظيرة ، وعدتها ، فوجدت أحدها مفقوداً . عادت الى السهب لتبحث عنه بجانب الطاحونة الهوائية . كان عجل التعاونية المرقش يرعى في المقبرة القديمة المهجورة ، بين الصلبان التي عزاها العشب ، وبين القبور المضة الحربة . عادت به الى البيت وهي تحاذر الظلام المتكاثف حولها . وما إن بلغت المجرى المعد للماء حتى جلست مكتوفة اليدين . تبينت مع خفقات قلبها ، جرساً غامضاً خفيضا . . . فنهضت بجهد وانصرفت متعبة ، متيقظة والبسمة ترتسم على زاوية شفتيها .

كانت الحديقة عارية والريح في أعالي الصفصاف نشيطة ، تنثر تحت الأقدام بساطاً من الأوراق الارجوانية . لمحت قرب العريشة ، شبحاً ينفصل عن العوسجات ويسد عليها الطريق .

ـ آنا ، هذه انت ؟

عرفت صوت الكسندر . قدما منها مقوس الظهر ، مفتوح الذراعين .

ـ إذن ، هكذا ، نسيت السنوات الست التي عشناها معاً ؟ كانت مدة غيابي كافية كي تدفعي بي الى الهاوية ، أليس كذلك ؟

توقعت منه آنا ، أن يطرحها أرضاً ويدوسها بنعليه العامرتين بالمسامير الحديدية كما كان شأنه حين كانا يعيشان معاً ، ولكنه جثا فجأة على ركبتيه

في الوحل الدبق ، القوي الرائحة ، وقال بصوت مختنق وذراعاه ممدودتان الى امـام :

ــ آنا ، حبيبتي ، اشفقي عليّ ! تذكري كم احببتك ؟ اما كنت احنـو عليك كما نحنو على الصغار ؟ اتذكرين ما كنت اوجه لامي من بوارص الكلام ؟ حين كانت تقسو عليك وتنتهرك ؟ أمن الممكن ان تنسيّ حبنا ؟ وانا الذي عدت من بعيد ، من البلاد النائية لكي أراك !! وانت ... آه ، يا إلهي !..

نهض بعناه منتصباً ومضى بجانب صف المواسج ، دون أن يلتفت الى الـوراء . وعندما بلغ المنعطف ، استدار فجأة وصاح بصوت مبحوح :

ــ اعلمي جيداً ، انك إن لم تعودي اليّ ، وان لم تهجري صاحبك هذا ، فاني قادر على ارتكاب ما لا تتصورين !

ظلت آنا جامدة ، بلا حراك ، وكما تتيقظ الافعى ، تيقظت في قرارة نفسها الرأفة بهذا الانسان الذي عاشت واياه ست سنوات تحت سقف واحـد ... واخذت الأمور تتوالى على الشكل التالي . ازدادت آنا ايغالاً في إحياء الماضي ، وإقصاء ما كان يقع بينها وبين زوجها من مشـجرات ومشاحنات وما كن يحل بها من قسوته ووحشيته ، فلم تعـد تذكر إلا أيام السعادة والبهجـة ، فيزخر قلبها بحرارة الحنين الى الماضي ، الى الكـدر ، ويغرق وجه ارسيني في كآبة من الضباب ثم يتوارى .

لم يعد أرسيني يعرف فيها آنا المعهودة فقد غدت حزينة ، مشاكسـة ، تلازم بيتها المنعزل ، وتتجنب النساء الاخريات وكثيراً ما كان ارسيني يفاجئها وهي ترميه بنظرات طافحة بالكراهية والمرارة .

□ □

حين انتصف الليل ، شبت النار في ثلاث كومات من علف التعاونيـة في السهب ، بالقرب من وادي افديوشكا . وما كاد يتعالى صياح الـديـك حتى هرع الاسكافي ميتروخا ، وهو في ثياب النـوم ، الى بيت ارسيني وراح ينقـر الزجاج المنقش بالصقيع .

ـ هلموا ! العلف يحترق ! النار ، النار !

لم يضع أرسيني وقته في ارتداء ثيابه ، بل خرج كهبوب الريح وحدق الى السهب من بين أغصان الكرز الكثيفة مهدداً ، متوعدا وهو يصر بأسنانه ، كان عمود من الدخان يتعالى من وراء الرابيـة ، الى السمـاء ، متكسراً تحت الريح . كان الأب ارتيوم قد اخرج من الزريبة حصاناً ، امتطاه بمشقة وانطلق به نحو النار في عدو مترجرج ، وما إن مرّ بمنزل ارسيني حتى صاح به :

ـ عامداً متعمداً ! أقول لك ، الحريق متعمد ، لكي يقضي بالجوع على حصاني الأشهب !... عليك أن تنقذ الدواب . وبسرعة أكبر ...

□ □

عند بزوغ الفجر ، توجه أرسيني الى مكان الحريق · كانت الارض عارية حول كومة الرماد الزاخر بالدخان ، وكانت بعض الحشائش الخضراء ، لاتزال تحتفظ بنضارتها .

جلس ارسيني القرفصاء وأخذ يتفحص الارض ، فعثر على الثلج الآخذ بالذوبان ، على آثار أحذية انكليزية حديدية وثقوب رؤوس مسامير سوداء . أشعل سيجارة ، وعيناه تلاحقان اثر الاقدام التي تتوغل في السهب ، متعرجة في اتجاه كاتشالوفكا · كانت الآثار تنعطف حيناً ، وتمّحي أحياناً ، وتنزلق وتحك الجليد عند الوهاد . وهكذا تتبع أرسيني في صمت هذه الخطـوات البشريـة كأنها خطوات وحش مفترس . تلاشت الآثار عند جدار بستان الكسندر ... فأزاح ارسيني بندقيه أبيه عن كتفه ونقلهـا الى الكتف الثـانيـه وعـاد الى التعـاونيـة .

□ □

ضربت القابلة الجسم الصغير اللزج ضربـة خفيفـة وصـاحت من وراء الحـاجز :

ـ هيه ، أرسيني ، لقد وضعت لك تعاونياً صغيراً !... اعتقـد أنك لن تقبل بتعميده ، اليس كذلك ؟

لم ينبس أرسيني ببنت شفة ، بل أزاح الستارة القماشية ، فحدجته آنا من تحت غطائها الملوث بالدم ، بنظرة حقد من وجهها الأزرق وقالت وهي تشرق بدمعها :

ــ أكرهك !... إليك عني ! لا أريد رؤيتك !...

ادارت وجهها الى الجدار وانخرطت في البكاء .

كانت الحياة ، منذ أمد قريب ، تمتد سهلة ، منبسطة مثل طريق في وسط الحقول ، اما الآن ، فان أرسيني يشعر بمرارة في حلقه وبشقاء كمك الذئب يطبق عليه .

□ □

انصرف أرسيني الى الاهراء ، بعد يومين ، لانهاء دراس القمح . كان من المحتم عليه ، تشغيل المحرك حتى المساء . وعندما نشر الظلام غلالته على اشجار الحور ، سمع من يقول له :

ــ أرسيني اندرييفتش ، هل لك أن تأتي برهة قصيرة ؟

فجاء . كانت آنا مستندة الى الجدار الخشبي ومنديلها على كتفيها .

ــ ماذا جرى يا آنا ؟

لم يكن الصوت الغريب المبحوح صوت زوجته المعهود .

ــ أتوسل اليك ، بحق السماء ... دعني أذهب الى بيت زوجي ! هو يدعوني اليه • يقول انه يقبلني عنده مع الطفل • عليك أن لا تلومني، ياأرسيني أندرييفتش ... دعني انصرف . على كل حال ، سأرحل عنك ، مهما كلف الأمر ... لم أعد احبك ...

ــ حين تنهين مدة إرضاع الطفل ، أوافق ولن أجبرك على البقاء . اما ان أتخلى لك عن ابني ! فقد قاتلت أربع سنوات دفاعاً عن سلطة السوفييت وأثخنت بالجراح ، اما زوجك ، فهو من اتباع (ورانجل) ... ولو تخليت عن ولدي لوجب عليه عندما يشب ، ان يتحمل الذل بسببه وهذا ما لا أسمح به ! أبداً !

تقدمت آنا وصعدت أنفاسها الملتهبة الى وجهه :

ــ الن تعطني الطفل ؟
ــ كلا !
ــ احقا ما تقول ؟

طفح صدر ارسيني غضبا ، لاول مرة ، منذ ان عايش آنا ، فاطبق قبضتيه كي يضرب بهما ، ما بين هاتين العينين اللتين تبرقان حقداً ، إلا انه تمالك وقال بصوت أجش :
ــ حذار يا آنا !

□ □

في هذه الليلة ، بعد ان قامت آنا بارضاع الطفل ، لفت راسها بمنديل وخرجت . مضت فترة طويلة قبل ان تعود . كان ارسيني في احدى الزوايا يرقع (برذخة) ، فسمع صرير الباب . وعرف خطوات آنا ، دون ان يلتفت اليها . مضت الى مهد الطفل فعبرت له الخرق في هدوء وذهبت لتنام . فحذا ارسيني حذوها . لكنه لم ينم ، بل ظل يتقلب على فراشه منصتاً الى انفاس زوجته المتقطعة والى دقات قلبه المشوشة . في منتصف الليل غرق في نومه . وكان نوما ثقيلا مرهقا . . . فلم يسمع حركة آنا وهي تنسل من السرير كهرة وتلف الولد وتتوارى عند صياح الديك ، دون أن تحدث في الباب أدنى صرير .

تقضى نحو شهرين وآنا تحيا في منزل الكسندر . لقد خامرها بادىء ذي بدء ، غبطة ممزوجة بالخوف ، وكادت ان لا تأسف على حرية الحياةفيالتعاونية، إلا لماما . ثم توالت همهمات حميها الوقحة :
ــ ما هذه الفاسقة التي جاءنا بها . . . نحن في البيت ما شممنا مرة في حياتنا رائحة هذه التعاونية الميته ! لم يكن يعوزنا الا اطعام هذه الغبيه مع وليدها ! فليذهبوا عنا . . .

اما الكسندر ، فلم يبد شيئاً من اللطف إلا في الايام الأولى . وتلت هذه الفترة القصيرة من الحنان أيام زاخرة بالاعمال المتلاحقة المضنية . فلقد اناط بها زوجها جميع الاعمال المنزلية ، أما هو فكان يقوم بزيارات، تتزايد يوما

فبوماً الى لوشكا ، صانعة الكحول ، فلا يؤوب الا ثملاً ، لينقش بتقشه أرض منزله وجدرانه ٠

كان يظل حتى الفجر مرتميا على مقعد خشبي وطاقيته على مؤخرة راسه، يتجشأ بعفونة مخمورة وهو يعبث بطرف شاربه ، طلق المحيا ، منبسط الاسارير .

ــ الحقيقة ، يا عزيزتي آنا ، ما انت إلا من الحماة ، المراة ، الجاهلات . نحن ، على الاقل ، تجولنا في الدنيا ، كنا في البلاد الاجنبية ، عرفنا السلوك القويم والعادات الحسنة ! الحق يقال ، انك لست تلك المراة التي تليق بي ، وتصلح لي ، لا ، لا ! عفواً ، معذرة ... لو كانت ابنة لواء مكانك ، لكانت في بحر من السعادة ... احياناً ، اتذكر حين كنت ... آه ، تباً لي ، على كل حال ، فلن تفهمي ما اقول ... هؤلاء الحمر القذرون ، كان من الاجدى بهم ان يقوموا بجولة في البلاد الاجنبية ، ويروا بأم اعينهم كيف يكون الناس !...

كان يستسلم الى الرقاد دون أن يغادر مقعده . وحين يستيقظ صباحاً كان يجار بصوت مخمور :

ــ يا امرأة ! اقلعي الاحذية من قدمي ... يا للغباوة ، كان عليك أن تشكريني لاني اتكرم واطعمك مع جروك هذا ! حذار هذا ما لا اطيق الصبر عليه طويلا ...

□ □

في يوم بارد ، كئيب من شهر شباط نقر الحارس باصبعه زجاج نافذة الكسندر .

ــ المعلم هنا ؟

ــ نعم ، ادخل .

دخل ووضع على الصندوق عصاه المهترئة من عضات الكلاب وانتزع من جيبه ورقة مجعدة ، ملوثة بالدهن ، فبسطها على المنضدة ومسدها بعناية .

ــ أسرعوا ، الى الاجتماع ! انتم لا مجال لمعاملتكم إلاّ بهذه الطريقــة ، هيا ، وقعي اسمك هنا !

ــ دنت آنا من المنضدة ووقعت على الورقة . فرفع زوجها حــاجبيــه استغرابــا :

ــ عجيب ، متى تعلمت الكتابة ؟

ــ في التعاونية .

فأغلق الباب وراء الحارس دون ان ينبس بكلمة ، ثم زمجر بشراسة :

ــ ساحضر الاجتماع لاسمع ما يهرف به عملاء السوفييت هؤلاء ، وفي هذه الأثناء ، تنصرفين أنت الى العناية بالدواب ، إيــاك أن تمــدي يــدك الى علف الحبوب ولئن تبين لي خلاف ما اقول ، لسوف تتلقين على شدقك لكمــة فخمة ! هذه التصرفات لا اريدها ! نصف العلف بذرته وما زال امامنا من الشتاء شهران على الاقل !

كان يزرر عباءته وهو يقذف من تحت حاجبيه الكثيفين نظرات قاسيــة ، فيه تحذير وفيها يقظة . اقبلت آنا بخطوات خائفة نحو زوجها وبعــد تــردد قصير ، تــسالت :

ــ ساش ... قد يكون من الجائز ان أذهب انا ايضا الى الاجتماع ؟

ــ ماذا ؟ ماذا ؟

ــ قلت الى الاجتماع ...

ــ لمــاذا ؟

ــ لأستمع الى ما يقال .

تصاعدت الى وجه الكسندر شيئا فشيئا ، حمرة شــديــدة وارتعشت اطراف شفتيه وكانت يده اليمنى تتلمس الجدار وتنتزع السير الجلدي المعلق فــوق السرير .

ــ هكذا إذن ، أيتها الساقطة اللعينة ، تريدين ان تمرغي زوجكبالتراب؟ أما آن لهذه القــارات التعاونية أن تنتهي في بيتي ؟ ــ صر باسنانه ومشى نحــو

آنا وقبضتاه مطبقتان ـ ايتها الحشرة الخبيثة ، لا بد لي ان اعلمك كيف تسدين شدقك الكبير !

ـ ولكن النساء الأخريات ، يا ساشا يحضرن الاجتماع ايضا !

ـ اخرسي يا سافلة !هذا ما لن يحدث في بيتي ! الذاهبات الى الاجتماعات هنّ من ليس لهن أزواج ، من يشردن هنا وهناك ! ويشردن ايضا الى الاجتماع !

فانتفضت تحت وطأة الاهانة وقالت ممتقعة اللون ، بصوت متهدج ، متصدع :

ـ هكذا إذن ، لم اعد من عداد المخلوقات البشرية ؟

ـ الفرس ليست حصانا والمرأة ليست رجلا .

ـ اجل ولكن في التعاونية . . .

ـ انته وجروك تأكلان خبزي انا لا خبز التعاونية ! إنني انا الذي اعيلكما وأنفق عليكما وأوامري يجب ان تطاع ! زمجر الكسندر .

ـ وأنت الذي وعدتني بأن تعاملني باللطف والمحبة ! فأين هي وعودك الحلوة وكلامك الظريف ؟

ـ هنا ! صاح الكسندر وهو يهوي بقبضته على صدرها بلكمة اليمة موجعة .

ترنحت آنا ، واطلقت صيحة مدوية ، وهي تحاول إمساك ذراع زوجها ، بيد أنه أمسكها من شعرها وهو ينهال بالشتائم الكريهة ، الحاقدة ورفسها على بطنها بوحشية وشراسة . فهوت خائرة،تعب الهواء وقد اشرفت على الاختناق . كانت تتلقى ضربات الزوج المتناثرة عليها بشيء من عدم الاكتراث ، وكانت تتبين بعسر من خلال حجاب من الضباب ، وجهه القرمزي المضطرب ، المهتاج .

ـ خذي ، خذي !... اقبضي !... يا ساقطة ! سأعلمك أغنية اخرى ! اقبضي !...

كان هياج الكسندر يتضاعف بعد كل ضربة ، تنهال على الجسد الهامد ، المكوّم على الارض ، وكان يهوي بضربات منتظمة محاولاً أن يصيب بطنها وصدرها ووجهها المطمور بين يديها . ظل يضرب ويضرب حتى تبلل قميصه عرقاً ، وترنحت قدماه إعياءً ، ثم وضع عمرته على رأسه وبصق وخرج وهو يغلق الباب بعنف .

ما إن ألقى نفسه تحت السماء حتى توقف وفكر لحظة ثم انعطف الى العواسج المدوسة في الحديقة المجاورة واتجه الى منزل لوشكا ، صانعة الخمرة.

بقيت آنا مطروحة حتى المساء . وعند غروب الشمس ، دخل عليها حموها ، فركلها برأس حذائه وهو يدمدم :

ـ هيا ، قفي !... لا فائدة من التهريج والضحك علينا ... ما هذا ، لا يكاد زوجها يمسها بطرف اصبعه حتى تتظاهر بالموت !... والآن ، هلمي ، اذهبي وقدمي شكواك ، الى السوفييت ! قلت لك قفي .... من ذا الذي يعتني الآن بالدواب ؟ لعل من الواجب علينا ان نستأجر خادماً ليساعد السيدة المصونة ـ دخل الى المطبخ بخطوات بطيئة ـ هي تاكل ، وقت الطعام ، كاربعة أشخاص ، أما وقت العمل ، فلا تجد لها أثراً ! وليتها تعرف الخجل ... كان يجب أن تقول ، أن بصقت في وجهها ، انه الندى الذي سكبه الله تعالى !

ليس حموها ثيابه ومضى الى الزريبة . فشرع الطفل في مهده يبكي ، وعادت آنا الى وعيها ، فنهضت على ركبتيها وبصقت رملاً ممزوجاً بالدم وحركت بعناء شفتيها المتورمتين قائلة :

ـ ما أشقاني !

كانت الريح تستقبل الظلام على الرابية المبرقشة ببقع من الثلج الذائب.

وكانت الانوار في كتشالوفكا ، قليلة ومشعّة • والريح على طول الشوارع ، تحمل الدخان المقيت الفاتر الذي ينفثه الروث الجاف المعد للتدفئة .

عاد الكسندر الى بيته ، عند العشاء . فطرح بنفسه على السرير وهو يهدر مزمجراً :

ـ آنا ! أحذيتي ! ـ وسرعان ما غرق في سبات عميق ملوثاً وسادته بمجاجه .

انتظرت آنا ريثما نام حموها على فراشه قرب الموقد ، فحملت طفلها بين ذراعيها وخرجت مسرعة . وقفت برهة جامدة ، تصغي الى دقات قلبها المتسارعة . كان الظلام يخيم بأجنحته على كاتشالوفكا . وقطرات الماء ، تتساقط من السقوف ، وسحابة خفيفة تعلو كومات الروث . كان الثلج رطباً ورخواً تحت الاقدام . اندفعت .

ـ ارسيني اندرييفتش ، حان وقت العشاء ، عد الى البيت ، من المحتم أن النساء قد فرغن من حلب الابقار ، فابعث اليّ بشيء من الحليب .

مشى ارسيني بين سنابل قمح الشتاء ، مختصراً طريقه الى البيت . وفيما هو يصعد الرابيه ، سمع صرير عجله وصوتاً نسوياً باكياً .

ـ هيهو ، أيتها الحيوانات القدرة ! ماذا أفعل بهذه البهائم الكسولة ؟ هيه !

كانت الثيران المشدودة الى العجلة واقفة ، بلا حراك على جانب الطريق ، في الطين ، الذي جعله ندى الليلة الفائتة طرياً ، دبقاً . وكان ظهر الحيوانات المتصبب عرقاً ينشر بخاراً كثيفاً . والمراة تحوم حولها ، مشغولة البال ، مضطربة النفس وهي تلوح بسوطها دون جدوى .

دنا منها ارسيني .

ـ هل أنت بخير ، يا حسنائي ؟

ـ بخير ، الحمد لله ، يا أرسيني اندريفيتش ..

غمرت ارسيني بهجة عارمة ، لاهبة وارتجعت ركبتــاه .

ـ لا أصدق عيني ، أهذه أنت يا آنا ؟

ـ نعم أنا . لم أعد أطيق الصبر هناك من يمشي الى الباب . انفتح . عرت آنا بنظراتهــا المضطربة وجــه أرسيني وقد عراه الهزال والشحوب ، فاستندت الى العارضــه واهنه القوه ، فاقده الصواب .

تلقاها ارسيني بين ذراعيه وحملها الى السرير ، ثم حل اقمطة الطفل ، ومدده في ارجوحته الفارغة منــذ شهرين ، ومضى مسرعاً الى المطبخ ليــأتي بالحليب المغلي ، وقال ، وهو ينهال بالقبل على أرجل الطفل المكتنزة ووجه آنا المبلل بالدموع :

ـ لهذا لم أذهب ... كنت واثقاً انك راجعه الى النماويه ، وراجعه في وقت قريب !

كتبت عام ١٩٢٥

■ ● ■



ولد ماريو بينيديتي في باسي دي لوس توروس في الاوروغواي عام ١٩٢٠ . عاش في مونتيفيديو . صدرت له مجموعة عام ١٩٤٥ . يكتب الشعر والنقد والمقالة . قصصه جمعت تحت عنوان « سكان مونتيفيديو » وصدرت المجموعة عام ١٩٥٩ وفي عام ١٩٦٠ صدرت له رواية بعنوان « الهدنة » تلتها مجموعتان شعريتان ثم تلاهما كتابه « الادب الاوروغواني في القرن العشرين » ثم روايته « شكرا للنار » وقد صدرت عام ١٩٦٥ . وبينيديتي مناضل سياسي نشيط . وقد زج به في السجن مع العديد من التقدميين اذ انطلقت في الاوروغواي موجة جديدة من القمع اثر الاحداث المأساوية في شيلي .

- ١ -

الأصدقاء ، لا شيء آخر ، والبقية أدغال

« خورخي غيلن »

سقط على رأسه من مكان ما من الاعلى شيء يشبه الرماد أو الروث ، فلم تراوده فكرة ليتحقق كنهه . نظف نفسه قدر استطاعته بورقة من « هيرالد تريبيون » وقرر تأجيل لقائه الاول مع الليلة البيضاء للتايمس سكوير وعاد الى الفندق للاغتسال للمرة الثالثة في ذلك اليوم .

أحس أورلاندو فارياس في اليوم الثاني بعد وصوله الى نيويورك انه ملفوح

بحرارة رطبة مبارية. استحال قميصه النايلوني الى اسطوانة مدعوكة بفعل العرق حتى لا تكاد تسمح له بالتنفس .

أوقف الناس في الجادة الخامسة ، الشرع الرابع والثلاثين اندفعهم الارض بسبب اشتعال المصباح الاحمر في شارة المرور . أحس فارياس ، وهو ينتظر ، بسواقي العرق تسيل على صدره فزمجر بصوت عال . كانت الى جانبه سيدةشقراء نمشاء معمورة بالعلب تبتسم له بمودة ، فقد يكون تفوه ، دون قصد بشيء عن الطقس .

كاد يخجل حينما انفض الزحام واجتازه الناس فلقد استبدلت من شارة الصوم الحمراء الشارة الحصراء . دهش فارياس ، بدا له هذا الاندفاع مفارقة ، أو هو على الاقل معاكس لسياق الفصول . هذا الركض الجنوني يبدو طبيعيا فيما لو كانت درجات الحرارة خمسا وعشرين درجة تحت الصفر وليس في مثل هذا الفرن . ومشي متمهلاً ، أكثر تمهلاً مما يسير في أي مدينة أخرى في العالم ، وذلك بسبب المبط وحده .

كان ينتظره في الفندق ابلاغ . لقد بحث عنه السيد كليتن ، أي السيد ت ــ اكس ــ كليتن . فارياس يعرفه منذ عام ١٩٥٦ ففي ذلك الحين أمضى الناقد الاميركي الشماني خمس عشرة ساعة في مونتيفيدو ويومين في بونتادال ايستي ، وقد قصد مشكورا الاطلاع على الادب والفلكلور المحليين . فاريس يتذكر بأي مثايرة اهتم كليتن ب « الميرمعي » (دعاه الميرنمو) فقد قال له أحدهم انه الرقص الشعبي في منطقة المخروط الجنوبي . لقد تدبر فارياس أمره حتى هذه اللحظة بهويته لغة الانكليزية ، وكان يبدو وكأنه يتكلم بأسلوب « نيويوركي » . ومع ذلك كانوا يفهمونه . أما الحديث بالهاتف فشيء آخر . السيد ت . اكس . كاستن يتكلم بصوته الاخن الرتيب وهو لا ينجح الا بالتقاط كلمات متفرقة مثل « المجلس الاميركي ، مسرور جدا ، العشاء » . أتراه دعاه للعشاء ؟ لقد أخبره على كل حال انه مغتبط بالدعوة ولقد سجل العنوان وحفظه .

ليس ثمة مزيد من الوقت . صعد الى غرفته وتنفس طوال خمس دقائق فاستنشق الهواء المبرد بواسطة الاجهزة ثم أطفأ التلفزيون وبدأ يرتدي ثيابه .

لم يكن التلفزيون على ما يرام • لا يزال هذا السيد الذي يضع نظارتين ويتكلم بجميع النبرات الصوتية وهو مطبق الفم تقريبا يسير صعودا وهبوطا دون توقف • لم يكن أحد الازرار صالحا لايقاف هذه الحركة • ولقد فهم تحت المرشة « الدوش » في الحمام أن هـذا السيد التعس « المتحرك صعدا دون توقف » يردد كما تردد اللازمة « هذا هو واقعنا » •

– ٢ –

ادعني تد ، أرجوك ــ قال السيد كليتن • كانت نبرته ودية فعلا • أما قامته فكانت مشدودة بجد وكأنما هي لانســان متضايق ولكنــه ممتدّ بضيقه • وجـده فارياس الآن أقل نحولا ولكنه اقصر نظراً ، بشكل ظاهر ، مما كان عليـــه في اللقــاء الاول •

مسألة هامة أن أناديك باسمك ـ لقد حاول كليتن عشرين مرة أن يقـول أورلاندو فلم يخرج من فمه سوى صوت حلقي غير مميز فكأنه خارج من مدخنـة سفينة ــ أرى من الافضل أن أدعوك « أورلي » •

ووصلا الى غرفة (تحترضية) في غرينتش فيليج ممتلئة بالكتب والاسطوانات الموسيقية والزجاجات • تمر قرب النافذة مختلف الارجـل ـ بسراويل وعاريـة ، وبجوارب قصيرة • ألقى فارياس نظرة على المكتبة ، وكان أول انطباع تكوّن لديه هو أن الكتب مجلدة بأنواع من التجليد اكثر بريقا ولمعانا من أية كتب على الرفوف في مونتيفيدو •

سيأتي اليوم بعض الكتاب الجدد ، اردت أن اعرفك بهم • بريسدلي ، كودك ، بليومنتل ، الليبي • ليسوا جميعا أسلوبيين ولكن •••

سأله فارياس •

ــ أهو لاري الليبي ؟ أمن سان فرانسيسكو ؟

ــ هو نفسه • هل قرأت شيئا منه ؟

ــ قرأت قبل فترة « أكثر أو أقل » •

ـ هـل أعجبـك ؟

ـ كـلا •

ـ ممتع • شعر لاري لا يعجب الاميركيين اللاتينيين • أما نحن الأميركيين فيعجبنا لانه بالضبط •••

ـ تريد أن تقول أنكم أنتم الاميركيون الشماليون •

ـ طبعـا • أرى أنه يعجبنـا نحـن الاميركيـين الشماليين لانه يبدو لنـا اميركياً لا تينياً •

ـ أم لان اليبي من أصل لاتيني ؟

ـ لا أعرف • ممكـن •

ـ لم أقرأ شيئاً من كووك •

ـ متأثر بميلر الى حد مخيف • هل اشتريت « دعايات لنفسي » ؟

ـ لم أفعل بعد •

ـ اشتره • لكووك لغة متميزة حقاً •

توقف أمام النافذة زوج من الارجل القذرة العارية • تتنوي احدى الرجلين ، بين الحين والآخر ، وتطأ الاخرى • لو لم يكن هذا شيئا اعتياديا الى هذا الحد ، لكان بمقدور المرء أن يرى فيهما حيوانين صغيرين مذعوريـن لهما حركتهما المستقلـة وحياتهمـا الخـاصة •

ـ هل رأيت هذا ؟ ـ أعطاه كيتس عددا من (نيويورك تايمز) . احـدى الصفحات الداخلية مطوية • قسم من صحوطة موجزة محوطة بخط من قلم أحمر • قرأ فارياس ، ان الطبعة الجديدة من « أميركان كوليدج دكشنري » ستشتمل عـلى بيان حول « كينونة الجيل » وقد رددها بصوت مرتفع : « كينونة الجيل » : أعضاء الجيل الذي بلغ سن الرشد بعد الحرب العالمية الثانية والحرب في كوريا والـذي يوحده الهدف العام في أصناف النشاط الاجتماعي والجنسي وصد الحفاظ على النظم المدونة ، ودفاعا عن الانفصام التصوفي وضرورة التبسيط المادي ، اذ يرى ان كل هذا نتيجة لخيبة الامل في الحرب الباردة » •

كان وجه كليتن غير مبال ثم سمح بعد بضع ثوان بابتسامة هي خليط من السخرية والارتياح ·

ـ هذا تقريبا في مثل صعوبة أن تصبح عضوا في الاكاديمية ـ قال فارياس بأقصى حد من عدم الاكراه ·

ـ أتعرف ماذا يعني هذا «الانفصام الصوفي»؟ ـ سأل كليتن دون أي تواضع ·

ـ ليس تماما ـ أجاب فارياس الذي كان جهله للسؤال تاماً ·

ـ هذا أحد أشكال الحوار الكثيرة التي تستعمل ولا يفهمها سوى المستنيرين ·

ـ آ ـ هـا ·

ـ الانفصام وصف استخدم في العديد من المقالات ومزجه ليبتن في « تيشن » فيما يخص سلوك الجدد من العاملين بأذهانهم · لقد أثث ليبتن اقتباسا لحون ·ل·لويس : « نحن ننفصم » ·

ـ ولكن عم ينفصمون ؟ ـ سأل فارياس وهو يحس أنه آخر الريفيين ·

غير أن جرس الباب قد رن ونهض كليتن ليفتح · دخلت امرأتان وثلاثة رجال· خلعت احدى المرأتين نعليها قبل أن يتعارفوا، وبعد التعارف خلعت الاخرى (الاكثر تمسكا بالشكليات) نعليها أيضا ·

ـ ان ، دجو ، توم بردلي ، ميري ، جيم بليومنثل ـ عدهم كليتن · ولاحظ فارياس أن المشهورين قد قدموا بذكر الكنية · أعجبه وجه بليومنثل · كان شابا ليس له من العمر أكثر من خمسة وعشرين عاما ، يضع نظارتين وله لحية دون شاربين · عيناه حيويتان بشكل غريب فلا يستطيع الانسان أن يكف عن النظر اليهما فورا · ومن الصعب أن تحزر أكان طيب القلب أم كان من الطراز الذي يكون مستعدا لان يخنق طفلا دون أن تفارقه الابتسامة الهانئة ·

وصل بقية الضيوف معاً في الوقت المحدد تماماً · « دقيقون بشكل مزعج » ـ فكر فارياس · أحدهم زنجي طويل ذو لحية دقيقة كخط على فكيه ، لكأنه ينظر الى الآخرين من خلال زجاج · الجميع ، ما عدا الزنجي واثنان في زاويته لم يخلعوا أحذيتهم · حرك فارياس آليا أصابع قدميه لئن طلبوا منه أن يخلع حذاءه فسوف

يرقص . لا يعرف لماذا ، فقد خيـل له في هذه اللحظة ان البقــاء بالجوريين أقـل حياقة من البقاء بالسروال الداخلي أو حتى بدونه . « هي ذي دعارة الروانــج » خطرت له هذه الفكرة فابتسم لها وقد تمثل كيف (قيموا) مظهره المتعاظم بأنــه « سبورت مان » .

رأى فجأة أمام ناظريه علبة سجائر « تشسترفيلد » تتقدم له .

ـ شكرا ، لا أدخن ـ قال ذلك خارجا من ذهوله . سحب بليوستل ـ مضيفه لسجائر ـ يده وابتسم ثم غمغم .

ـ المعذرة ، أسفا ، ليس لدي اليوم ماريجوانا .

لم يقل فارياس شيئا . هو لا يعرف إن كان هذا سيجعله يشعر بالسعادة أم بكونه ريفياً . ولم يكن ، ببساطة ، يريد أن يخيب أمله ـ هذا كل ما في الامر . وذلك تماما كما لو ان أحدهم يحاول اقناعه بأن اليانكي لا يملكون الملكة .

جاء وحيدا لاري الببي الذي من سان فرانسيسكو . قد يكون كل شيء ولكنه ليس ايطاليا . أهو باســم مستعار ؟ يداه ترتعشــان ارتعاشا خفيفا . هذا لديــه ماريجوانا . ان القانون المضاد للشهرة من القوة بحيث جعل فارياس يعرف من يكون من عدم اكتراثه بالآخرين ، بهؤلاء الذين كانوا معجبين به أنفسهم .

أداروا اسطوانة قديمة بالية لبيلي سميث فلم يكن يسمع منها سوى صريــر الابرة . كان ثلاثة أزواج يرقصون من حين لآخر . لم يحضر فارياس أبدا لهوا يبعث على الاسى أكثر من هذا اللهو . « هلو جك ، هلو ميري ، هلو أورلي » أحس فارياس في المطار أنه مضحك بهذا الاسم .

ـ انتبهوا أرجوكم ـ صرخ أحدهم من أريكة سوداء عميقة . انه صــراخ مبتذل يرسل في استقبال السفن عابرة الاطلنطي . ولكنه ما كاد يسمع هنا . كان الذي أرسله فتى يكاد يكون أثيريا « بلا جسد » وكأنما هو رسم ذو أذنين دقيقتــين كجناحين ويدين راقصتين لا أكثر .

ـ من منكم خبر الذهول الحقيقي هذا الاسبوع ؟ ـ سألت امرأة سمينة حافية وكانت تدلك مترهلة الدوالي التي في رجلها الشمراء .

ـ أنا ـ قال الاثيري من أريكته • أحس فارياس أن هذا الحوار أعد مسبقـ فهو أشبه بكتاب يحتوي على نص أوبرا معد للضيوف الاجانب • استشعرت ذهولاً حقيقياً ـ تابع الرسم كلامه ـ حدث ذلك يوم الاربعاء الفائت ، وقد استمر خمس عشـرة دقيقـة •

يستطيع فارياس أن يقول بدقة انه لا يشعر بالسعادة وانما يحس أنه مـن الريف • أحس (دون أن يتمكن من تجنب ذلك) بخجل حقيقي لانه لم يعش أبداً ذهولاً حقيقياً • ما هو كنه الذهول في نهاية المطاف ؟ أهو نوع جديد من الدغدغة ؟ أم هو نوع من السعال ؟ أم أنه مجاز حقيقي ؟ فكر ببعض حالات سكره المميزة في (اعوادا) ثم جزم على الفور بأن من غير الممكن أن يكون هكذا •

من غير الممكن أن يكون • من غير الممكن أن تكون من لسان هذه الرطوبة على العمق • استدار متمهلا ، لا من أجل ألا ينسكب هذا « البوربون » المزعج من كأسه وانما ليصرخ برأيه حول ما يراه • ظهر له أن تلـك هي فعلا مسّة من لســان • فعلتها امرأة طويلة ناحلة ، على وجهها آثار جدري او ما شابه ذلك • لقد شربت دون ريب « بوربونها » العاشر وليس لدى فارياس مانع من أن يقترح عليها الحادي عشر • جمله جهاز التهوية الصغير الذي وراء ظهره يشعر ببرودة مزعجة في المكان الذي لا يزال رطباً من جراء تماس لسان المرأة •

ـ أورلي ـ قالت النحيلة ـ قـد يكون هو الاسـم الاجمل بين الاسـماء التي سمعتها بعد اسم داغ كهالمار اقني كارا همرشولد • هل أستطيع أن أقبلك ؟

ابتسم فارياس آلياً ولا يعرف أحد لماذا لم يقل شيئاً •

ـ كلا ، كلا ، ليس على الفم • هذا مبتذل جداً • خلف الاذن • هكذا •

وأحس ثانية المسّة الرطبة واضطره جهاز التهوية عـلى الارتعاش أيضــا • تلوت المرأة وكأنها تريد أن تختبيء خلف أذنه • وظلت دون حراك • تراخت اليد التي تحمل الكأس على مهل وانسكب بضع قطرات من « البوربون » على « منفضة » السجائر المصرية القريبة كان كليتس قد كف عن الاهتمام به ولكن لاري اليبي ابتسم

له من كرسي من طر ز « ويندزور » وعيناه نصف مغمضتين أدرك فارياس أن المرأة قد أغفت • أخذ الكأس ووضعه قرب « منفضة » السجائر المصرية وأحس أنه ملزم بالاعتناء بالحبلة • وضع احدى يديه تحت ابطها والاخرى تحت ركبتيها وحملها بأحدث أسلوب من أساليب « ليالي القران » الهوليودية • خطر له حينئذ أن ينتقم من ضحكة البي • اتجه نحوه ووضع حمله على ركبتيه • أحس أنه « انفصم » عن هذه المرأة ومن مسّات لسانها • ولكن البي ظل يبتسم • ثم راح يدندن وسيجارته متدلية من أحد جانبي فمه •

ابتعد فارياس قليلا ، الى الحد الذي أتاحته له المسحة الضيقة ، وتداعى في احدى الارائك • أغمض عينيه وأخرج منديله دون أن يفتحهما ومسح رقبته أولاً ثم أذنيه • وصل اليه خليط من الاصوات وهو جالس مغمض العينين ، موسيقا جاز ورنين كؤوس تتحطم ، شخير وتأتأة البي لسكران • أحس طوال عشر دقائق شعوراً بالهناء لان أحداً لا ينظر اليه • ولكنه أحس حينئذ ان أحداً يقف أمامه ، فتح عينيه • كان ذاك بليومنثل •

ــ هل أنت متعب ؟

ــ قليلا • قد يعود ذلك لانني تحدثت اليوم بالانكليزية وأصغيت الى الحديث بها أكثر مما فعلت طوال حياتي كلها • ان الانسان ليُستنفد بشكل مخيف اذا لم يكن اعتاد ذلك •

ــ أجل ــ قال بليومنثل وهو يتابع النظر اليه ــ رحت أنظر الى شاربيك وأنت نصف غاف •

ــ أهكــذا ؟

ــ ألا تكتب سوى القصص ؟ أم أنك تكتب الشعر ؟

ــ لمــاذا ؟

ــ لا لشيء •

ــ أكتب القصص فقط •

ــ أســفا !

ـ لماذا ؟ هل تفضل القصائد ؟

ـ قلت « أسفاً » لانه كان يتوجب أن تكتب قصيدة طويلة عن وحي شاربيك • ابتسم فارياس بشعور ما من عدم اليقين • وظل بليومنثل ينظر اليه بجد•

ـ أتسمح لي بلمس شاربيك ؟ ـ سأله فجأة ومد يده ـ •

امسكه فارياس بقوة من معصمه فأرخى يده باستكانة ورفع كتفيه •

كانت الساعة الثانية والربع ، وكان ذلك كافيا كبداية • رأى ان كليتن المترنح لن يلحظ غيابه اقترب من الباب • أغفى اليس فوق السيدة النائمة • بليومنثل أحد القلة الذين لم يثملوا ولم يكونوا قد تناولوا المخدرات ـ لوح له بيده دون قطرة من الكراهية • خرج فارياس • استنشق الهواء النقي مرارا •

سار في جادة اميركاس ولاحظ فجأة أنه ليس وحيداً • كان هناك (ايدي) الزنجي الضخم ، وهو أحد الثلاثة الذين لم يخلعوا أحذيتهم وقد يكون الوحيد الذي قال له شيئا بترو • أنتم الاميركيين اللاتينيين تهتمون بالمسألة الزنجية في الولايات المتحدة الاميركية وتتعاطفون معنا • وأنا أتساءل دائما عن سبب ذلك • ولقد وصلت ، لو تعلم ، الى نتيجة مفادها ان الادارة الحكومية تعاملكم معاملة الزنوج •

ولقد سأله أيدي الآن :

ـ كيف ترون كل هذا ؟

للزنجي ملامح انسان تخلص من دهشته • يسير مرفوع الرأس ويداه في جيبه •

سأل فارياس هو الآخر :

ـ لماذا يفعلونه ؟
ـ من الصعب ايضاح ذلك ؟
ـ لا يريدون أن يعيدوا النظر • هذا كل شيء • يهربون •
ـ ولكن ••• ممم ؟

وصلا الى الجدة السدسة · أشار له ايدي بيأن (الباص) يقترب · شد فارياس على يده وصعد الى (الباص) بقفزة واحدة ·

وصل اليه صوت الزنجي من الرصيف أكثر اتزانا من المعتاد

— سمه الروح العملية ان شئت ···

— ٣ —

الطريق من بيبكس الى البكرك تستغرق مدة ساعة ونصف بالطائرة · أمضى فارياس نصف الساعة الاول في حديث بالانكليزية مع مشاركه المقعد · كان الاخير مشمور الانف نصف أصلع ، سمينا يتعرق بغزارة لدى هبوط الطائرة في أي جيب هوائي · اثر في فارياس مدى تفاهمه معه · واعتراه الشك فجأة · أحصى المرات التي استعمل فيها السمين فعل « Toget » فوجد انها مرة واحدة خلال ثلاث دقائق · لا يمكن أن يكون يانكيا ·

سأله فارياس بارتياب

— من أين أنت ؟

— من الا — رجن — تين — نطقها السمين بجلاء ·

— منذ متى من الارجنتين ؟ قالها فارياس حانقا بلغة اسبانية أصيلة — وها نحن منذ نصف ساعة نجرجر هذه الانكليزية لغثة !

ابتسم السمين ومد له يده :

— مونتيفيديو ؟

— مونتيفيديو — كرّر فارياس ·

منذ ذلك الحين فصاعدا لم يتكلم سوى السمين · قص عليه حكاية حياته ، تقاعده ومخططه · لا لن يمكث في البكرك (تنهد فارياس بارتياح) نصف ساعة فقط ، الى أن يأخذ طائرة أخرى الى دالاس · تعابيره تبدأ وفق الاسلوب المحبب لدى أهالي بوينس أيرس « فسمكم أنكم من بلاد صغيرة تكاد تكون مجهولة ، انا نحن ، الذين ··· الخ » أو (سعداء أنتم لكونكم لا تملكون سوى الصرف ،

أما نحن الذين لشقائنا ، من أغنى بلاد العالم ·· الخ » وأخيرا « ولكن حسنا ، فيفتي ــ فيفتي ، كما يقول الاميركيون ، اننا أحسن لاعبي كرة قدم وأنتم تتوورون بالبطولة » ·

ــ نزنا ــ همهم فارياس وأدار رأسه الى الناحية الاخرى ·

الولايات هي ببساطة محره خدعة بالنسبة للسمين · وكل شيء في الارجنتين أجمل باستثناء الجسور ·

ــ ارجو ألا تحدثني عن الطعام · أن العقبة « و « الدسرت » التي تأكلها في أرميبغ لها طعم المدائن وهي تشبه العقبة في واشنطن ــ العاصمة ·

عرف منذ فترة وجيزة أن واشنطن أخرى تتكون ــ « الولايه دائمهالخضرة»·

ـ أرجو ألا تحدثني عن كرة القاعدة (البايسبول) هل تفهم هذه الصرعة ؟ أقول لك إنني أفضل الفولف · وكيف يمكن أن تقارن مع كرة القدم عندنا !

اندفعت الطائرة بحدة نحو الاسفل في هذه اللحظة · تمكن الارجنتيني من لفظ بعض مقاطع « أعذرني » بصعوبة ، انحنى فوق غلاف من شركة T W A صمت بعد ذلك وأغمض عينيه ولكن ذلك لم يستمر سوى خمس عشرة دقيقة ، ذلك لان الطائرة حطت بمدنئذ في البكرك ·

« السيد أوليندو فارياس ، السيد أوليندو فارياس » ، فيحضر الى شباك شركـــة TWA فارياس يجد دائما صعوبة في فهم الصراخ بمكبر الصوت حتى لو كان ذلك بالاسبانية · ولهذا توجب عليهم مناداته أربع أو خمس مرات ·

تقف قرب شباك شركـــة T W A امرأة نحيفة جدا ، ما بين الستين والخامسة والستين من العمر · تضع نظارتـين لهما إطار معدني وقمة مائلة تتـدفع من كل جوانبها مشابك للشعر وشكلاته ·

ــ السيد فارياس ؟ ــ سألت ــ أنا السيدة أغنيس بيين · جئت لاستقبالـك باسم الشاعرات في البكرك ·

شد فارياس على يدها العظمية وخيل له للحظة انها قد تتحطم من شده عليها ·

ــ سننتظر قليلا ، ستأتي السيدة روزمولويل ايضا ·

سأل فارياس عما اذا كانت السيدة بيين تكتب القصائد ·

ــ طبعا ــ قالت وأخرجت من حقيبتها السوداء كتاباً رقيقاً ذا غلاف قاس ــ هذه مجموعة قصائدي الاخيرة ، لي تسع وثلاثون قصيدة طويلة ·

قرأ فارياس العنوان المدهش (آنتخيليا القمر والكرنفال)

ــ نعم ، أشكركم شكرا جزيلا ·

ولكن السيدة بيين تابعت ·

ــ السيدة فالويل أكثر أهمية في الحقيقة
ــ آهـا ···
ــ أجل ، وهي تشارك في تحرير « ستردي ايفسنج بوست » ذاتها !

فكر فارياس في مدى نسبية الاشياء · فلو وضعنا عدد السبع والمسائل التقنية جانباً فان هذا يشابه مشاركتك في تحرير « موندو أورغوايو » ·

ــ ها هي قادمة ــ هتفت السيدة بيين ونشطت فجأة ·

رأى فارياس على لسلم قرب الردهة عجوزا نحيلة الى حد لا يصدق · (قد تكون في الثمانين أو الخمسين بعد المئة من عمرها) عجوز ترتجف ارتجافة طفيفة جداً ولكنها تسير منتصبة القامة تماما · اقترب والسيدة بيين منها ·

ــ اسيد فارياس ــ قدمته لسيدة بيين ــ السيدة روزفولويل ــ شاعرة الكرك الشهيرة ، المشاركة في تحرير « ستردي ايفننج بوست » ·

كفت السيدة فولويل عن الارتجاف لحظة وابتسمت له ابتسامة من أكثر ابتساماتها فتنة وهي من طراز القرن التاسع عشر ·

ــ فلنأخذه ليجرب المطعم المكسيكي ــ قالت واستدارت نحو السيدة بيين ·

ـ حقا ! ـ وافقت زميلتها على الفور

اتجه فارياس نحو المخرج حاملا حقيبته وعلى كل من جانبيه عجوز هرمة ·

حياه الارجنتيني من الردهة مفرطا بتلويحات يده · صار لديه ما سوف يقصه بعد انتهاء جولته : « هؤلاء الاوروغوائيون رهيبون · عرفت في الولايات واحدا منهم خطر له أن يذهب ويستمتع مع عجوزين مجفاوين شمطاوين » ·

تركوا الحقائب في الفندق وسمحتا له بخمس دقائق ليغسل يديه ويسرح شعره ثم انطلقوا بسيارة السيدة بيين نحو المطعم المكسيكي ·

اختاروا (الاصح اختارت السيدة فولويل) قائمة الطعام · قدمتها لهم فتيات يافعات يتكلمن الانكليزية بنبرات اسبانية والاسبانية بنبرات انكليزية · قالت السيدة بيين ·

ـ أرجوك يا روز ، اسمعي السيد فارياس بعض قصائدك الطويلة ·

ـ أوه ، قد لا يكون هذا الوقت هو الانسب ـ اجابت السيدة فولويل ·

وشعر فارياس انه ملزم بالتدخل فقال :

ـ على العكس ، أرجوك ·

سألت السيدة فولويل :

ـ أي القصائد تريتها أكثر مواءمة يا أغنيس ؟

ـ كلها جميلة ـ وأردفت وهي تلتفت نحو فارياس ، بنبرة انسان يقدم آخر للمرة الاولى ـ السيدة فولويل ، مشركة في تحرير « ستردي ايفننغ بوست ! »

ـ ما رأيك في « سيرينادا الهية في نافاكو ؟ »

ـ رائعة ! وافقت السيدة بيين ·

وهكذا تلت السيدة فولويل بصوتها الرعش الحاد أدوار سيريناداها الالهية الخمسة والعشرين · أعرب فارياس عن أن القصيدة بدت ممتعة وحلا وجه السيدة فولويل المجعد من أي تعبير وهي تتلو المقطع الاخير ·

ـ ممتعة جدا · ممتعة حقا ·

بدا واضحاً أن السيدة فولويل قد عاشت طويلا تجارب الخير والشر . أحس فارياس أن كلماته لم تكن متميزة نوعا ما ، ولكن محاولة السيدة فولويل الابتسام جعلته يتفاءل .

ـ هيا ، فلنجعل السيد فارياس يذوق (التيكيل) ـ قالت المشاركة في تحرير « ستردي ايفنيغ بوست » وهتفت السيدة بيين بالطلب الوحيد (تيكيـل) . استدارت نحوها السيدة فولويل :

ـ وأنت لديك قصائد جميلة يا أميس . يروي للسيد فارياس من تلـك التي نشرتها في (البكوك كرونيكل) .

تقصدين « بانتظار أفضل الليالي » اليس كذلك ؟ سألت السيدة بيـين بعصابية .

ـ تمــاماً .

ـ قد لا تكون هذه اللحظة هي الانسب ـ قالت العجوز الصغرى وقد احمرّت.

ـ ولكن ، أرجوك على العكس ـ تدخل فارياس وقد أحس أن اجابته جزء من حوار دوري مكرور .

بدأت السيدة بيين في اللحظة التي قصم فيها فرياس قصمة من كعكة مكسيكية، وأحس أن الطعم الحاد قد أمسك بلعومه ومعدته وبدماغه وأنفه ، بقلبه وكل كيانه .

ـ شرب شيئا من « التيكيل » ـ همست له السيدة فولويل متعاطفة معـه ، بينما كانت السيدة بيين تقمي ما تتلوه ب « يذل » و « مذل » و « بلس » مع « تريمس » ثم أشارت له السيدة فولويل اشارات واضحة تمما شارحة أن التيكيل يشرب كما تلحس قبضة من الملح في راحة اليد من بين السبابة والابهام .

ـ تعلمت ذلك في أواكساك ـ همست مرارا بينما كانت السيدة بيين تنهي للمرة الرابعة أحد الادوار الشعرية ذي القرار التالي « حروف زائفة ، هنا وهناك » نزل « التيكيل » على فارياس فوق الطعام اتحاد نزول اللهب المستمر . كررت السيدة بيين ، للمرة السابعة والاخيرة ، قرارها في تلك اللحظـة . أراد فارياس

أن يقول « ممتع » فلم يخرج من حلقه سوى ما يشبه أنة مبتورة . وقد بين لـه بعد ثلاث أو أربع ساعات أن شامرتي الكرك تشدانه أعمالهما الشعرية الكاملة .

وحينئذ بدأ يشعر بالانشراح . لقد تحول رأسه وقلبه بفعل الطعام الجيد و الكحول الى شيئين غامضين غير محدودين قابلين لكل شيء . أحس وكأنه قـد تملكته موجة قاهرة من التعاطف مع العجوزين اللتين كانتا تشدانه ما بين كأسين من « التيكيل » وقصتين من الطبيلطة احدة أناشيدهما وأغنيــات غرامهمـــا وصلواتهما وهلوساتهما .

لقد عاش قصة حقيقية ، تكاد تكون جاهزة ، مرتبة ومتمة وكاملة . أحس أنه مأخوذ بما يكاد يكون حبا ـ من كرم وتبل ـ بهاتين العجوزين اللتين تتحملان بصلابة أقداح « التيكيل » المتتالية . ولكنه أصبح منفعلا الى حد كاف فراح يتهته كعادته حين يثمل :

ـ و ـ أ ـ أ ي .. هـ ـ هذه ال .. القصائد .. ق ـ قد ن ـ نشر .. في « س ـ س ـ ستودي » ؟ ـ سأل مغالبا الضباب الذي في رأسه دون أن يتمكن من اضافة « ايمسنع بوست » .

وتلت ذلك زفرة جديدة . تدخلت حينئذ السيدة بيين بمطلة ولطف :

ـ أترى عمق الفكرة في هذه الكلمات الاربع يا سيد فارياس ! « الان تماما والا أبدا » نشرتها « ستردي ايمسنع بوست » في الخامس والعشرين من شـهر آب عام ١٩٤٩ .

ـ ف ـ فكرة ر ـ رهيبة ـ أيدها فارياس . وصعدت آنذاك السيدة فولويل مراحل ورمت الى رتبة « سيدة » .

ـ ق ـ قولي لي يا أغنيس ـ بدأ فرياس ـ لماذا تطيب لكما الاطعمة الحادة والمصائد الحادة الى هذا الحد ؟

ـ ممتع انك ربطت هذين الشيئين في سؤال واحد يا اولانــدو ـ وأحست السيدة بيين بتمالكها لنفسها وتولد الثقة لديها ـ قد تكون على صواب في الاساس . الا ترى أنهما قد يكونان شكلين للمرار ؟

ــ لِ ــ لماذا لِ ــ لا ؟ ــ تهته فارياس ــ ولكن مم الفرار ؟

ــ من الفراغ · من المسؤولية ·

خيـل لفارياس أن السيدة بين تتـاول كلماتها عشوائياً كمـا يسحب المرء أوراق لعب من مجموعتها لا على التعيين · ثم تنهدت قبل أن تضيف ·

ــ من الواقع في نهاية المطاف ·

ــ ٤ ــ

ــ يتوجب علينا المرور عبر جورج تاون لنأخـــذ نيريده بينوس ــ قال الفواتيمالي ، ثم سنتابع السير الى هاري · سترون أي بانكي مسل هو ·

سأل الشيلي :

ــ ومن هي نيريده هذه ؟
ــ من مواليد تيغوسغالبا ولكنها تعيش منذ ألف عـام هنا في واشنطن · يقولون انها تمزج القصائد الرعوية العجيبة « بالكفتة » الرائعة · لكل شيء عال هي ، الشقية ···

كان فارياس يصغي اليهما وحيدا في المقعد الخلفي من سيارة الفولكسفاغن لقد تعرف الى الشيلي مونتس والفواتيمالي أورتيغا اثناء حفلة كوكتيل في بن ــ قلوب في نيويورك · مونتس يدرُس الادب الاسباني ــ أميركي في جامعـة نوتردام ، وهو الآن في واشنطن اذ لديه عمل في مكتبة الكونغرس · اما أورتيغـا فلم يكن مدرساً ولا شاعراً حتى وليس صحفياً · انه يعمل منذ سنتين في الولايات ، وخصوصا في واشنطن حيث لديه مسكن · وهـــو يبيع جميع أنواع البضائع بتخفيضات أو بالمصادفات « أوكازيون » لابناء جالية أميرك اللاتينية · تأتي الى مسكنه ، أغلب الاحيان الاميركيات الشابات اللواتي يهملن أزواجهن · ويفسر أرتيغا تعاستهن الجنسية بالطريقة التالية : « أتعرفون أيها الفتيان انه تلزم

لهؤلاء اليانكي الكثير من أقداح المارتيني لتدب فيهم النخوة ولكن النوم يطرحهم دائما قبل أن تأتيهم النخوة » ٠

كان فارياس يصغي اليهما وهما يتكلمان ويضحكان ويشتمان ويخيل له أن هذين اللذين ولد أحدهما على بعد الاف الكيلومترات من مكان ولادة الاخر ، كان أحدهما أقرب الى الآخـر من قرب كل منهما الى نفسه ٠ أحدهما قــادم من كراهينكيلاما والآخـر من فالديفيا ، ولكن لديهما شيئاً مشتـركاً هو أن اليانكي يستثمرون الفواكه الغواتيمالية والنحاس الشيلي ٠ هذه هي اللغة لاميركو ـ لاتينية المشتركة الممكنة ٠ قال له الشيلي في نيويورك :

ـ لكم ، أنتم الارغوائيون ، سعادة وتعاسة كون الولايات المتحدة الاميركية لا تحتاج الى الصوف ٠ لا يشترون منكم ، لا يستثمرونكم ٠ لا يحتقرونكم ٠

التفت ارتيغا نحوه في هذه اللحظة :

ـ لا تثق يا فارياس بحوانيت « لاوكازيون » حين تكون بحاجة الى جهاز راديو ترانزيستور او آلة تسجيل أو علب او معطر أو آلات تصوير او أقلام ناشفة ، ولتعلم انهم جميعا من المانفستر ٠ قل لي عما تحتج اليه وسأجد لك الاجمل وبنصف السعر ٠ لا أنصحك بأحذ (براد) فقد تصدف ضابط جمارك لا يمكن التفاهم معه ٠ كل ما ليس لديكم في الجنوب ٠٠٠

ظهرت نيريدة على الباب فوراً بعد رنين الجرس ٠ كانت في نحو الخمسين من العمر وتزن ما لا يقل عن تسعين كيلو غراماً ، يشدها ما لا يعرف عدده من الزنانير والمشدات وغيرها - جلست على المقعد الخلفي قرب فارياس - ولكي يقول شيئاً متدح جورج تاون ٠

قالت :

ـ أوه ، تعجبني جورج تاون كثيرا - وتعجبني واشطن والولايات عامة افكر في عدم العودة أبداً الى اميركا الوسطى ٠

ـ لماذا يا نيريده ـ سأل أورتيغا ـ وهل نحن متوحشون ؟

ـ ما زلتم في المرحلة الاقطاعية ، ولهذا فان رجالكم يفكرون بالجوبيتريين

ونساؤكم يفكرن بالاقمشة الوبراء المحشوة بالجوبيتريين . هنا يهيمن سلطة الام ـ الجمال الحقيقي . لقد دعيت ، حتما ، يا أورلاندو للعشـاء في بيت ميركي نمودجي . الم يبد لك الاميركيون فاتنين وهم متصدون بمآزرهم ويمممون حول الكعك الموضوع في الفرن ؟ لقد لاحظت حتما أن السيدات يفتحن أرججهن هنا؟

وقهقهت بقوة جعلت اورتيف يرمقها في الصمت .

ـ أن مع سلطة الام ـ أردفت تيريده ـ وبهذا أنجزت هذه البلاد كل هذا .

ـ وما هو هذا الذي أنجزته الى هذا الحد ؟ ـ سأل موتيس ولم تجب تيريده بشيء ولم يكلف أحد نفسه عناء الرد .

كان هاري وزوجته ينتظرانهم في ريمرديل . انتقل فارياس الى سيارتهما. ويرجع هذا الامتياز لمعرفته الانكليزية . هاري يتكلم الاسانية قليلاً ، اما زوجة فلا تعرف منها سوى « اسستالاميستا » (١) . نظرت الى فارياس ونوحت بيدها وهتفت « اسسستا لا فيسسستا » و تفجرت في ضحك مدو . حذا فاريس حذوها مرارا على الرغم من عدم قناعته التامة ، ولكنه بعد عدة مرات من هذه الانفجارات أحس أن فمه يؤلمه ، ومنذ تلك اللحظة فصاعدا استحسن أن يبتسم كمن يتصنع الفهم .

ـ سآخذكم الى مكان صغير عجيب ـ قال هاري ، سعيدا بكونه القائد ثم أردف على الفور ـ كيف رأيت نيويورك ؟

أجاب فارياس

ـ تستحق الاهتمام لعدة أسباب .

ـ كم من هذه الاسباب تحمل « تانير » ـ تدخلت فلوره ـ أعرف ، أعرف. لقد تركت نيويورك الان وقلت لهن . اسسستالافيسسست » ! ويضحك هاري لاول مرة هو الاخر .

سأله هاري .

---

(١) تعني بالاسبانية الى اللقاء

ـ هل ذهبت الى ربيديوستي ؟

طبعا ، ذهبت . هذه أحد الاشياء التي بهرتني ، ان كل ما يصنع على نطاق واسع يضيع الاصالة في الطموح الى التحصيل .. قل لي يا هاري ، حين صعدت هذه الاوركسترا الضخمة ، التي صعدت ونزلت ودارت على المنصة الضخمة ، وكان عليها أن تؤدي عرضا أوركستراليا على الكمان ، لماذا راحت عازفة الكمان المنفردة تعزف فجأة ، على البوق بدلا من الكمان وكانت ترتدي السروال القصير « الشورت » بدلا من الفستان الطويل ؟ انني أقبل أن تستمع راهباتكم الى الروك اندرول ويقصرن مع السيدات المتزوجات ، أما هذه الجمعة من سيليبوس بأنحاذها العارية فلا استطيع ابتلاعها .

ـ لا تمثل بحماسة يا اورلاندو ـ قاطعه هاري ـ أنتم متأثرون بعيدي كاسترو .

وضحك الجميع هذه المرة .

ـ سأقول لك الان جادا ، لا تعتقد ان الانسان يمكن أن يكون موسيقيا معاديا للامبريالية . وفي خاتمة المطاف ليست وصفة « روشيتة » ربيديوستي سيئة الى هذا الحد . لاتجد الجملة العارية تساعد الجمهور على هضم سيلبوس بسهولة . بصورة ثقافية ، أليس كذلك ؟ وهذا الذي تحكيه لي أفضل بكثير من برنامج رأس السنة الجديدة ، حيث يطير بابانويل عن الصالة بواسطة « هيلوكبتر » .

مكان هاري الصغير المحبب هو غريت فولس ـ من ولاية ميريلاند . وعلى فارياس أن يدرك أن الشلال يستحق السفر .

ـ سترى الآن نزهة منظمة ـ رائعة ـ قال الغواتيمالي ملتفتا الى هاري

وأضافت تريدة :

ـ هاري متخصص .

أخرج هاري ، حينئذ ، من العربة حقيبة متوسطة الحجم وبرادا صغيرا مر

حلية حقيقية ، حيث كان اللحم ، ثم أخرج مشواة « ايروديناميكية » مفككة أعدت للعمل خلال دقيقة • ثم أخرج وقوداً صناعياً (شيئاً يشبه كرات من الفحم) وأخيرا ، أخرج أسياخا بسوائل مشتعلة خاصة بالوقود الصناعي الخاص بالنزهات الخاصة • فكر فارياس بأن الكوبيت والنار هما نقطتا التماس الوحيدتان في تقاليد الشعراء في أميركا الجنوبية • ففحت فلورا عددا من الفرش النايلون وجلس الجميع حول هذه النار المتبدنة • ولولا ضجيج المياه المنحدرة على مقربة لكان من الممكن أن تتم مثل هذه النزهة بهدوء في الطابق الثاني والتسعين من احدى ناطحات السحاب •

أخرج هاري بعد الطعام ، « بولاريدة » وتجمع الجميع حول الرماد المستدير في الموقد الصناعي وراحت فلوره تصوره مع الاميركيين اللاتينيين الاربعة • أطلق نكتة حول طول قامته (طوله مئة وثلاثة وتسعون سنتمترا) • أما أطول قامة من قامات الآخرين فلا تتجاوز مئة وتسعة وستين ستيمترا •

ـ وتفكرون بعدم ضعف النمو ـ وضحك •

بعد أربع دقائق كانت الصور جاهزة •

ـ هذه هي الحضارة ـ قال هاري ردا على تصميق تريده • لم يكن فارياس على يقين مما اذا كان الاميركي يفخر حقا أو أنه كان يسخر من التقاليد الوطنية ، أو قد تكون المسألة أهون من الامرين • وجده فارياس صريحا ودودا ، ولا أحد يعرف لماذا لم ترق له فلورا الى هذا الحد •

ضجر الشيلي وذهب ليتأمل الشلال وسحب أورتيغا فارياس ملباقة نحو الطريق العام •

ـ هاري ودود ، كيف رأيته ؟ هو ليس بضاعة أميركية •

ـ أجل ، أعجبني كثيرا •

ـ هل تعرف ؟ لقد تقبل نمط الحياة الاميركي باختيار خاص وهذا ما أنقده• لا أستطيع أن أقول إنه يفهمنا ، (هذا صعب جدا هنا) ولكنك تستطيع لتحدث

اليه من غواتيمالا وعن بوليفيـا ، وحتى عـن كوبا دون أن يصاب بالعصـب (الهستريـ) • وهذا كثير • وهو لا يرى أن روزفلت كان شيوعياً •

ـ وفلوره ؟

ـ تعتبر فلوره مختنقة لان كلمة هاري هي المسموعة في البيت • وحسب مقولة نيريده فان هاري هو الذي يفتح الزجاجات ، وأما فلورا فتطبخ • إي ، لا تنس أنه عاش سنتين في مكسيكو • وقد يكون معتادا من هناك •••

ـ راحت فلوره ومونتيس يقفـزان فوق الصخور • هاري يدخـن مستمتعاً ونيريده تقرأ مستندة الى شجرة •

بعد ساعتين كان فارياس يجلس بين هاري وفلوره على المقعد الامامي للسيارة الكرايسلر ذات أحدث طراز • ذهب الاخرون بسيارة ارتيغا الفوسفاغن • وقد اقترح عليه الاميركيان أن يوصلاه الى واشنطن • شعر بالارتيـاح • « اناس طيبون • » ـ فكر ـ صالبت فلوره ساقيها • « ساقان جميلتان ـ خطر له ذلك ـ سيحتفظ بذكرى جميلة لليوم المنقضي •

ـ لماذا تعيشون جميعا خارج واشنطن ؟ ـ سأل فارياس لكي لا يبقى صامتاً ـ تبدو لي مدينة مريحة جداً •

تغيرت هيئة هاري :

ـ كيف تريدنا أن نعيش في واشنطن وثمة هنا ما لا يقل عن ستين بالمئة من الزنوج •

جرش فارياس ريقه :

ـ وماذا في ذلك ؟

نظرت اليه فلوره بلطف وكأنها مسرورة لكونه لم يتسرع :

ـ كيف ؟ هل فهمت يا أورلاندو ؟ ستون في المئة من الزنوج !

صمت فارياس وقد أحس بالرهبة لم يطق احتمالا فقال :

ـ المعذرة ، لم أستطع فهم ذلك •

زادت تمايز الحنق على وجه هاري ٠ تحتم على الكرايسلر أن تتوقف عند تقاطع جادة ميستشوزيتس مع الشارع الرابع فضوء شارة المرور أحمر ٠ مرت على ممر المشاة عائلة زنجية كاملة ٠ أشار طفلان الى هاري وضحك كما يضحك الزنوج دائما ـ بفم مفتوح واسع ٠ لم يستطـع هاري احتمال المزيد ٠ جمـع قبضته فوق النقود وصرخ ملتفتا نحو فارياس ،

ـ وأنت تسألنا ٠ لماذا لا نعيش في واشنطن ؟ انظر ، هذا هو واقعنا ! هل تفهم الان ؟

قالت فلوره :

ـ اهدأ يا هاري ٠

ـ اجـل ، فهمت الان ـ غمغم فارياس وكان يفكر بيوم أمس في غرينتش فيليج وبالعجوزين لصلبتين في البكرك ٠

تركاه أمام الفندق ٠ ابدع فارياس أثناء الطريق جملة عرفان طويلة بالرفقة والرحلة والغداء والصورة وايصاله الى الفندق ٠ مد له هاري يده وقال هادئاً ٠

كانت سعادة حقيقية لي أن أتعرف عليك يا أورلاندو ٠ سعادة كبيرة فعلا ٠

قبلت فلوره وجنته ٠

ظل فارياس وهلة عند مدخل الفندق بانتظار انطلاق السيارة ولحظـة انطلقت الكرايسلر لوحت فلورة له بيدها مودعـة وقالـت بمرح حقيقـي ٠ « اسسسنا لا فيسسستا ! » ٠

□ ■ □

قصة من المجر

الحقّاني

بقلم : لايوس بيرو
ترجمة : حبيب كيالي

الكاتب في أسطر : لايوس بيرو (١٨٨٠ ـ ١٩٤٨) كاتب وصحفي مجري نشرت مقالاته ورواياته في كتب . وقد كتب لايوس مسرحيات أهمها : الناس ، بيت الأسرة ، السياسة ، الصحافة . القصة التي ننشرها فيما يلي يعود تاريخها الى العام ١٩٣٠ .

فيكتور بالوكري فتى يفيض حماسة . كان يتصفح الجريدة تصفح المتفضل ، فلما وصل الى صفحتها الاخيرة وقع نظره على الاعلان الصغير التالي

« أستطيع أن أؤمن مركزا في العاصمة لفتاة صبية حسناء قادرة على أن تظهر لي العرفان بالجميل . اكتبي الى الجريدة تحت عنوان « الصديق ذو النفوذ » .

قرأ فكتور الاعلان وهو لا يكاد يصدق عينيه وأعاد قراءته مرة أخرى . ولما قرأه للمرة الثالثة احتقن وجهه ، واشتعل غضب أحمر قان في قلبه وخيّل اليه أن دمه كف عن الدوران في عروقه . هذا ، حقا ، أفظع ما يمكن أن تصل اليه الوقاحة وقلة الحياء ! مؤكد أن همّ الجريدة اجتذاب القراء ، وجريدة كهذه لا تعكس الا صورة لعالم بائس محزن . ليس قدر المرأة على هذه الارض الا الاهانات والآلام . الصفقات التي تعقد من طريق «الاعلانات الصغيرة» ، دنيئة ، غير شريفة . ولكن هذا الاعلان يفوق كل ما يمكن أن يمر بالبال ! وكان فكتور ، منذ وقت طويل ، تتآكله الرغبة في أن يشن الحرب على صفحات الاعلانات . كان لديه دائما مخطط ما ، غامض ،

يعتمل في خياله ٠واذا بدا لاحد أن يعلن حرباً عواناً تستجموفكر فكتور على السوقية التي تجتاح بودابست فسيكون هو أول من يحمل رايتها ٠ في بعض اللحظات كانت تراوده فكرة خلق جمعية سرية ينحصر نشاطها في فضح كل خسة ، كل خيانة ، كل احتيال ، كل تواطؤ مموه يجري في بودابست وكذلك كل مساس بالقانون يعسر على القانون عقابه ٠ ولكن ، حتى يومنا ذاك ، لم يكن اي من تلك المشروعات التي بيتها فكتور قد تحقق ، ولكن الاعلان الصغير هذا كان بمثابة انهاء عهد التأمل والتفكير وفتح الباب على مصراعيه للعمل الجاد الحاسم ٠ ليسقط الانتظار لقد وجب الحسـم !

ووثب فكتور من مجلسه واخذ نفسه بالعمل ٠ فقد جلس الى مكتبه وحرر الرسـالة التـالية :

« سيدي الاكرم ،

أنا فتاة في التاسعة عشرة من عمري ، يمكن اعتباري ظريفة بل جميلة ٠ سأكون صديقتك الوفية اذا استطعت أن تدبر لي وظيفـة معلمة في بودابست ٠ في حال رغبتك وقدرتك على اشغالي المعـارف العامة اكتب الى « أمل » ، شباك البريد المركز الرئيسي للبريد والبرق والهاتف لكي تتفضل باعلامي عن المكان الذي أستطيع أن ألقاك فيه ٠ »

أعاد فكتور قراءة الرسالة وهو مشمئز مما كتب لما في كلماته من غثاثة تميز أسلوب الاعلانات الصغيرة ، ووضعهـا في مغلف (نفيس) معطر ، وأرسـلها الى الجريدة وراح ينتظر الجواب بصبر واهن ٠

ورد الجواب بعد يومين ٠ جعل قلبه يخفق بشدة لما فض الرسالة الموجهـة الى « أمل » التي سلمت اليه في المركز الرئيسي للبريد ٠

كان نص الرسالة هو التالي :

« اذا كنت جادة في ما تقولين فابعثي الي باسمك وعنوانك ، وأعلميني ، ببضع كلمات ، عن وضعك العائلي (اذا كانت لك أسرة

ممن تتألف ، الى آخره ·) وأرسلي صورتك الفوتوغرافية (آخر واحدة) الى « أقحوان » ، المركز الرئيسي للبريد والبرق والهاتف » ·

كان فكتور متسمرًا على بلاط شارع كوردناهرسيسغ شاحب الوجه من غضب، تضطرب يده التي تمسك بالرسالة وقد بلغ به الغيظ مبلغاً موجعا جعله يصرف أسنانه بقوة ·

انه حقير ، التافه (الواطي) ، هكذا كان يهدر في داخله · السيد دن ويتش يموّه سوء الظن ، وهو لا يريد أن يكشف عن اسمه ولكنه يستعلم عن الوضع العائلي لصاحبته المعترفة بجميله · السيد يخاف أن يقع على أب غضوب أو أخ غيور قد يجعله يدفع غاليا ثمن كرمه (المقرف) · أي سيدي ، السيد ميري مجسوم اظهس ···

واندفع فكتور الى مقهى وطلب الى الساقي ورقا وريشة وحبرا ، وكتب كلمة « اقحوان » على مغلف رلّق فيه ورقة بيضاء · وكان على وشك أن يتصرف برسالته المغلقة بحثا عن أقرب صندوق بريد ، ولكنه ، فجأة ، عدل عن خطته فمزق الرسالة وأخذ مغلفا جديدا لم يضع فيه ورقة بيضاء ، لانه ، بعد أن أمعن الفكر ، بدا له عمله هذا مثيراً للظنون · الاحسن أن يكتب كلمة صغيرة لطيفة · وهكذا فقد كتب ما يلي :

« أنا لا أستطيع أن أمحضكم ثقتي كلها ما دمت أجهل اسمكم وأجدني غير مطمئنة الى جدية نياتكم · ارجوكم أن لا تسيئوا الى حقر آنسة صبية « أمل » ·

هذه الرسالة أرسلت أخيرا · واذا فكتور ، بعد ارسالها ، يغدو فريسة اضطراب وانفعال دفعاه الى تمضية يومه كله في التسكع في شوارع المدينة · حتى اذا كان المساء نام مبكراً حتى يكون في امكانه الاستيقاظ باكراً في اليوم التالي · وهذا ما كان ، اذ أفاق الساعة الثامنة صباحا واستطاع أن يصل الى المركز الرئيسي في الساعة التاسعة · وتعوّد قرب كوة شباك البريد وراح ينتظر · وفكر أن صاحبنا لا بد آت ليبحث عن جواب رسالته وهو متيقن من أنه سيحصل على جواب ولا سيما انه أرسل رسالته منذ أمس الاول ·

طلق ينتظر مصابرا ، ولكن ساعات قد تصرمت على حين كان رتل طويل من الناس ، من مختلف الاشكال ـ رجالا ونساء وصبايا وشيوخا كبارا ـ يمرون أمام الكوة ، ولكن أحدا لم يأت ليطلب المغلف الذي يحمل عنوان «أقحوان» في الساعة الثانية عشرة تماما وثب فكتور الى المقهى المجاور ، حيث تزود بشطيرتين من الجامبون وبرتقالة ، و (حشر) الكل في جيبه وعاد الى « محرسه » عجلان ، وبدأت فترة بعد الظهر ، واستمرت في سأم لا لا يقل مقتا عن سأم الصباح ، وأكل فكتور الشطيرتين والبرتقالة ، ثم حان موعد اغلاق الكوى ، لم يأت احد ليبحث عن الرسالة ولكن حماسة فكتور لم تفتر على الرغم من أنه كان متعبا ، فكر قائلا في نفسه اذا لم يأت اليوم فهو آت غدا يقينا .

كان في حاجة الى ان يخفف من الارهاق لدي عناه طوال نهاره فصعد الى عربة طافت به في نزهة في شارع ستيفانيا ، فلما عاد من مشواره الذي أراحه وطيبه ، تعشى في مطعم ، وأسرع الى بيته حالا حتى يستطيع النهوض في ساعة مبكرة من اليوم التالي ، وأفاق كذلك في الساعة الثامنة ، وكان في مرقبه ، في المركز الرئيسي للبريد والبرق والهاتف ، في تمام التاسعة .

نصب كمينه على هذا النحو الملح صبر " قاتل ، وبدأ فكتور يفتقد الامل ، ولكن بينما كان يقنع نفسه باستحالة نجاح مشروعه ويحاول ان يعلم ما اذا كان قد سلك اليه الطريق الصحيحة رأى رجلا سمينا ، صافي البشرة يحمل في يده عصا ويضع في عروة سترته زهرة ، يدخل من باب المركز ، أخذ قلب فكتور يخفق بقوة ، ودبت حرارة منعشة في أطرافه المنهوكة .

كان الرجل الناضج (يطنطن) في حيوية وهو يجتاز المكان رائق المخطوة وثوقا لا تجده في غير المتعود ، وهدل مهذبا أمام الكوة

ـ صباح الخير يا سيدتي ، ألديك شيء من أجل « أقحوان » ؟

لم تبطيء الموظفة أكثر من ثانية في العثور مما بحثت عنه : كانت كومة من الرسائل تنتظر السيد المشرق ، لدي حملها ، وتوجه قاصدا الباب ، ولحقه فكتور وهو يرتجف انفعالا .

آه ، المكروت ! يظهر أن الاقحوان هو زهرته المفضلة . به روماسي ، صاف وسعيد : الاعمال ماشية على ما يرام . الم يتسلّم هذه اللحظة بالذات كومة من الرسائل ؟ قال فكتور مكلما نفسه : ولكنه هذه المرة بين يديّ لقد أحكمت عليه الطوق .

ومحى الرجل المشرق عباب الفرحة حتى بلغ الشارع الذي تغسله الشمس . فهنا فتح رسائله واحدة بعد واحدة ، وطفق يخرج منها صورا فوتوغرافية كان يتأملها في ابتسامة رغيدة . أثناء ذلك كله كان فكتور ما ينفك يراقب الرجل . كان يلبس معطفاً أصفر ، وله رأس مكوّر . وكان لون بشرته فاتحا وعيناه لامعتين ، وشارباه ، أصهبين تحت أنف يذكرك شكله برأس البطاطا . ثم انه كان أكرش في نحو الاربعين من العمر . كل شخصه كان يفيض من صفاء وثقة بالنفس على نحو لا يطاق . وكل ما فيه يتنفس الفرحة البليدة بالحياة وبالخيبة والمكر . اذن ، انهم أن تبدد الاضطراب والتخلخل وتزعزع الفرحة بالحياة هذه البليدة .

ورافق فكتور السيد المشرق في نزهته . جرى عددا كبيرا من الجادات ضربا حتى في أرصفة الدانوب حيث كان فكتور شاهد عددا لايحصى من التحيات الحارة والمصافحات الودية و لابتسامات العريضة يوجهها السيد الى السيدات . لما دنت الساعة من الواحدة والنصف جر السيد ، فكتور نحو شارع أندراسي ، وبعد ربع ساعة من المشي وصلا الى بناية اجتاز السيد الاكرش بابها في منتهى الصفاء و لاشراق . كان أشبه الاشياء بانسان يعود الى بيته بعد صباح طافح بجلائل الاعمال ليتناول غداء استحقه كل الاستحقاق . وأما فكتور فكان يشتاق أن يرافقه حتى شقته ، ولكن البواب كان في تلك اللحظة بالوصيد وبادره بالتحية . وتريث فكتور ثانية قبل أن يزلق في يد البواب المدهوش كورونين ، وسأله عن اسم السيد السمين المشرق الذي يرتدي معطفاً فاتحاً . قال البواب

— ملك ! هذا هو السيد لوهنير .

لم يكن يعلم عنه أكثر من هذا . ودخل فكتور البناية ، فوجد على اللوحة المعلقة في المدخل تحمل أسماء المستأجرين بطاقة اجتذبت انتباهه .

الادار لوهنـــير

عضـــو المجلس البلـــدي

هذه المعلومات أثارت في فكتور الرخي ، فمضي يتغدى غداء التهمه مسرعا ليقضي ما بعد الظهر في بحث مضحر لجمع المعلومات الممكنة كافة عن آلادار لوهنير مساءً أكبَّ على دراسة المعطيات التي جمعها طوال ما بعد الظهر · لقد تبين فعلا أن لوهنير في الاربعين من العمر ، متـــزوج وأب لولدين ، وسبق له أن كـــان (متعهدا) · بعد أن أفلس مرات عدة أضحى يعيش على ما تدرّ عليه أملاكه · ثم انه كان عضوا في كازينو الحي ، ومن عادته أن يقضي في الكازينو فتـــرات بعد الظهر · ومنذ أن غدا مستشاراً قبل عامين هجر كل نشاط تجاري وكرس نفســه نهائيا للامور العامـة · وهو يتشكّي أحيانا من ان نشاطاته الخالصة لوجــه الله والمصلحة العامة لا تظفر بمن يقدرها حق قدرها ·

فكتـــور كان يتفحص هـــذه المعلومـــات على حين كـــان دماغه يعمل ، بكــل استطاعته ، لكي يعد ما استطاع من قـــوة ورباط الخيل ، حرب ضروســـا عوانا لا تبقي ولا تـــذر · المسالـــة كلهـــا ، طال عمرك ، في ضبط آلادار لوهنير متلبساً وهو أمر لا يتطرق اليه الشك · ولكن كيف السبيل الى ضبطــه متلبسا ؟ و تنتهي التفكير بفكتور الى اعداد خطة كاملة · وما إن أطل صباح اليوم التالي حتى زج نفسه في غمرة العمل · لقد وضعت غدوات آلادار لوهنير وروحاته تحت رقـــابة صارمة · لم يكن قادرا على أن يخطو خطوة واحدة الا وفكتور ملازم إياه كظله · كان يرافقه صباحا الى المقهى ومساء الى المسرح حيث يحجز مقعدا ملاصق لمقعده · ولكي لا يفارقه جعل يقوم بنزهات تمتد ساعات على أرصفة الدانوب ، وهو أمر يقر منه فكتور نفورا شديدا · في اليوم الرابع من هذه المطاردة المضنية سجل فكتور نتيجة ثمينة اذ اكتشف أن لوهنير ذاته يقوم بنشاط مماثل لهذا الذي يقوم به فكتور · ذلك أنه كان يتردد الى بناية تقع في أحد الاحياء الواقعة عـــلى تخوم المدينة ، وهدفه جمع المعلومات عن امرأة صبية تعيش في مسكن من غرفتين مـــع

أمها وإخوتها وأخواتها • وقد وفق فكتور الى معرفة أن هذه الفتاة معلمة بقسم عمل وأنها تدعى روز ويلر •

مهنا معطاة ثمينة ، لانها تظهر بوضوح أن السيد لوهير قد اختار روزا ويلر من بين عدد كبير من المرشحات ، لكي تكون خليلته المغرقة بجميله ! أجل كانت هذه معطاة ثمينة ، ولكن فكتور عانى لحظة همود واحباط في همته ، اذ كيف يستطيع ضبط لوهير في الجرم المشهود ، كيف السبيل الى مراقبة كل لحظة من لحظات حياته ، من الصباح حتى المساء ، في بيته وفي الفنادق التي اعتاد ارتيادها ؟ كيف أستطيع أن أصادر مراسلاته ؟ كيف أضع يدي على البطاقة التي ستحدد مكان اللقاء وزمانه ؟

كان فكتور على وشك أن يستسلم لاحدى الراحتين حينما أعاد اليه ثقته كشف جديد : لقد علم أن لدى السيد لوهير ، ما عدا الشقة التي يسكن هو وامرأته وأولاده ، مسكنا آخر • انه غارسونيرا (١) من غرفتين تقع في شارع صغير كان واضحا أنها مهيأة لستر مغامرات السيد لوهير الغرامية • هذا الاكتشاف لا بد أن يسهل مهمة فكتور كثيرا • لم يبق عليه الآن الا أن يؤمن مراقبة الغارسونيرا •

لم تلبث النتائج أن آتت أكلها • كان اليوم التالي تاريخيا • فقد وصل السيد لوهير قبيل الظهر مثقل الذراعين بكل أنواع الاطايب ، وأمر البواب أن يدفىء الشقة للساعة السادسة مساء • كان فكتور يرتجف فرحا لما بلغته هذه التدابير • اذن آن أوان الشد • كل شيء سيتم بعد الساعة السادسة مساء • كل المشقات التي تحملها منذ عدة أيام ، عمله تحريا ، العدو تحت المطر والتحويض في الوحل ، اتصاله بأناس يثيرون الاشمئزاز ، بكلمة كل هذه المطاردة اللاهثة ستجد مكافآتها هذا المساء •

كان فكتور يتحرق من نفاد صبر • عاد لا يطيق أن يتحمل أكثر مما تحمل ،

(١) البيت الذي يتخذه الرجل لمواعيده الغرامية حتى ولو كان متزوجا • أصل الكلمة من « غارسون » (المعرب) •

فاحتل مركزه للمراقبة مواجهاً للباب منذ الساعة الخامسة . وأمسى المساء مساء بداية لربيع تلك ، مبكراً ووجب على فكتور أن ينتظر كذلك ثلاث أرباع ساعة طويلة مجيء السيد لوهتير . وشرّف هذا آخر الامر . كان يرتدي معطفا فاتحا ، وعصاه في يده وزهرة في عروة سترته . كان يمشي في خفة ودخل البناية وابتسامة مطمئنة تملأ وجهه .

قال فكتور في نفسه : خذ حريتك يا صديقي القديم الان ، ولكن اعلم أني هنا أنا أيضا .

وذهب يرابط في مدخل البناية ذاتها وانتظر وهو أهدأمنه في أي وقت مضى . ونظر في ساعته .

وكلم نفسه قائلا : ستكون روزا ويلر على الموعد .

وراح فكتور يذرع الدرج جيئة وذهابا ، وهو يلقي نظرة الى ساعته بين حين وآخر . في الساعة السادسة تماماً دخلت البناية فتاة ربعة أميل الى السمن . كانت السرعة التي صعدت بها الدرج تنم عن هياجها .

وفكر فكتور : ها هي ذي .

وصعدت الفتاة الدرج لاهثة ، ولكن فكتور لم يلحق بها . انها الآن تصل الى الطابق الاول . ترن جرس الباب . السيد يدخلها . تنزع معطفها وتجلس حجل قرب المنضدة . يتكلمان . يتكلمان أيضا . يتكلمان دائما . وقرر فكتور أخيراً : حسبهما كلاماً .

وصعد الدرج ورن جرس الشقة مرتين . لا جواب . حينئذ ألصق سبابته بزر الجرس ونام عليه حتى أحس أن الرنين الذي لا يطاق قد أحدث أثراً سيئاً في الجانب الآخر من الباب ، وارتفع صوت غاضب :

ـ ما الامر ؟ ماذا تريدون ؟

وترك فكتور الزر ولكنه عاد الى كبسه عندما تبين ان الباب لا يفتح . واستمر الرنين . وفتح الباب بضعة سنتمترات . قال لوهتير من خلال الشق .

ـ ماذا تريد يا ... ؟

دفع فكتور الباب وانحرس لحظة أمام لوهير الذي كان يحتنق من غضب ، ثم انه عبر المدخل الغارق في الظلام وتوجه الى غرفة مضاءة في الداخل · وتبعه لوهير ممسوقا من دهشته ، وسأل قلقا ·

ماذا تريد ؟ من أنت ؟

ودفع فكتور باب الغرفة الموارب ودخل · لقد سمعت زورا ويلي كل ما دار في الدهليز · كانت شاحبة وأطلقت صرخة فزع ونهضت وثبا وأما لوهير فقد جمع شتات نفسه وصرخ بعصب شديد

ـ أخرج من هنا ·

واكتفى فكتور بأن رفع نظره اليه ، فصرخ لوهير مرة أخرى صرخة أقوى وان خرج صوته مرتعشا :

ـ ماذا تريد ؟ عم تبحث هنا ؟

وانغرس فكتور أمامه ، وأشار اليه النظر مرة أخرى ، وراح يسمعه الحصة التالية ·

ـ اذا كانت لديك مغامرات غرامية صغيرة فهذا شأنك · ما تعمله بسلطتك مستخدماً بلدية شأنك أيضا · وأما أن تدحش هكذا اعلانات صغيرة وأن تكون على هذا القدر من الخسة في الحب ، وأن تنشر خستك على رؤوس الاشهاد ··· فهذا شأني لأنني لا أحتمل أن أحيا في عالم تحدث فيه مثل هذه الامور بغير حياء أو خجل · لذلك جمعت معلومات عنك وراقبت كل تنقلاتك ، ولذلك سأعطيك الآن درساً لن تنساه ·

شحب لوهير · ولما انهى فكتور خطبته مد السيد يده وشهر مسدسا ، ولكن فكتور أسرع فأمسك يده ولواها وخلصه المسدس · ثم ان يديه كلتيهما دخلتا المعركة · اليسرى أهوت كالقدر على معدته ، في حين ان اليمنى صفعته صفعة هائلة على خده المكوّر اللاحم ·

وندت عن الرجل صرخة ألم وفقد توازنه وترنح بضع ثوان ثم طأطأ رأسه وحمى عينيه بيديه وهرول خارج الغرفة · وأتبعه فكتور نظره وسمعه يجتاز المدخل ويصفق باب الشقة وراءه ، فأحس براحة كبرى وطفح قلبه بفرح عذب ·

وسمع حركة خلف ظهره • التفت فرأى أمامه السمراء الناصحة التي دخلت البناية قبل ربع ساعة مغفورة العينين ، محمرة الخدين ، منتصبة الجذع • وحنى فكتور رأسه قليلا وفي وكده أن يتكلم ، ولكـن الفتاة سبقته وعيناها تقـدحان شررا سائلة بلهجة باترة :

ـ لعلك أنت الذي ستؤمن لي وظيفة الآن ؟

والله يا آنسة أنا ، مع الاسف ، لست عنتخب بلدنا يسيء استعمال سلطته •

ـ اذن مم تبحث هنا ؟

ـ المسألة يا آنسة أنه ••• لان ••• هذا السيد يريـد أن يحصل بثمـن بخس على ••• أعني أنك ستدفعين ، ما عساي أن أقول ، ستدفعين غاليا ما •••

وأبدت الفتاة ايماءة ، وقالت بصوت أجش :

ـ اذن من أجل هذا ؟

ـ اي نعم ، من أجل هذا •

واختلط وجه الفتاة ، وأخذت تصرخ صراخا اجتمع فيه اليأس بالغضب

ـ ولكن ما عسى هذا ان يصنع لك ؟ لم يبق لي الآن الا أن أنصرف ، أن أعود الى البيت ، الى أكل الخبز اليابس مع أمي في حين أني كدت أحصل عـلى وظيفة وأشرعت يديها الاثنتين كأنها تود أن تنشب مخالبها ، وصرخت في وجه فكتور بصوت يخنقه النشيج :

ـ ها هو ذا متعاخ مقيت يأتي فيرمي كل شيء في الهواء • قذر • ليأخذك الشيطان •••

و صفر وجه فكتـور ، ورفع يـده كما لو كـان يريد وقف سيل الشتائـم والاعتذار • ولكن الفتاة استمرت في شتمه بكل ما يهبه اليأس من قوة • كانت مخالبهـا تقترب من وجه فكتـور الـذي ، بعـد أن قـام بعدة محـاولات لاسكاتها ما لبثت أن أجهضت ، فضل الانسحاب والفوز بالهـرب • ولما ظهر أن الفتاة لا تنوي أن تظل في حيز السباب وحدها أخذ يركض • اجتاز الشقة• وصفق بابها خلفه وركض مروّعا حتى الشارع حيث اختفى في عتمة المساء •

* * *

قصة من سنغافورة

أمومة

بـ حاجات تنام
ترجمة : هاشم حمادي

كانت مياه النهر الصفراء البطيئة ، كالذهب المصقول في ضوء الغروب ، الذي يولي • وكانت فاطمة تتقدم ، وهي تتشبث بيديها بالضفة المنحدرة ، الى أن وصلت الجرف ، حيث أصبح نصف جسمها السفلي في الماء • كانت ثيابها المبللة تلتصق بقامتها الدحداحة السمراء ، فتبرز صدرها الناهد ، الذي أشرف نضوجه على الغاية • وفي عينيها الحلاوين ــ السوداوين ، في وجهها المستدير يكمن الحزن والأسى ــ كان يبدو أن المرأة تحدق بتركيز في ذاتها ، محاولة العثور على شيء ما ، تراه هي وحدها فقط •

وبحركة حادة من رأسها ، تداعى شعرها الاسود الرائع على كتفيها ، وراحت الرياح تداعبه بحنان • ومن القرية ، التي تختفي وراء النباتات المتسلقة ، والاشجار ، التي تطوق منعطف النهر ، لم يكن يصل أي صوت • وأمام عينيها كانت الخضرة ترتفع كجدار لا ثغرة فيه ، حيث الاعشاب المتسلقة ، والاشجار العالية ، وعريدة الأغصان الساحرة • ولم يكن يعكر صفو الهدوء المسائي للكون ، سوى صوت طير مائي وحيد ، أو تصفيق جناحين يثير الرعب • ومن وقت لآخر ، وبحركة رقيقة ، كانت الفئران المائية تسبح في الماء ، وتتحرك الحيوانات الصغيرة عبر الاعشاب الطويلة ، فتسمع خشخشة ، لا يلبث الصمت أن يبتلعها •

كان الهواء مشبعاً برائحة الازهارالبرية القوية،وبرائحة الطمي والاعشاب- وقد سيطرت مشاعر الوحدة ، و لضيع على فاطمة ، وكأنها قد انتقلت ، وعلى حين غرة إلى الازمنة الغابرة ، الى بداية ظهور العالم ، عندما كانت الارض بمثابة مستنقع ٠

وفجأة وصل الى سمعها زئير وحش مخيف ، مما زاد من هذا الشعور ، ومن جديد عاد الزئير يصافح أذنيها ، ولكن بصوت قوي ورهيب ، وأدركت فاطمة أن ما تسمعه ليس وليد أوهامها بل هو صوت وحش مخيف وحقيقي ٠

وعلى بعد حوالي عشرين ياردة منها ، وبين عيدان النباتات المتسلقة ، كان يبرز رأس الحيوان ٠ وكانت عيناه الصفراوان الثابتتان ، تلمعان بحقد ، تحت ضوء الشمس الغاربة ، وكانت أذناه منتصبتين ٠ حرك النمر رأسه ، ثم زأر من جديد ، كاشفا عن لسان أحمر ، وعن أنياب صفراء ٠

وتخشبت فاطمة من هول الرعب ، فهذه النظرة المخيفة أصابتها بالشلل ، والسكون ، الذي حل بغتة ، أفقدها ارادتها وتفكيرها ٠ فلم تكن قادرة على الاتيان بأي حركة ، ولم تكن تستطيع أن تنزع عينيها عن الوحش الحذر ، وهو نفسه لم يتحرك ، لكأن هذا اللقاء المفاجيء مع الانسان ، قد سمره في مكانه ٠

ودون انقطاع كانت فاطمة والنمر يتبادلان التحديق ٠ هي — بخوف ، وهو — بحذر ٠ ومن فترة الى أخرى كان النمر يصدر زئيرا تتناقص درجة الحقد فيه بالتدريج ، ولكنه لم يظهر اية نية في مهاجمة المرأة ٠ على العكس ، فبعد فترة قصيرة ، فقد أي اهتمام بها ٠ كانت قائمتاه الاماميتان تجثمان على العشب ٠ وظلت المرأة لا تأتي بأدنى حركة ، وكان يبدو أن الوحش لا يهتم بأي شيء ٠ فقد أصبحت عيناه تلمعان بكآبة ، وراح ينظر اليها بملل كسول ، وللحال شعرت فاطمة بهذا التحول المفاجيء ، الذي طرأ على الوحش ٠

وفي هذا الوقت كان الظلام يزحف من على الهضاب ، فيضع حداً لالوان الغروب الزاهية ومن شتى الانحاء بدأت الظلال الرمادية تسعى حثيثة ، وتتكاثف، بشكل غير ملحوظ ، لتتحول الى السواد وفوق النهر يرتفع الضباب ويمتد نحو

الضفة • وجموت سقسقة (زيزان) الحصاد ، ونعيق البوم ، دليلاً على أن الليل قد أرخى سدوله •

والآن ، وبعد أن فقد الخوف حدته ، شعرت فاطمة بالاعياء ، فقد بدأت ترتجف من البرد ، والنمس ، على ما يبدو ، لم يكن يزمع الذهاب ، وكادت أن تفقد كل أمل • وفجأة وضعت يديها على بطنها ، واذ تذكرت أنها تحمل في داخلها حياة أخرى ، امتلأت بالتصميم ، الذي يستهين بكل شيء . الهرب مهما كلف الامر - وفي ظلام الغسق ، الذي لم يكتمل بعـــد ، كان بالامكان تمييز جسم الوحش بوضوح قليل • كانت المرأة تحدق اليه ، دون انقطاع : كانت تنتظر اللحظـة ، التي يحول فيها عينيه عنها ، وهي على يقين من انها ستشعر بذلك حالاً •

كانت لا تزال تقف في الماء ، كان جسمهـا متوتراً ••• وفجأة ، وبجـرأة القنوط ، غطست في الماء ، وسبحت تحت سطحه ، ويداها تلامسان قعر النهر • كانت فاطمة تتقدم ببطء نحو الشاطىء الآخر ، الى هناك . حيث تقوم القرية ، ولم تكن ترفع رأسها فوق الماء ، الا عندما كانت تشعر أن رئتيها ستنفجران ، ان لم تأخذ كمية جديدة من الهواء • وفي منتصف النهر شعرت فاطمة بوحدتها ، بشكل حاد ، وفجأة دوّى صوت الوحش ، فشعرت بالذعر يلف كل خلية في جسمها•

وبسرعة محمومة سبحت حتى الضفة الاخرى ، وأخيراً رأت الانوار المتقدة • انها أنوار المصابيح الزيتية في القرية •

وللحال أشاعت والدة فاطمة ، ما حدث لابنتها ، في كل أنحاء القرية ، مبالغة في الوصف • وعمت القرية موجة من الذعر • واسترسلت النسوة في القَوق(١)، كالدجاجات ، اذ ترى نسرا يحلق في الجو • وبدأن ينادين اطفالهن ، ويتمسكن بهم • وبعد أن أغلقن الابواب في القرية للاكواخ ، بدأن يتوسلن الى الرجال أن ينقذوا القرية من شر الوحش ـ آكل لحوم البشر • ؛كان الرجال يتراكضون عبر أزقة القرية ، يجمعون القطيع • أما الشيوخ فكانوا يطالبون بأن توضح لهم جلية الامر •

(١) صوت الدجاجة

وأخيرا وعندما كانت فاطمة المنهكة ترقد على حصيرة القش • سمعت في خارج الكوخ جلبة وضوضاء ، ودخل الكوخ بعض رجال القرية ، كانوا يريدون أن يعرفوا أين رأت النمر بالتحديد • وراحت أم فاطمة ، وبصوت عال ، ترسم لهم لقاء ابنتها بـ « الأوبر » ، ولكن عمدة القرية قاطعها بشارة من فقد صبره ، وبدأ يسأل فاطمة • كانت فاطمة تجيب عن أسئلته باقتضاب ، وبدون رغبة - وقد كانت ، على عكس الحيوان الخائف ، لا تريد ، لسبب ما ، أن يقتفوا آثار النمر ويقتلوه ، وقد دهش عمدة القرية ، لأنها كانت ترد على أسئلته دون رغبة، واكفهر وجهه •

ويظهر أن أم فاطمة كانت تريد أن تستقطب الاهتمام من جديد فقــالت :

ــ الحمد لله ، ان الله برحمته هو الذي أنقذ ابنتي من براثن الأوبر •

ثم رفعت يديها ، الضعيفتين ، السمراوين ، نحو الأعلى ، علامة الشكر والعرفـــان ••

واكتفى العمدة بأن هز كتفيه ، ثم تمتم يقول .

ــ لنفرض ذلك ، ولكن الله قد لا يرحم في مرة أخرى • واذا بــدأ النمر ، الذي أسكرته رائحة الانسان ، يتسكع قرب القرية ، فان الامر لا ينتهي عــلى خير • ولكي تستطيع القرية أن تعيش بهدوء ، ولكي لا يكون نساؤنا وأطفالنا مهددين بالخطر ، يجب مطاردة الوحش الآن ، والقضاء عليه •

وطاف بناظريه على وجوه الرجــال المضطربين والصامتين • كلهــم كانوا يعرفون أن مطاردة النمر في الليل أمر خطير جدا • فالساحات الكثيفة يمكن أن تحجبه عن مطارديه ، وتجعلــه يستطيع الانقضاض من هنــاك بشكل مفاجيء ، وبدون أية ضجة •

ويدوي صوت العمدة قائلا

ــ اذن ما العمل ؟

وظل حبل الصمت سليما • وبدأ وجه العمدة يتغير • وكان يبدو أنه لن

يبث أن يصب عليهم جام غضبه ، متهماً اياهم بالجبن ، ولكن ، وفي هذه اللحظة ، دخل الكوخ الشاب محمود . كان وجهه الفتي يضج بالحيوية و سرور ، وعلى كتفه كانت ترقد بندقيته ، ذات (السطانة) المزدوجة .

وسأل محمود بصوت متحمس .

ـ هل صحيح أن النمر أغار على فاطمتنا ؟

وبينما كان العمدة يشرح له ، بكلمات مختصرة ودقيقة ، كيف حدث ذلك ، راح محمود يربت بصبر ذاهب ، على (سبطانة) ابندقية . كان واضحاً أن الشاب متعلق بالصيد ، وأنه على استعداد لان ينطلق لمطاردة الوحش . وكان مما يزيد في حماسته وحماسته أن الوحش على هذه الدرجة من الخطورة .

وعندما انتهى العمدة من كلامه ، قال محمود :

ـ بالحق نطقت . ان علينا أن نسهر على النسوة والاطفال . ان هؤلاء المساكين لن يجرؤوا على أن يظهروا في الشارع بعد الآن ، الى أن يُقضى على الوحش . اننا نحن الرجال ، ملزمون بحمايتهم . والآن من يذهب معي ، لنضع حداً لهذه المشكلة ؟ لن أكون ابن أمي ، ان لم أحضر جثته الى هنا قبل انفجر . شرط أن تمدوا لي يد المساعدة .

وبعد فترة تفكير قصيرة تطوع عشرة رجال لمرافقة محمود ، الذي بثت كلماته انجرأة لديهم ؛ فالكل كانوا يعرفون مهارته في التسديد .

وخرج الرجال من الكوخ .

واقتربت أم فاطمة من ابنتها وهي تقول :

ـ اطمئني يا ابنتي، ان هذا الشاب ، محمود ، قادر على القضاء على أي نمر .

وهنا نهضت فاطمة من على الحصيرة ، وأرسلت عينيها عبر النافذة الصغيرة . كان كل شيء ، تنفذ اليه أشعة القمر مغطى بالضوء الكثيف ، وكان القمر ، كقطع الفضة المصهورة ، يطل من خلال أوراق جوز الهند . وكان الرجال يتحدثون بصوت منخفض ، وهم يستعدون لبدء المطاردة . وراحت فاطمة تنظر اليهم باكتئاب .

وها هم قد اختفوا ، ولم تعد ترى الآن سوى جذوع الاشجار ، التي تبدو رمادية تحت ضوء القمر ، ولا تسمع سوى الهمس العنيد للريح • وحين أصاخت السمع في هذا الصمت ، وصل الى أذنيها صوت مجرى النهر ، البعيد •

وفكرت ــ هناك ، في مكان ما ، يتسكع النمر • انه لم يغدر رأسها طوال فترة المساء • كم يكون جيدا لو أنه تمكن من النجاة بجلده ؛ بعيدا ، بعيدا ، الى حيث لا يستطيع الناس العثور عليه •

ــ يا الله يا صاحب القوة ــ قالت العجوز ، وهي تنقي في الاناء الخشبي بعض بذار النخيل ان هذا الليل يحمل في طياته الموت لاحد ما • تصوري أن رجالنا يشقون طريقهم الآن عبر النباتات البرية يطاردون مثل هذا الوحش المخيف • انه ماكر مثل مئة ثعلب ، ويرى في الظلام بشكل جيد ، البعيد والقريب • انتظري، سيكون بكاء في هذا الليل ، حتى قبل أن يحل الفجر •

ــ لو تركوه وشأنه • أجابت فاطمة ، وهي لا تزال تحدق عبر النافذة الصغيرة •

ــ ان المجنون وحده يمكن أن يقول مثل ذلك ، قالت العجوز بغضب ، يجب أن يقتل أحدهم الوحش ، قبل أن يلتهمنا كلنا •

ــ ولكنه قد يذهب من هنا ، من تلقاء نفسه •

ــ أبداً ، اذا كان النمر يطوف حول القرية ، فانه لن يذهب ، قبل أن ينال ما يريد • ان تلك الوحوش ، التي لا تخشى الاقتراب من القرى ، هي من آكلة لحوم البشر •

ــ ولكن هذا ليس منها ، انه لا يشبه ذلك • فقد كان على بعد حوالي عشرين ياردة مني ومع ذلك ، فلم يهاجمني ، لماذا ؟ هل تستطيعين أن تجيبي عن ذلك يا أماه ؟ صحيح إنه لم يرفع عينيه عني ، ولكنني أنا أيضاً بقيت أحدق اليه • في البداية كانت عيناه تشتعلان ، ولم يلبث أن خفف من حدة نظراته الي• ، والتي بدت لي ، وكأنها مشوبة بالضجر والملل ، لقد كانت خالية من أي حقد ، ومن أي تعطش للدماء •

ـ يا للأرام العبية ، أنت مثل أبيك المرحوم . فقد كان يؤكد ، باستمرار ، أن الريح تغني لـه الاغاني . ليسامحني الله لانني أتحـدث بالسوء عن الموتى ، ولكنه كان يبدو ، في بعض الاحيان ، انساناً غبياً .

كانت فاطمة قد أخرجت رأسها من النافذة الصغيرة ، وهي تحدق ، وتصغي الى الليل بكآبة . كان السكون يخيم على القرية ، وكأنه قد لفها برداء الدفن . كانت فاطمة تصغي ، وهي تفرك يديها المكتنزتين ، تأمل في أن تسمع ولو صوتاً واحداً ، لكي تخمن ماذا يحدث الآن هناك ، في الغابة ... ولكن كـل شيء كان ساكنا ، عدا قلبها فقد كان يدق ـ توك ، توك ... وفجأة شعرت فاطمة بألـم رهيب . فمدت يديها الى بطنها البارز .

ـ ماذا حدث لك يا ابنتي ؟ سألت الام ، وهي تنظر الى ابنتهـا بخوف .
ـ لا شيء ، تمتمت فاطمة من بين أسنانها .

ولم تبتعد عن النافذة . كان الالم يقوى ويضعف ، وحين أغمضت عينيها ، شاهدته ، انه النمر . هاهو يربض على الارض ، وينظر نحوها من خـلال جذور النباتات ، وعيناه صفراوان حارتان تارة ، كسولتان تشعران بالملل تارة أخرى .

وفي البعيد دوّى طلـق ناري وأعقبه آخر . وانتفضت فاطمـة ، كما لو ان النار أطلقت عليها هي ، وسمع زئير النمر ، ولم يكن ذلك زئيراً كسولاً ، كمـا كان هناك ، عند النهر ، بل زئير الالم والهياج . وطوال عدة لحظات ظل هـذا النحيب الثقيل ، نحيب عذاب ما قبل المـوت ، ظل يملأ أذنيها ، ويمزق قلبهـا . وفجأة شعرت برغبة ملحة في أن تجيب عنه بنحيب طويـل . وتغير شكل وجههـا من الالم ، ومن بين أسنانها انفجر الانين .

ـ يا الله ، يا قادراً على كل شيء ، يا الله ، يا قادراً عـلى كل شيء ،
ـ انني أتألم يا أماه .

وبكل حذر قادتها والدتها الى الحصيرة ، وأرقدتها .
ـ أخ ، أخ ، أخ ، لقد أحسنت اختيار الوقت . ارقدي ، سأعطيك قليـلا

من الماء الساخن لتشربيه ، يجب أن أنتظر عودة الرجال ، وعندئذ سأمرح الى لقابلة يا لهذا الليل المشؤوم ·

وبينما كانت العجوز تعد الماء الساخن وهي تتأوه ، كانت فاطمة ترقد وقد أغمضت عينيها ·

ــ ان الرجال عائدون ، انني أسمعهم ، قالت العجوز بمرح ·

وامتلأ فراغ الليل ، وبشكل مفاجيء ، بأصوات الرجال والنساء ·

فتحت العجوز الباب ، ونادت أحدا ما ·

وتناهت الى سمع فاطمة كلماته :

ــ عاش محمود ، لقد قتل النمر كم هو هائل هذا الوحش لقد أصابه مرتين ، ومع ذلك فقد اضطر لاستخدام الرمح ، ولكن هل تعرفين يا جدتي ، ماذ حدث بعد ذلك ؟

كانت فاطمة تصغي ، وقد أمسكت عن التنفس ·

ــ بعد أن قتلوا النمر ، سمعوا حركة ما ، وما ان أضاءوا المكان ، مصدر الحركة ، حتى رأوا ثلاثة نمور صغار ، صغار جدا ، بحيث كانت أعينهم لا تزال مغمضة · لقد قال محمود إن عمرهم لا يزيد على الساعتين · والآن أصبح من الواضح لِمَ كانت النمرة تدافع عن نفسها كالمجنونة يقول محمود انه سيبيع النمور الثلاثة بمبلغ جيد ·

وأنَّت فاطمة من الألم ، وعلى جبينها ولدت حبات العرق الصفراء · وراحت تصرخ :

ــ ماما !

□ ■ □

قصتان

❀ زيارة بدافع الصدقة
❀ موت بائع متجول

بقلم : يودورا ولتي
ترجمة : د. سمير صلاحي الأحمدي

ولدت الكاتبة الامريكية يودورا ولتي عام ١٩٠٩ ونشرت مجموعتها القصصية الاولى – التي احتوت القصتين المنشورتين هنا – عام ١٩٤١ .

ونشرت بعد ذلك مجموعات أخرى أعطتها مكانة عالية بين كتاب وكاتبات القصة الاخيرة ، ثم في عام ١٩٥٦ ظهرت رواية لها اكسبتها سمعة حسنة كروائية ذات اذن مرهفة للهجات المحلية وعين حساسة للمآسي البسيطة التي يعانيها الناس العاديون .

وانه لمن المؤسف ان ترجمة اللهجات المحلية أمر عسير التحقيق فاللهجة التي يتحدث بها الزوجان في قصة « موت بائع متجول » تضفي جمالا خاصا عليها يغيب في هذه الترجمة .

زيـارة بدافع الصدقـة (*)

كان الوقت منتصف الصباح في يـوم مشرق شديـد البرودة . قفزت فتاة في الرابعة عشرة تحمل نبتة في أصيص من الباص أمام « بيت العجائز » ، على تخوم البلدة . كانت ترتدي معطفاً أحمر ، وشعرها الأصفر المسترسل يتدلى سائباً من القبعة

(*) A Visit of Charity
A Curtain of Green by Eudora Welty

البيضاء المدببة التي كانت جميع الفتيات الصغيرات يرتدين مثلها في ذلك العام • توقفت لحظة الى جانب شجيرة من الشجيرات القائمة الشوكية التي جمّلت ادارة المدينة الملجأ بها ، ثم مضت ببطء نحو المبنى ، الذي بني من الآجر المكلس الأبيض وكان يعكس نور الشمس الشتائية ككتلة من الجليد • أثناء صعودها المشوش على الدرجات نقلت الاصيص من يد الى أخرى ، ثم اضطرت أن تضعها من يدها وأن تنزع قفازيها كي تستطيع فتح الباب الثقيل •

« إنني من فتيات الكشاف •••• وعليّ أن أقوم بزيارة لاحدى السيدات العجائز » ، قالت للممرضة الجالسة وراء المكتب • وكانت هذه إمرأة في زي أبيض بدت وكأنها تشعر بالبرد ، ذات شعر شديد القصر انتصب فوق أعلى قمة رأسها تماما مثل موجة بحرية • لم تقل ماريان ــ الفتاة الصغيرة ــ لها أن هذه الزيارة ستكسبها ثلاث نقاط فقط على الاقل في مجموع علاماتها •

« هل تعرفين أية من المقيمات لدينا ؟ » سألت الممرضة ، وهي ترفع أحد حاجبيها وتتكلم كرجل •

« أية من السيدات العجائز ؟ كلا ــ ولكن ــ أعني ستكون أية واحدة منهن مناسبة » ، قالت مارين وهي تتلعثم • وبيدها الطليقة دفعت شعرها خلف أذنيها، كما كانت عادتها حين يحين وقت دراسة العلوم •

هزت الممرضة كتفيها بقدر من اللامبالاة ونهضت• وعلقت وهي تسبق الفتاة عبر ممر من الابواب المغلقة لانتقاء احدى العجائز قائلة : « أرى أنك تحملين نبتة رماد متعددة الالوان جميلة • »

كانت الأرض مغطاة بمشمع رخو • شعرت ماريان كما لو أنها تسير فوق الامواج ، ولكن الممرضة لم تعره اهتماما • وكانت هناك رائحة في الممر تشبه رائحة ساخنة من الداخل • ران الصمت على كل شيء الى أن تنحنحت واحدة من العجائز ، خلف أحد الابواب ، كشاة تثغو • وهذا ما جعل الممرضة تتخذ قرارها • فبعد أن توقفت عن سيرها ، مدت أولا ذراعيها ولوت مرفقها وانحنت الى الامام من الردفين

ــ كل ذلك لتتمحص الساعة المشدودة الى رسغها ، ثم صرقت الباب طرقة عالية مزدوجـــة ٠

علقت الممرضة وهي تتكلم من فوق كتفها : « هناك اثنتن في كل غرفة ٠ »

« اثنتان ماذا ؟ » سألت ماريان دون تفكير ٠ كاد الصوت الشبيه بالثغاء أن يجعلها تستدير وتجري عائدة على أعقابها ٠

كانت سيدة عجوز تشد الباب لتفتحه في هرات قصيرة تدريجية ، وحين رأت الممرضة طفت على وجهها ابتسامة غريبة جعلته مائلا على نحو ينذر بالخطر ٠ ثم رأت ماريان ، وقد دفعها فجأة ذراع الممرضة القوي النافد الصبر ، جانب وجـه عجوز أخرى ، أكبر سنا ، مستلقية على ظهرها في السرير وهي ترتـدي قلنسوة وتتدثر بلحاف حتى ذقنها ٠

قالت الممرضة ، « زائرة » وبعد دفعة عنيفة أخرى مضت في طريقها عبر الممر٠

وقفت ماريان وقد انعقد لسانها ، وكلتا يديها تمسك بأصيص النبات ٠ وكانت العجوز تنتظر ، و لابتسامة العريضة الرهيبة (التي هي ابتسامة ترحيب) لا زالت مطبوعة على وجهها البارز العظام ٠٠٠ ربما قالت شيئاً ما ٠ أما العجوز المستلقية على السرير فلم تقل شيئا على الاطلاق ولم تلتفت ٠

فجأة رأت ماريان يداً ، سريعة كمخالب الطيور ، تمتد عبر الهواء وتنتزع القبعة البيضاء عن رأسها ٠ وفي نفس الوقت ، سحبها مخلب آخر مماثل الى داخل الغرفة ، وفي اللحظة التالية أغلق الباب وراءها ٠

« الله ، الله ، الله ، » قالت العجوز الواقفة الى جانبها ٠

وقفت ماريان وقد أحاط بها سرير ومغسلة وكرسي ، فالغرفة البالغة الصغر كانت تحتوي على قدر زائد من الاثاث ٠ وفاحت رائحة الملل من كل شيء ــ حتى من الارض العارية ٠ تمسكت الفتاة بمسند الكرسي ، الذي كان من قش السلال وشعرت بنعومة ورطوبة ٠ أخذ قلبها يتباطأ في خفقانه ، وأخـذت يداها تزدادان

برودة ، ولم تستطع أن تسمع ما اذا كانت العجوز تتكلم أم لا · لم تستطع أن تراهما بوضوح كبير · ما كان أعتم الغرفة ! كان ستار النافذة مسدلا والباب الوحيد مغلقاً · نظرت ماريان الى السقف ··· كان الوضع أشبه بشخص حبيس في كهف قاطع طريق قبيل أن يتم قتله ·

قالت قاطعة الطريق الاولى · « هل أتيت لتكوني فتاتنا الصغيرة لساعة من الزمن ؟ »

ثم انتزع شيء من يد ماريان ــ أصيص النبات الصغير ·

صاحت العجوز : « أزهار ! » وقفت ممسكة بالاصيص بطريقة تنبيء بالحيرة· أضافت : « أزهار جميلة · »

متدها تنحنحت العجوز المستلقية في السرير وتكلمت · « ليست جميلة ، » قالت دون أن تلتفت ولكن بوضوح شديد ·

فجأة ارتمت ماريان على الكرسي وجلست ·

صاحت العجوز الاولى باصرار « أزهار جميلة · جميلة ــ جميلة ···· »

تمنت ماريان لو تسترجع الاصيص للحظة فقط ، فقد نسيت أن تلقي نظرة على النبتة قبل تقديمها · كيف كانت تبدو ؟

قالت العجوز الاخرى بحدة « حشائش عفنة » كانت ذات جبهة مفلحــة وعينين حمراوين كأعين الخراف · وقد التفتت بهما الآن نحو ماريان · ويبدو أن حنجرتها بدأت تتزكم من جديد ، إذ أنها قالت تتمو : « من ــ أنت ؟ »

أدهش ماريان أنها لم تستطع تذكر اسمها · أخيرا قالت : « انني من فتيات الكشاف · » قالت العجوز وكأنها شاة دون أن توجه كلامها لشخص معين : « حذار من البراغيث · »

وقالت العجوز الاولى : « لقد أتت واحدة لرؤيتنا في الشهر الماضي · »

شاة أم جرثومة ؟ تساءلت ماريان في نفسها وكأنها في حلم ، ويدها تشد على الكرسي ·

صاحت العجوز الاخرى : « لم تأت ! »

صرخت الاولى ، « بل أنت ! قرأت لنا من الكتاب المقدس ، واستمتعنا بذلك ! »

« من استمتع بذلك ! » قالت العجوز المستلقية في السرير ، وقد فغر فمها بصورة غير متوقعة • صغيرا يبدو عليه البؤس كفم حيوان مدلل •

قالت الأخرى باصرار « نحن استمتعنا بذلك • أنت استمتعت بذلك ــ أنا استمتعت بذلك » •

قالت ماريان « جميعنا استمتعنا بذلك » ، دون أن تلاحظ أنها تفوهت بأية كلمة •

كانت العجوز الاولى قد فرغت لتوها من وضع أصص النبات على سقف الخزانة الشديد العلو ، حيث كاد أن يختفي عن النظر اذا ماتطلع المرء من الاسفل• وتساءلت ماريان كيف أمكنها وضعه هناك ، كيف أمكنها الوصول الى مثل هذا العلو • -

« يجب الا تعيري آذي الهرمة أي اهتمام ، » قالت الآن مخاطبة الفتاة الصغيرة• « انها تشكو المرض اليوم • »

قالت المرأة المستلقية في السرير : « هلا خرست ، لست أشكو شيئا • »

« أنت في حالة يرثى لها • »

قالت ماريان فجأة « لا أستطيع البقاء أكثر من دقيقة ــ والله لا أستطيع• » ونظرت الى الأرض المبتلة وخطر لها أنها اذا شعرت بالدوار هنا أو تقيأت فستضطران الى اطلاق سراحها •

بكثير من التكلف جلست العجوز الاولى على كرسي هزاز ــ قطعة أخرى من الاثاث ! ــ وبدأت تحرك الكرسي وبأصابع احدى يديها لمست دبوسا شديد القذارة من حجر كريم منقوش على صدرها ، وسألت « ما الذي تقومين به في المدرسة ؟ »

قالت ماريان . « لست أدري• • • » حاولت أن تفكر ولكنها لم تستطع ذلك•

همست العجوز : آه ، ولكن الزهور جميلة • » بدا أن اهتزازها يتسارع أكثر فأكثر ، ولم تستطع ماريان أن تفهم كيف يمكن لاي شخص أن يتحرك بهذه السرعة •

« بشمة » ، قالت المرأة المستلقية على السرير .

بدأت ماريان تقول : « اذا جئنا بزهور ... » ثم صمتت . كادت أن تقول أنه اذا ما أحضرت فتيات الكشاف زهورا الى « بيت العجائز » ، فان نقطة أخرى تضاف الى نقاط الزيارة ، واذا أخذن كتاباً مقدساً معهن في الباص وقرأن منه للعجائز ، فان نقاط الزيارة تتضاعف . لكن العجوز لم تكن قد أصغت على أية حال ، فقد كانت تميل بالكرسي امام وراء وتتأمل العجوز الأخرى ، التي بادلتها التحديق من سريرها .

« أدي المسكينة مريضة . وقد اضطرت الى تناول دواء ... أتفهمين ؟ » قالت وهي تشير باصبع قرنية الى صف من الزجاجات على الطاولة ، وتهز مرتفعة الى عضو جعل حذاءها البيتي الاسود يرتفع عن الارض كحذاء طفل صغير .

قالت المرأة المستلقية على السرير ، « لست أكثر مرضا منك . »

« بل أنت مريضة حقا ! »

قالت العجوز الأخرى ، وهي تهز رأسها . « كل ما في الأمر أن لدي قدر أكبر من الفهم مما لديك . »

قالت العجوز الأولى بود مفاجيء « هذه ليست الا الطريقة المشاكسة التي تتحدث بها حين تأتين جميعكن . » أوقفت الكرسي الهزاز بضربة متقنة من قدميها وانحنت نحو ماريان . امتدت يدها نحو الفتاة ـ كان ملمسها كملمس ورقة « ابتونيا » ، يملق وفيه شيء من الدبق .

صاحت الأخرى : « هلا سكتت ! هلا سكتت ! »

انحنت ماريان الى الوراء متصلبة على كرسيها .

قالت العجوز بنفس الصوت المتودد المتوعد . « حين كنت بنتا صغيرة مثلك ، ذهبت الى المدرسة وكل شيء . ليس هنا ـ في بلدة أخرى ... »

« اسكتي ! » قالت المرأة المريضة · « لم تذهبي الى المدرسة قط · لم تأتي قط ولم تذهبي قط · لم تكوني في اي مكان قط ــ فقط هنا · انك لم تولدي قط ! أنت لا تعرفين شيئاً · رأسك فارغ ، قلبك ويداك وحقيبة يدك السوداء القديمة كلها فارغة ، وحتى الصندوق القديم الصيني الذي أحضرته معك ، جئت به فارغا ــ فقد أطلعتني عليه · ومع ذلك فانك تتكلمين وتتكلمين وتتكلمين وتتكلمين وتتكلمين طيلة الوقت حتى أخال انني أفقد عقلي · من أنت ؟ انت غريبة ــ غريبة كلياً ! ألا تعرفين أنك غريبة ؟ هل من الممكن أن يفعلوا شيئاً كهذا لأي انسان ــ أن يرسلوا لهم امرأةغريبةلتتكلموتنفثمراءها الطويل بأكمله؟ هل يعتقدون جدياً أنني أستطيع الاستمرار في تحمل ذلك يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة ، أسكن في نفس الغرفة مع عجوز رهيبة ــ الى الابد ؟ »

رأت ماريان عيني العجوز تكتسبان بريقا وتلتفتان اليها · كانت هذه العجوز تنظر اليها واليأس والتفكير يبدوان في وجهها · وفجأة تباعدت شفتاها الصغيرتان وكشفت عن نصف دائرة من الأسنان الاصطناعية ذات اللثة السمراء ·

همست : « تعالي هنا ، أريد أن أخبرك شيئاً · تعالي هنا ! »

كانت ماريان ترتجف ، وكاد قلبها أن يتوقف عن الخفقان كلياً للحظة من الزمن ·

قالت العجوز الاولى : « حسبك ، حسبك ، حسبك يا أدي · هذا ليس من اللياقة بشيء · أتدرين ما هي مشكلة ادي العجوز الحقيقية اليوم ؟ » نظرت هي أيضاً الى ماريان ، وانخفض أحد جفونها متدلياً ·

« مشكلتها ؟ » كررت الصغيرة بغباء · « ما هي مشكلتها ؟ »

« آه ، انها غاضبة لان اليوم عيد ميلادها ! » قالت العجوز الاولى وقد بدأت تهز كرسيها من جديد ، وصدرت عنها صيحة ظفر خافتة كما لو أنها نجحت في الاجابة على الأحجية التي طرحتها هي نفسها ·

صرخت العجوز المستلقية على السرير · « كلا إنه ليس عيد ميلادي ، ليس

عيد ميلادي ، فلا أحد يعرف تاريخه سواي • وأرجوك ، هلاّ هدأت ولم تقولي أي شيء آخر ، أو أنني سأفقد عقلي فور ، حين تسوء الامور الى حد بالغ ، فانني أقرع هذا الجرس فتأتي الممرضة • »

كانت احدى يديها ممدودة من تحت اللحاف المرقع ـ يد صغيرة نحيفة ذات نمش أسود ضخم • وبأصابع راعشة أشارت الى جرس صغير على الطاولة بين الزجاجات •

همست ماريان : « ما عمرك ؟ » كان الان باستطاعتها أن ترى العجوز المستلقية في السرير من قرب شديد وبوضوح كبير ، وبشكل مفاجيء جداً ، من جميع الجوانب ، كما يحدث في الاحلام • وكانت تتساءل ـ عن هذه العجوز ـ تساؤلت للحظة كما لو أنه لم يكن هناك في العالم شيء آخر تتساءل عنه •

وكانت هذه أول مرة يحدث فيها شيء من هذا القبيل لماريان •

« لن أخبرك ! »

وببطء استجمع الوجه الهرم نفسه على الوسادة ، حيث كانت ماريان تنحني فوقه ، ثم تداعى • صدرت أنات خافتة عن الفم الصغير المفتوح • وكان صوتها كصوت شاة ـ صوت حمل صغير • اقترب وجه ماريان اقتراباً شديداً ، وتدلى الشعر الاصفر الى الامام •

« انها تبكي ! » والتفتت بوجه مشرق متأجج نحو العجوز الاولى •

« هذه طبيعة آدي كما تشاهدينها ، » قالت العجوز بكيد •

قفزت ماريان وتحركت نحو الباب • للمرة الثانية كاد المحب أن يلمس شعرها ، ولكن سرعته لم تكن كافية • وارتدت الفتاة الصغيرة قبعتها •

قالت العجوز وهي تتبع ماريان عبر الباب وحتى الممر : « آه ، لقد كانت زيارة حقيقية • » ثم فجأة أنشبت أصابعها الصغيرة الحادة بالطفلة من الخلف •

«بنحيب مصطنع عالي الطبقة الصوتية صاحت آه ، أيتها الفتاة الصغيرة ، هل لديك « بنس » تستطيعين لاستغناء عنه من أجل عجوز مسكينة لا تملك شيئا خاصا بها ؟ بيس لدينا في هذه الدنيا أي شيء ـ ولا حتى بنس واحد نشتري به سكاكر ـ لا شيء ! أيها الفتاة الصغيرة ، فقط خمسة بنسات ! ـ بنس واحد ـ »

شدّت ماريان نفسها بعنف للحظة قبل أن تفلت من اليدين الهرمتين • ثم ركضت عبر الممر ، دون الالتفات الى الوراء ودون أن تنظر الى الممرضة ، التي كانت تقرأ مجلة « الحقل والجدول » وراء طاولتها • سألت الممرضة ، بعد حركة ثلاثية أخرى قامت بها لتتفحص الساعة في رسغها ، السؤال الذي يطرح بصورة آلية على الزوار في جميع الملاجيء والمشافي : « ألا تبقين لتناول العشاء معنا ؟ »

لم تجب ماريان على الاطلاق • فتحت الباب الثقيل بدفعة وخرجت الى الهواء البارد وركضت تنزل الدرجات •

توقفت تحت الشجيرة الشوكية وبسرعة ، دون أن يراها أحد ، استعادت تفاحة حمراء كانت قد أخفتها هناك •

شعرها الأصفر تحت قبعتها ، معطفها القرمزي ، ركبتاها العاريتان ـ جميع هذه الأشياء ومضت في نور الشمس أثناء جري الفتاة لاستقبال الباص الكبير المسرع عبر الشارع •

صاحت : « انتظرني ! » وكما لو أنه تلقى أمراً ملكياً ، توقف الباص محدثاً صريراً عالياً •

قفزت تركب الباص وقضمت قطعة كبيرة من التفاحة •

موت بائــع متجول (*)

ساق ر . ج . بومن ، الذي أمضى اربعة عشر عاماً يتجول من مكان لآخر في ولاية مسيسبي كممثل لشركة أحذية، سيارة الفورد على ممر ترابي كثير الحفر. كان اليوم طويلا ! وبدا الوقت وكأنه لا ينوي اجتياز حجر الظهر ليستمر في عصر بارد . مكثت الشمس ، التي تحتفظ بوهجها حتى أثناء الشتاء ، في أعلى السماء ، وكلما أخرج بومن رأسه من السيارة المغبرة ليحدق في الطريق أمامه بدت وكأنها تمد ذراعاً طويلة الى الأسفل وتدفع قمة رأسه ، محترقة القمة ــ مثل مزاح بائع هرم ، أمضى زمناً طويلاً في السفر جعله هذا يشعر بمقدار أكبر من العصب والعجز . كانت حرارته مرتفعة ، ولم يكن واثقاً تماماً من معرفتــه للطــريــق .

كان هذا يومه الاول الذي يعود فيه الى السفر بعد فترة طويلة من الانفلونزا انتابته خلالها حمى شديدة جداً وأحلام وأصبح ضعيفاً ، شاحبا ، يستطيع ادراك ذلك من النظرة الاولى الى وجهه في المرآة ، ولم يكن قادرا على التفكير بوضوح ... طيلة فترة ما بعد الظهر ، في سورة غضبه ، وبدون أي سبب ، أخذ يفكر بجدته الميتة . لقد كانت انسانة تحب الراحة . مرة أخرى تمنى بومن لو أنه يستلقي في السرير الكبير المحشو بالريش الذي كان في غرفة نومها ... ثم نسيها مرة أخرى .

يا لمنطقة التلال الخاوية هذه ! وبدا له أنه يمضي في الاتجاه الخاطىء ــ كما

(*) Death of a Traveling Salesman من نفس المجموعة المذكورة سابقا. ويجب ان نذكر هنا ان كلمة « بائع » ليست دقيقة كترجمة لكلمة Salesman ، والكلمة الانكليزية تعني هنا الشخص الذي يتنقل من منطقة الى أخرى لعرض بضائع شركة معينة والترويج لها بهدف تحريض الزبائن على طلب شحنات من هذه البضائع . كذلك تجدر الاشارة هنا الى الفارق بين عنوان هذه القصة وعنوان مسرحية آرثر ميلر الشهيرة Death of a Salesman المعروفة في العربية بنفس العنوان المستعمل في ترجمة هذه القصة . ومن الواضح ان عنوان هذه القصــة يحتوي كلمة Traveling (متجول) زيادة على عنوان مسرحية ميلر .

لو أنه يعــود الى الخلف ، الى الخلف البعيد • لــم يكن هناك أي بيت عـلى مدى البصر ••• ولكن لم تكن هناك أية فائدة في أن يتمنى لو أنه يعود الى سريره • فدفعه فاتورة طبيب لفندق برهن أنه قد استعاد صحته • بل أنه حتى لم يشعر بالاسف حين ودعته الممرضة المدربة الجميلة • فهو لا يحب المـرض ، ولا يثق به ، مثل عدم ثقته بالطريق الخالي من اللافتات • مثل هذا الطريق يجعله يشعر بالغضب • لقد أهدى الممرضة اسوارة باهظة حقاً ، لمجرد أنها كانت تحزم أمتعتها استعداداً للرحيل •

ولكن الآن ــ ماذا يعني كونه خلال أربعة عشر عاما من التجوال لم يمرض قط ولم يتعرض لأي حادث ؟ لقد تشوه سجله ، بل إنه بدأ يطرح علامــات الاستفهام حول هذا السجل ••• كان تدريجيا قد أخذ ينزل في فنادق أفضل ، في مدن أكبر ، ولكن ألم تكن جميعها ــ بصورة سرمدية ــ خانقة في الصيف باردة في الشتاء ؟ النساء ؟ لم يستطع أن يتذكر سوى غرف صغيرة داخل غرف صغيرة ، مثل عش من صناديق الورق الصينية ، واذا ما فكر بامرأة معينة تراءت له الوحدة المهترئة التي كان أثاث الغرفة يبدو مصنوعاً منها • وهو نفسه ــ كان رجلاً يرتدي دائما قبعات سود عريضة الحافة الى حد ما ، وفي مرايا الفنادق المتماوجة بدا شكله شبيها بشكل مصارع ثيران ، وذلك حــين يتوقف في تلك اللحظـة المحتومة على قمة الدرج أثناء نزوله في طريقه لتناول العشاء ••• مال برأسه خارج نافذة السيارة مرة أخرى ، ومرة أخرى أخذت الشمس تدفع رأسه •

كانت نية بومن أن يصل الى بيولا لدى حلول الظلام ، أن يأوي الى الفراش ويداوي انهاكه بالنوم • كانت بيولا حسبما يتذكر تبعد خمسين ميلا عن آخر بلدة مر بها على الطريق المتفوه بالحصى • لم يكن هذا سوى ممر للبقر • ما الذي جاء به الى مثل هذا المكان • مسحت إحدى يديه العرق عن وجهه ، وتابــع قيادة السيارة •

لقد قام بالسفر الى بيولا من قبل • لكنه لم ير قط هذه الهضبة أو هــذا الممر المتلاشي من قبل ــ أو تلك السحابة ، كما خطر في ذهنه باستيحاء ، وهــو

يطل الى الاعلى ثم الى الاسفل بسرعة ـ كما أنه لم يمر هذا اليوم من قبل • لم لا يعترف بأنه بكل بساطة ضائع وان ضيعه بدأ منذ عدة أميال ؟ ••• لم يكن من عادته أن يسأل الغرباء عن الطريق ، وعادة لم يكن هؤلاء يعرفون الى أين تؤدي نفس الطرق التي كانت بيوتهم عليها ؛ ولكن من جهة أخرى لم يقترب من أي شخص اقترابا كافيا لان يبديه سائلا • فالاشخاص الواقفون في الحقول بين الفينة والاخرى ، أو فوق أكوام التبن • كانوا بعيدين جدا ، بحيث بدوا كعصي او أعشاب محنية ، يلتفتون قليلا لدى سماع صوت سيارته الوحيد وهي تعبر ريفهم ويرقبون الغبار الشتائي الباهت الذي أثارته وهو يموج خلفها على الطريق • لقد تبعته نظرات هؤلاء الاشخاص البعيدين بثبات كجدار لا يمكن اختراقه ، وعادوا الى مكانهم وراءه بعد أن مر •

طفت السحابة الى أحد الجانبين مثل الوسادة على سرير جدته • مضت فوق كوخ على حافة الهضبة حيث تطاولت شجرتا أزادرخت نحو السماء• ساق السيارة فوق كوم من أوراق السنديان الميتة ، وعجلات سيارته تثير أطرافها المدببة الورق محدثة صفيرا كئيبا فضيا أثناء مرور السيارة فوق حوضها • لم تجتز هذا الطريق أية سيارة قبله • ثم رأى أنه فوق حافة هوة منحدرة ، وأن هذه كانت بالتأكيد نهاية الطريق •

شد المكبح • لكنه لم يستجب ، رغم انه شد عليه بكل ما فيه من قوة • مالت السيارة باتجاه الحافة وتدحرجت قليلا • لم يكن هناك شك في أنها ستهوي•

خرج بسرعة ، كما لو أن شيئا من الأذى قد وجه اليه وأن عليه أن يفكر بكرامته • أخرج حقيبة سفره وحقيبة العينات ، ووضعهما على الارض ، وتقهقر الى الوراء ليراقب السيارة وهي تتدحرج فوق الحافة • سمع شيئا ما ـ لم يكن صوت الاصطدام لدي انتظره ، وانما طقطقة بطيئة غير صاخبة • بشيء من القرف مضى ليشاهد ما حدث ، ورأى أن سيارته وقعت في تشابك من الدوالي الضخمة التي يعادل سمكها ثخن ذراعه ، وأن هذه الدوالي أمسكت السيارة

وحفظتها ، وهزهزتها مثل طفل غريب الشكل في مهـد مظلم ، ثم بينمـا كان يراقب ، أفلتتها بلطف لتهبط الى الارض ٠

تنهـد ٠

أين أنا ؟ تساءل مصدوماً لم لم أقم بعمل شيء ما ؟ بدا أن كل غضبه قد تسرب منه ٠ كان المنزل هناك ، خلفه على الهضبة ٠ أمسك حقيبة بكل من يديه وبتلقائية كادت أن تكون طفولية مضى نحو المنزل ٠ لكن تنفسه كان يتم بصعوبة، واضطر الى التوقف ليستريح ٠

كان بيتاً متقشفاً ـ غرفتان وممر مفتوح بينهما ـ قابعا فوق الهضبة ٠وقد مال الكوخ بأكمله قليلا تحت ضغط الدالية المتكومة الثقيلة التي تغطي السقف ، باهتة وخضراء ، كأنها منسية منذ الصيف ٠ كانت امرأة تقف في الممر ٠

توقف بلا حراك ٠ ثم بصورة مفاجئة تماماً أخذ قلبه يتصرف على نحو غريب ٠ مثل صاروخ أطلق ، أخذ يقفز ويتوسع في أنساق متفاوتة من الخفقان تدفقت الى دماغه ، ففقد قدرته على التفكير ٠ ولكن قلبه في توزعه وسقوطه لم يحدث أية ضجة ٠ وانما اندفع الى الاعلى بقوة كبيرة ، بتيه تقريبا ، وهوى برفق ، كالبهلوانات في سقوطهم فوق الشبكة ٠ بدأ يدق بعمق ، ثم توقف منتظرا بطيش، يضرب بنوع من الاستهزاء الداخلي على ضلوعه في البداية ، ثم على عينيه ثم تحت عظمتي كتفيـه ، وعـلى سقف حلقه حـين حاول أن يقول . « مساء الخـير يا سيدتي ٠ » لكنه لم يتمكن من سماع قلبه ـ كان ساكناً مثل الرماد وهـو يسقط ٠ وكان هذا مطمئناً بعض الشيء ؛ ومع ذلك فقد شعر بومن بصدمة لمجرد شعوره بخفقان قلبه ٠

أسقط حقيبته ، وهو واقف بلا حراك في تشوشه ، وبدت الحقيبتان وكأنهما تطفيان في كتلتين بطيئتين برشاقة عبر الهواء وتتوسدان العشب المتمدد قـرب درجـة البـاب ٠

أما بالنسبة للمرأة الواقفة هناك ، فقد رأى على الفور أنها عجوز ٠ ولمـا

لم يكن بامكانها بأية حال أن تسمع قلبه ، فقد تجاهل الخفقان ونظر اليها الآن بامعان ، ولكن في تشتت ذهنه كانت نظرته حالمة وفمه فاغرا ·

كانت تنظف المصباح ، وتمسك به ، نصفه مسود · ونصفه نظيف . أمامها · رآها والممر المعتم خلفها · كانت امرأة ضخمة ذات وجه أبلاه الطقس ولكنه غير متمس · وكانت شفتاها مطبقتين باحكام ، وعيناها تنظران ببريق باهت غريب الى عينيه · نظر الى حذائها ، الذي كان مثل حزمتين · لو أن الوقت صيفا لكانت حافية · · · قدر بومن ، الذي كان بصورة آلية يقدر عمر النساء من أول نظرة ، انها في الخمسين · كانت ترتدي رداءً عديم الشكل مصنوعا من مادة خشنة رمادية ، جف دون كي يبدو أن غسل ، وقد ظهر ذراعاها منه أحمرين ومستديرين على نحو غير متوقع · حين لم تنطق بأية كلمة ، وحافظت على وضعها الهادىء ممسكة المصباح ، تشكلت لديه قناعة بقوة جسمها ·

قال : « مساء الخير يا سيدتي · »

تابعت التحديق ، ولم يكن بامكانه معرفة ما اذا كانت تحدق به أو بالهواء المحيط به ، ولكن بعد لحظة خفضت بصرها دلالة على انها ستستمع الى أي شيء لديه يقوله ·

قام بمحاولة ثانية : « هل يا ترى يهمك الامر ـ حادثة ـ سيارتي · · · »

برز صوتها منخفضاً ونائياً ، مثل صوت يأتي عبر بحيرة · « سني ليس هنا · »

« سني ؟ »

« سني ليس هنا الآن · »

ابنها ـ شخص قادر على استرجاع سيارتي ، خمن بارتياح مشوش · أشار الى سفح الهضبة · « سيارتي في قعر الحفرة · سأحتاج الى مساعدة · »

« سني ليس هنا ، ولكنه سيأتي · »

أخذت تمسح له بشكل أفضل وصوتها يغدو أكثر قوة ، وأدرك بومن أنها صبية ·

لم يدهشه الناحيل المتريد والمشقة الذاب اتاما رحلته الا بقدر ضئيل · تنفس ، وسمع صوته يتكلم متجاوزا ضربات قلبه الصامتة · « لقد كنت مريضا ولم أستعد قوتي بعد ··· هل لي أن أدخل ؟ »

انحنى ووضع قبعته السوداء الكبيرة فوق قبضة حقيبته · كانت حركة متذللة ، تكاد تكون ركوعا ، بدت له في الحال انها مضحكة وتنم عن كل ضعفه · رفع بصره الى امرأة ، والريح تمسّ بشعره· كان من المحتمل أن يستمر وقتا طويلا في هذا الموقف غير المعتاد : انه لم يكن قط رجلا صبورا ، ولكنه حين مرض تعلم أن يعوض بخنوع بين الوسائد وأن ينتظر دواءه · وقف ينتظر المرأة ·

ثم قامت بالالتفات وهي تنظر اليه بعينين زرقاوين ، وفتحت الباب ، وبعد لحظة ، انتصب بومن ، كما لو كان مقتنعا بتصرفه ، وتبعها الى الداخل ·

في الداخل ، لمسه ظلام الغرفة كما لو كان يداً محترفة ، يد الطبيب · وضعت المرأة المصباح الذي نظف جزئياً على طاولة في منتصف الغرفة وأشارت، أيضا مثل شخص محترف ، مثل دليل ، الى كرسي ذي مقعد أصفر من جلد البقر · وقعدت هي الى جانب الموقد ، وقد رفعت ركبتيها تحت الثوب العديم الشكل ·

في البداية شعر بالامان على نحو متفائل · أصبح قلبه أكثر هدوءا · كانت الغرفة مطوقة داخل العتمة الناجمة عن ألواح الصنوبر الصفراء · واستطاع أن يرى الغرفة الاخرى عبر الممر ، حيث كانت رجل سرير حديدي ظاهرة · وكان السرير مغطى بلحاف من رقع قماش حمراء وصفراء بدت وكأنها خريطة أو صورة ، تشبه بعض الشيء الصورة التي رسمتها جدته في صباها لروما وهي تحترق ·

كان قد شعر بحاجة ملحة الى شيء من الرطوبة ، لكن الجو في هذه الغرفة

كان باردا • حدق بالموقد الذي احتوى فحما باردا وطاجن عند الزو يا • كانت المدفأة والمدخنة المسودّة مبنيتين من الحجر الذي رآه في التلال ، معظمه من الاردواز • وتساءل لِمَ لم تكن النار مشتعلة •

وكان هناك هدوء شديد • بدا صمت الحقول أنه دخل المنزل واخذ يتجول في داخله بحرية • شعر بومن أنه معرض لخطر غامض ساكن بارد • ما الذي كان من الضروري أن يعمله ؟ ... أن يتكلم •

قال : « لدي مجموعة جديدة من الاحذية النسائية الرخيصة الثمن • »
ولكن المرأة أجابت : « سوف يرجع سنّي ،انه قوي، سيحرك سني سيارتك • »

« أين هو الآن ؟ »
« انه يتَسَلّح لدى السيد ردموند • »
السيد ردموند • السيد ردموند • ذلك شخص لن يضطر لمقابلته ابدأ ، وقد سره ذلك • فبطريقة مالم يرتح قلبه لهذا الاسم ... وفي نوبة من الحساسية والقلق ، تمنى بومن أن يتحاشى حتى مجرد ذكر أشخاص مجهولين ومراعيهم المجهولة •

« هل تعيشان هنا وحيدين ؟ » اندهش لسماع صوته الثرثار المدرب على بيع الاحذية يلقي سؤالا كهذا ــ عن شيء لم يكن حتى يرغب في معرفته •

« نعم • اننا وحيدان • »

اندهش من طريقة اجابتها • لقد استغرق منها قول ذلك زمنا طويلا • وقد هزت رأسها ايجاباً بصورة شديدة أيضاً • هل أرادت أن توجه اليه نوعاً من لتحذير ؟ تساءل بتعاسة • أو هل أن المسألة فقط هي أنها لن تساعده بالتحدث معه ؟ فهو لم يكن على قدر كاف من القوة ليتلقى تأثير الاشياء غير المألوفة دون حديث قصير يلطف وقعها • لقد عاش شهراً لم يحدث فيه أي شيء الا في عقله وجسمه ــ حياة لم تكد تكون مسموعة من دقات القلب والاحلام التي عادت ، حياة من الحمى والسرية ، حياة هشة جعلته ضعيفا الى درجة ــ ماذا ؟ الى درجة التوسل • قفز السمك في راحة يده مثل سمكة في جدول •

تساءل مرة بعد مرة لم لم تتابع المرأة تصفيف المصابيح ، ما الذي دفعها لان تبقى هناك في الطرف الآخر من الغرفة ، مصغية بصمت حضورها عليه؟ أدرك أن هذا الوقت لم يكن بالنسبة لها وقتاً يصلح للقيام بالواجبات الصغيرة . كان وجهها وقوراً ، كانت تشمر بعدى صواب عملها . ربما كان الامر مجرد لباقة . وبطواعية أبقى عينيه مفتوحتين على نحو متصلب ، مركزتين على يدي المرأة المتشابكتين كما لو أنها تمسك الخيط الذي يضمهما .

ثم ، « سني قادم » ، قالت .

لم يسمع هو أي شيء ، ولكن رجلاً أتى ماراً بالنافذة ثم صدفها عبر الباب ، وكلبان الى جانبه . كان سني رجلاً ضخماً الى حد كاف ، وحزمه يتدلى منخفضاً محيطاً بردفيه . بدا أنه لا يصغر عن الثلاثين . كان ذا وجه حار أحمر لا يزال الصمت يملؤه . وكان يرتدي سروالاً أزرق ملطخاً بالوحل ومعطفاً عسكرياً قديماً . مليئاً بالبقع والرقع . تساءل بومن : الحرب العالمية ؟ ربه ، لقد كان معطفاً كونفدرالياً (*) . عند مؤخرة شعره الحصيف كان مرتدياً قبعـــة سوداء عريضة قذرة بدت وكأنها اهانة لقبعة بومن . دفع الكلبين عن صدره . كان قوياً ، وفي طريقته في التحرك هيبة وثقل ... كان هذا هو اشبه بينه وبين امه .

وقفا جنباً الى جنب ... لا بد له من أن يشرح مرة أخرى وجوده هنا .

قالت المرأة بعد بضع دقائق ، « سني ، هذا الرجل سقطت سيارته في الهوة ويريد أن يعرف اذا كنت ستخرجها له . »

لم يستطع بومن حتى أن يشرح قضيته .

وقع بصر سني عليه .

كان يعرف أن عليه أن يقدم تفسيرات وأن يعرض نقوداً ــ على الاقل أن يبدو

★ نسبة الى الجيش الكونفدرالي الذي حشدته الولايات الجنوبية في الحرب الاهلية الامريكية . (المترجم)

اما بمظهر النادم أو ذي السلطة • ولكن كل ما أستطاع أن يفعله هو أن يهز كتفيه على نحو طفيف •

لامسه « سني » وهو يمضي الى النافذة ، يتبعه الكلبان المتوثبان ، وينظر من خلالها • كان هناك جهد حتى في طريقته في النظر ، كما لو أنه يستطيع أن يرمي بصره منها مثل حبل • دون أن يلتفت ، شعر بومن أن عينيه هو لم تكونا تستطيعان رؤية أي شيء : كانت الهوة شديدة البعد •

« لدي بغل هنات في الخارج ولدي بكرة وحبال • » قال سني بلهجة ذات معنى • أستطيع أن آخذ بغلي وحبالي ، وقبل مضي زمن طويل أخرج سيارتك من الوادي • »

نظر الى جميع أنحاء الغرفة كما لو كان يمعن التفكير وعيناه تدوران في مآقيهما • ثم ضغط شفتيه على بعضهما بشدة ولكن باستحياء، ثم والكلبان يسبقانه هذه المرة خفض رأسه وخرج بخطوات واسعة • صدر صوت عن الارض الصلبة وهي تميد بفعل طريقته الجبارة في السير التي تكاد تكون مترنحة •

بحث وبإيحاء من هذه الاصوات،قفز قلب بومن مرة أخرى • بدا أنه يسير هنا وهناك في داخله •

قالت المرأة . « سيقوم سني بالمهمة • » كررت قولها ، تكاد أن ترسله كأغنية • كانت جالسة في مكانها قرب الموقد •

دون أن ينظر ، سمع بعض الصرخات وسمع الكلبين يتنحان وصوت خبط حوافر في خطوات قصيرة على الهضبة • وبعد بضع دقائق مر سني تحت النافذة يحمل حبلاً ، وكان هناك بغل بني اللون ذو أذنين مرتعشتين لامعتين بدتا وكأن لونهما بنفسجي • ونظر البغل فعلا عبر النافذة من تحت جفنيه • وجه عينين تشبهان دريئتين الى عيني بومن الذي أشاح بوجهه ورأى المرأة تبادل البغل النظر بالصفاء والرضا وحده يلوح في وجهها •

تابعت الغناء قليلاً بصوت خافت • خطر له ، وبدا ذلك رائعاً تماماً ، أنها

لم تكن حقا تتحدث اليه ، وانما تتابع الشيء الذي يحدث بكلمات لا شعورية بينما جزء منها يتابع النظر ٠

لذا لم يقل أي شيء ، وحين لم يجب هذه المرة شعر بانفعال غريب وقوي ، غير الخوف ، يعتمل في نفسه ٠

حين قفز قلبه هذه المرة ، شيء آخر ــ روحه ــ بدا أنه يقفز أيضا ، مثل مهر صغير سمح له بالخروج من الحظيرة ٠ حدق في المرأة بينما سرعة أحاسيسه المحمومة جعلت رأسه يدور ٠ لم يستطع التحرك ؛ لم يكن هناك شيء يستطيع فعله ، الا ، ربما ، ان يعانق هذه المرأة الجالسة هناك تمعن في الهرم وتزداد فقداناً لشكلها أمام ناظريه ٠

لكنه أراد أن يقفز و قفاً، أن يقول لها، لقد كنت مريضا وقد وجدت ميدالك، حيث ك فقط، كم أعاني الوحدة ٠ هل فات الوقت ؟ ان قلبي يقبع صراعاً في داخلي، وقد تكوين سمعية ، يحتج على الخواء ٠٠٠ يسمي له أن يكون ممتلئاً سيتابع قوله لها بسرعة وهو يفكر بقلبه الان كبحيرة عميقة ، يجب أن تحتوي على الحب مثل القلوب الاخرى ٠ يجب أن يغمرها الحب ٠ سيأتي يوم دافيء من أيام الربيع ٠٠٠ تعالي قفي في قلبي ، أينما كنت ، وسيغطي نهر بأكمله قدميك ويرتفع الى الاعلى ويغمر ركبتيك في دوامات ، ويجرك الى ذاته ، جسدك بأكمله ، قلبك أيضا ٠

لكنه حرك يدا مرتعشة أمام عينيه ، ونظر الى امرأة القابعة الهادئة في الطرف الآخر من الغرفة ٠ كانت ساكنة مثل تمثال ٠ شعر بالخجل والانهاك من فكرة أنه كان من الممكن ، في دقيقة واحدة أخرى ، أن يكون قد حاول بكلمات وعناقات بسيطة أن يفشي شيئاً غريبا ــ شيئا بدا دائما أنه فاته أثره ٠٠٠٠٠

لمس نور الشمس أبعد قدر على الموقد ، كان الوقت بعد العصر ٠ في مثل هذا الوقت غداً سيكون على طريق معبد جيد، يسوق سيارته مجتازاً أشياء تحدث للناس الاخرين ، أسرع من حدوثها ٠ برؤيته المسبقة ليوم الغد ، شعر بالسرور ، وأدرك

أن هذا لم يكن الوقت المناسب لعناق امرأة عجوز ، كان باستطاعته أن يشعر في صدقيه النابضين استعداد دمه للحركة وللاسراع في الابتعاد ·

قالت المرأة : « سيكون سي قد ربط سيارتك الآن · سيخرجها من الوادي خلال فترة قصيرة · »

« عظيم ! » صاح بحماسه المعتاد ·

ومع ذلك بدا الوقت الذي أمضياه في الانتظار طويلا · بدأ الظلام يخيم · كان بومن منشنجاً في كرسيه · ينبغي لكل انسان أن يكون لديه ادراك كاف لان ينهض ويتمشى هنا وهناك أثناء الانتظار · كان هناك شيء يشبه الذنب في مثل هذا السكون والصمت ·

لكنه بدلاً من أن ينهض أصغى··· أصغى باضطراب، وتنفسه مكتوم وعيناه عاجزتان في الظلمة المتزايدة ، يتوقع صوتا محذراً، وقد نسي في حذره ماسيكون هذا الصوت · قبل مضي زمن طويل سمع شيئاً ـ خافتاً ، مستمراً ، يثير الشك·

سأل ، « ما هذا الصوت ؟ » وقفز صوته الى الظلمة · ثم شعر بخوف شديد من أن يكون قلبه يخفق بوضوح زائد في الغرفة الهادئة ، وأن تخبره بذلك ·

قالت متسمرة : « ربما كنت تسمع الجدول · »

كان صوتها أكثر قرباً منه · كانت واقفة الى جانب الطاولة · تساءل عن سبب عدم اضاءتها للمصباح · لقد وقفت هناك في الظلمة ولم تشعله ·

لن يحدث بومن الآن أبدا ، فقد فات الوقت · أحذ يفكر · : سأنام في الظلمة ، وفي حيرته أشفق على نفسه ·

تابعت حركتها بثقل الى النافذة · ارتفع ذراعها ، أبيض على نحو غير واضح، باستقامة من جانبها المتليء وأشارت الى العتمة في الخارج ·

قالت تحدث نفسها : « تلك النقطة البيضاء هي ستي . »

التفت رغم ارادته وتطلع من فوق كتفها ؛ تردد في آن ينهض ويتعب الى جانبها. بحثت عيناه في الهواء المعتم . سبحت النقطة البيضاء برشاقة نحو اصبعها ، مثل ورقة شجر في نهر ، وبياضها يزداد في العتمة . كان الأمر كما لو أنها أرته شيئاً سرياً ، جزءا من حياتها ، لكنها لم تقدم أي تفسير . أشاح ببصره . أثار الأمر الى حد الدموع تقريباً ، وهو يشعر دون سبب أنها قد أدلت بتصريح صامت يعادل تصريحه . انتظرت يده فوق صدره .

ثم عبرت خطوة الغرفة ، وصار ستي داخل الغرفة . شعر بومن كيف تركته المرأة هناك ومضت الى جانب الرجل الاخر .

قال صوت ستي في العتمة . « لقد قمت باخراج سيارتك أيها السيد . انها واقعة تنتظر على الطريق ، وقد استدارت لتعود من حيث أتت . »

« عظيم ! » قال بومن ، وهو يدفع صوته كي يصبح عاليا . « . ستي بالتأكيد كثير الامتنان ــ لم أكن لأستطيع فعل ذلك بنفسي ــ لقد كنت مريضاً .... »

قال ستي : « استطعت فعل ذلك بسهولة . »

استطاع بومن أن يشعر بهما كليهما ينتظران في الظلام ، واستطاع أن يسمع الكلبين يلهثان في الباحة الخارجية ، ينتظران كي ينبحا حين يحين وقت ذهابه . شعر بالعجز والامتعاض بصورة غريبة . الان وقد صار بامكانه أن يذهب ، تاق لأن يبقى . مم كان يتعرض الآن للحرمان ؟ اهتز صدره بقسوة بفعل خفقان قلبه. كان هنا شيء عزيز على هذين الشخصين لم يتمكن من رؤيته ، كانت هناك مؤامرة ما بين الاثنين . فكر بالطريقة التي ابتعدت فيها عنه وذهبت الى ستي ، لقد انسابت نحوه . ارتجف من البرد ، كان تعباً ، ولم يكن الأمر عادلاً . بذلة ولكن بعصب أدخل يده في جيبه .

« بالطبع سوف أدفع لك عن كل شيء ــ »

« انت لا نأخذ نقودا عن شيء كهذا ، » قال صوت سني بعداء .

« أريد أن أدفع . ولكن إفعلا شيئاً آخر ... دعاني أبقى ـ لليلة .... » حطا خطوة أخرى نحوهما . لو أنهما فقط يستطيعان رؤيته ، لأدركا صدقه ، حقيقة حاجته . تابع صوته لقول « لم أستعد قوتي بعد ، وليس بامكاني أن أمشي مسافة كبيرة ، حتى أعود الى سيارتي . ربما ، لست أدري . لست أدري أين أنا بالضبط ـ »

توقف . شعر أنه قد يتفجر باكياً . ما لدي سيطمانه به !

أقبل سني ووضع يديه على بوص . واستطاع أن يحس بعيني سني تنظران اليه في الظلام . »

« أنت لست محصلا جئت تتسلل هنا ، أيها السيد ، ألا تحمل مسدسا ؟ » الى نهاية الا مكان هذه ! ومع ذلك فقد جاء هو . أجاب جو نا رصين « كلا . » « بامكانك البقاء . »

قالت المرأة : « سني سيكون عليك أن تستعير شمعة من المال . »

« سآتي بها من عند ردموند ، » قال سني .

« ماذا ؟ » أجهد بوص أذنيه ليسمع كلامهما .

قالت :

« لقد نفذت نارنا وعلى سني أن يستعير شعلة ، بسبب الظلمة والبرد . »

« ولكن الكبريت ـ معي كبريت . »

قالت بكبرياء : « ليست لدينا حاجة به . سيحضر سني شعلته الخاصة . »

قال سني بلهجة تنبيء عن الاهمية : « انني ذاهب الى ردموند ، » وخرج . بعد أن انتظرا فترة ، تطلع بوص من النافذة ورأى نورا يتحرك فوق الهضبة . مدد النور نفسه مثل مروحة صغيرة . تحرك بخط متكسر فوق الحقل ، مندفعاً

وسريعاً ، بشكل لا يشبه طريقة سني على الاطلاق ··· ثم سرعان ما دخل سني مترنحاً ، يحمل بملقط قضباً مشتعلاً وراءه ، والنار تتدفق في أثره ، تضيء أرجاء الغرفة ·

قالت المرأة وهي تأخذ الشمعة · « سنشعل ناراً الآن · »

بعد أن بعد ذلك أشعلت المصباح · أظهر النور جزاءه المظلم وجزاءه المضيء · انقلبت الغرفة بأسرها الى لون أصفر ذهبي مثل زهرة من نوع ما ، وصدرت رائحتها من الجدران التي بدت وكأنها ترتعش مع اندفاع النار الهادىء ومع تموج فتيلة المصباح المشتعلة داخل قمع النور الذي يحتويها ·

تحركت المرأة بين القدور الحديدية · وضعت بالملقط فحما مشتعلا فوق الاغطية الحديدية ، التي أصدرت سلسلة من الاهتزازات الخاصة مثل صوت جرس قادم من بعيد ·

ورفعت بصرها الى بومن ، ولكنه لم يستطع أن يستجيب · كان يرتعش ··

« هل تريد أن تشرب أيها السيد » سأل سني · كان قد أحضر كرسيا من الغرفة الأخرى وجلس متصرج لساقين عليه ويداه مشتبكتان فوق ظهر الكرسي · فكر بومن الآن كل واحد منا يستطيع رؤية الاخر وصاح . « نعم يا سيدي ، بالتأكيد ، شكراً ! »

قال سني : « اتبعني وافعل تماماً مثلما افعل »

كانت رحلة أخرى في الظلمة · اجتازا الممر وخرجا الى خلف المنزل مارين بكوخ وبئر معطى · وصلا الى برية من الشجيرات ·

قال سني : « على ركبتيك · »

« ماذا ؟ » وتصبب العرق على جبينه ·

فهم المقصود حين بدأ سني يزحف عبر ما يشبه نفقاً صنعته الشجيرات فوق الارض · تبعه ، وأجفل رغماً عنه لدى كل لمسة غصن أو شوكة ·

توقف سي عن الزحف وبدأ وهو قابع على ركبتيه يحفر التراب بكلتا يديه . بحذر أشعل يومن عود كبريت للحصول على النور . بعد بضعة دقائق أخرج سي جرة . صب بعض الويسكي في زجاجة أخرجها من جيب معطفه ، وأعاد دفن الجرة . « لا يعرف المرء أبدا من يُحتمل أن يطرق بابه ، » قال وضحك . « لنبدأ العودة ، » قال بصورة تكاد تكون رسمية . « لا حاجة بنا أن نشرب في الخارج مثل الخنازير . »

على الطاولة قرب النار ، جلس سي ويومن متواجهين على كرسييهمايتناولان الشراب من الزجاجة ، يمررها كل منهما للآخر فوق الطاولة . نام الكلبان ؛ كان أحدهما يرى حلماً .

قال يومن : « هذا شراب جيد . هذا ما كنت بحاجة له . » شعر وكأنه يشرب النار من الموقد .

قالت المرأة بفخر هادىء : « هو الذي يصنعه . »

كانت تدفع الفحم ، وروائح خبز الذرة والقهوة ، تملأ أرجاء الغرفة . وضعت كل شيء على المائدة أمام الرجلين ، مع سكين ذات قبضة عظمية مغروسة في احدى حبات البطاطا ، تشطر لبّها الذهبي . ثم وقفت دقيقة تنظر اليهما ، وهي تنتصب طويلة الى جانبهما حيث يجلسان . انحنت نحوهما قليلاً .

قالت : « تستطيعان الآن أن تأكلا ، » وابتسمت فجأة .

صدف أن يومن كان قبل لحظة قد أخذ ينظر اليها . أعاد فنجانه الى الطاولة في احتجاج غير مصدق . وشعر بألم يكبس عينيه . لقد رأى أنها لم تكن عجوزا . كانت صبية ، لا تزال صبية . لم يستطع أن يفكر بعدد السنين الذي يناسبها . كانت في نفس عمر سي ، وكانت زوجته . وقفت وراوية الغرفة البعيدة المعتمة وراءها ، والضوء الاصفر المتبدل ينتشر فوق رأسها وثوبها العديم الشكل ، ويرتجف فوق جسمها الطويل حين انحنى فوقهما في تصريحه المفاجىء .

كانت صبية • أسنانها لامعة وعيناها براقة • استدارت ومشت ببطء وثقـل الى خارج الغرفة ، وسمعها تجلس على السرير ثم تضطجع •

قال سني وهو يضع لقمة داخل فمه « انها على وشك أن تصنع طفلا • »

لم يستطع بومن أن يتكلم • شعر بصدمة لمعرفته حقيقة ما ينطوي عليه هذا المنزل • زواج ، زواج مثمر • ذاك الشيء البسيط • بامكان أي امرىء الحصول عـلى ذلـك •

شعر على نحو ما أنه غير قادر على الشعور بالسخط أو الاحتجاج ، رغم أن لمة من نوع ما قد لسعت عينيه بالتأكيد • لم يكن هناك أي شيء بعيد أو غامض هنا ـ بل مجرد شيء خاص • السر الوحيد كان التفاهم القديم بين شخصين • لكن تذكر انتظار المرأة الصامت قرب الموقد البارد • وعناد الرجل في ذهابه مسافة ميل للحصول على النار ، وكيف أخرجا أخيرا طعامهم وشرابهمـا وملآ الغرفـة بفخر بكل ما لديهما •

قال سني : لست جائعا بقدر ما يبدو عليك • »

خرجت المرأة من غرفة النوم حالما انتهى الرجلان ، وأكلت عشاءها بينما كان زوجها يحدق بسلام في النار •

ثم أخرجا الكلبين وأعطياهما الطعام المتبقي •

قال بومن : « أعتقد أنه من الافضل أن أنام هنا الى جانب النار • »

شعر أنه قد خُدع ، وأن بامكانه الآن أن يكون كريماً • على الرغـم من مرضه ، لم ينو أن يطلب منهما التخلي عن سريرهما ، لقد طلب من المعروف في هذا المنزل ما يكفي ، ولن يطلب شيئا جديدا الآن بعد أن فهم حقيقة الامر •

« كما تريد ، أيها السيد • »

لكنه لم يكن قد عرف بعد مدى بطئه في الفهم • فهم لم ينويا اعطاءه سريرهما • بعد فترة قصيرة نهضا وبعد أن نظرا اليه برصانة ذهبا الى الغرفة الاخرى •

استلقى متمددا قرب النار ، الى أن بدأت تخمد ، راقب كل لسان من ألسنة اللهب ينهي احتراقه ويختفي ، وجد نفسه يكرر بهدوء « ستكون هناك أسعار خاصة مخفضة على جميع الاحذية خلال شهر كانون الثاني » ، ثم استلقى وشفتاه مطبقتان باحكام .

كم ثمة من أصوات في الليل ! سمع الجدول يجري ، والنار تخمد ، وكان متأكدا الآن أنه يسمع قلبه يدق أيضا ، أي يسمع الصوت الذي يصدره تحت أضلاعه . سمع التنفس المتفاوت والعميق للرجل وزوجته في الغرفة الواقعة على الطرف الآخر من الممر . وكان هذا كل شيء . لكن الانفعال جاش بصخب في داخله ، وتمنى لو أن الطفل يكون طفله .

لا بد له أن يعود الى حيث كان من قبل . وقف بصمت أمام الجسر وارتدى معطفه . شعر به شديد الثقل فوق كتفيه . حين انطلق ليخرج نظر ورأى أن المرأة لم تكمل قط تنظيف المصباح . تحت تأثير حافز ما وضع جميع النقود الموجودة في محفظته تحت قاعدته الزجاجية المحززة ، بشعور من أتى عملاً يدعو للفخر .

وبخجل حمل حقيبته وخرج بعد أن هز كتفيه قليلاً ثم ارتجف . بدت برودة الجو وكأنها ترقى به جسميا . كان القمر يشع في السماء .

عند المنحدر بدأ يركض ، دون أن يستطيع التحكم بنفسه . وتماماً حين وصل الى الطريق ، حيث بدت سيارته جالسة في ضوء القمر مثل قارب ، بدأ قلبه يصدر انفجارات مائلة وكأنه بندقية .

غطس خائفا في الطريق وسقطت حقيبتاه حوله . شعر كأن كل هذا قد حدث من قبل . غطى قلبه بكلتا يديه ليمنع أي انسان من سماع الضجة التي أحدثها .

لكن لم يسمعها أحد .

□ ■ □

مسرحيتان

حصان في مجلس الشيوخ
محبة القريب

بقلم : ليونيد اندرييف
ترجمة : شريف شاكر

حصان في مجلس الشيوخ

(مسرحية من فصل واحد)

« كاليغولا ! حصانك لم يسطع في مجلس الشيوخ ، رغم انه كان يشع بالذهب : وانما تسطع الاعمال الطيبة »

« ديرجافين »

اجتماع في مجلس الشيوخ .. كل شيء يبدو ضخماً ، وهائلاً ، ما عدا الناس . يتوافد أعضاء المجلس الى اجتماع اليوم المهيب ببطء وعظمة ، جارين ارجلهم بصعوبة من فرط الأهمية . ويحيط بأهم الأعضاء وأكبرهم سناً حشد هائل من الحشم والعبيد والمعتقين . أما الاغلبية فهي من المتملقين الذين راحوا يطلون من كل مكان ، ويتمسحون بأنصاف الاعضاء ذوي الوجوه الصارمة والقبابيز ذات الدوائر الصغيرة .

الشمس ساطعة ، والطقس رائع .

أحد أعضاء مجلس الشيوخ من ذوي المكانة يحيي شخصاً آخر مثله ذا مكانة أيضاً .

ــ السلام عليك ، أيها الموقر يوبلي ٠

ــ وعليـك السـلام ، يا سيبتسون ، يا أعظـم مواطـــن في روما وزينة مجلس لشيوخ ٠

يحني كل للآخر ٠ ويفترقـان مائلين الى الوراء مـن فرط الاهميـة أحـد المتملقين يهجس في اذن أحد الاعضاء ٠

ــ تعساً لزمن يكون فيه لهذا المحتال ، مثل هذه الحاشية !

متملق ثان يهمس في اذن عضو آخر ٠

ــ ويكون لمثل هذا المختلس ، والشرير المتعفف ، مثل هذه الحاشية !

يهز كل واحد منهما رأسه في يأس ، معبراً عن غمه الوطني ٠

بعض الاعضاء الشبان بوما ما يتبادلون التحية ويجتمعون في حلقة ٠

الأول : مرحبا ، يا كلاودي ٠

الثاني : أهـلا ، يا مـارك ٠

الثالث : ما بك يا مارك؟ لم يكن وجهك مبسوطاً الدرجة ولا حتى لنصف ما هو عليه اليوم ؟

مـــــارك : أيقظوني بصعوبة (يسعل مع حشرجة) ما السخافة التي استدعونا من اجلها ؟ إن رأسي يتحطم من الألم ٠

الرابع : هـــدا ! ٠٠

الثاني : هناك أمر عظيم الاهمية ٠ هذا ما قاله لي الرسول ٠ ان القيصر ٠٠٠

الرابع : اهدأ ! ما شأنك هنا ؟

نصف العضو : انا ؟ أبدا ، بالمرة ٠ هذا شيء غريب بحق ٠ اني ببساطة ٠٠ لا شـي ؟ ٠

مـــــارك : (مهددا) لا شيء ؟ ٠

نصف العضو : يا لها من أقواس ، ويا لها من أعمدة ! وأية بوابة ! انها ليست مجرد بوابة بل ٠٠٠

الرابع : وهل تفحصت كل شيء ؟

نصف العضو : (بسرعة) شكرا ، كل شيء (يبتعد) آه .. يا له من فن معماري رائع ! .

مارك : (يتهدج صوته) حرفة حقيرة ! سأقبض عليه ، بطريقة ما ، عند الكابيتول (١) ...

خامس : (بانفعال) أما سمعتم ؟ .

اصوات : ماذا ؟

ـ ما الأمر ؟

ـ تكلم يا اغريبا !

اغريبا : اني ، ببساطة ، لا أفهم شيئاً . بلوتون وحده يعلم الى أيس متؤدي بنا الامور ، يريدون أن يقصروا ثوبنا (٢) .

الرابع : مستحيل ! أن يقصروا ؟ ..

اغريبا : أجل ، لمرتق كامل ، أو لاثنين ، وباختصار الى أعلى من الركبة . هل تتصورون ؟ .

يشده الجميع

مارك : (متنهداً) شيء جميل !

أغريبا : ويريدون أن نصوّت بأنفسنا على هذا الامر ، أتتصورون ذلك !

مارك : (متنهداً) جميل ، ولا يمكنك أن تفعل شيئاً ـ سيقصون .

الرابع : لن يقصّوا !

مارك : سوف يقصون ، وأنت محترم .

اغريبا : لا ، لن نسمح بذلك ، نحن مواطنون أحرار ، ولسنا عبيداً .

---

(١) الكابيتول : قلعة ومعبد في روما القديمة .

(٢) الثوب (توغا) ثياب النصف الاعلى للناس في روما القديمة ، وهي عبارة عن قطعة من المادة الصوفية على شكل قطع ناقص ، أحد أطرافها يتدلى من الكتف اليسرى الى الامام أمام القسم الرئيسي فيغطي الظهر ويمر عادة من تحت اليد اليمنى ويلقى على الكتف اليسرى مغطيا بهذه الصورة القسم الامامي من الجسم . والتوغا العادية هي بيضاء اللون . اما توغا اعضاء المجلس البلدي فتكون ذات حواشي حمر .

الثاني : لن يجرؤ أحد على مس عضو مجلس الشيوخ الروماني !

أغريبا : وان أصرّوا على القص ، فليقصوا مع الثوب ساقي .. ان كان جدي موتسي ستيسفولا (٣) قد استطاع أن يضحي بيده ، فأنا...

مارك : لن يصيبك هذا في شيء يا أغريبا . ان قدمك كلها بالمسامير ، بل سيكون الامر أفضل بالنسبة لك ، أما أنا ...

الثالث : انك تشرب الخمر ، وتستلقي أكثر مما تمشي يا مارك ، أما بالنسبة لي . فما جدوى ذلك ؟

« يتجهم الجميع ، ويفرقون في التفكير . يلتقي اثنان من الاعضاء الكبار ، يرافقهما حشد كبير من الحشم ، ويتبادلان التحية . »

مارك : لا ، كيف يصبح دون أرجل ! لا أريد أن أكون بلا أرجل ! (يتجه الى العضو الكبير) السلام عليك يا تيت العظيم ! هل سمعت شيئا ما عن ارادة القيصر ، و ...

تيت : أجل ، لقد سمعت . السلام عليكم . لقد كنت البارحة في حضرة القيصر ... يا لضياع عقله ، وكبر رأسه ! .

الجميع : أوه ، طبعا ، رأس !

العضوالكبيرالثاني : (حاسداً الاول) وأنا أيضاً كنت عند القيصر . لقد استدعاني اليه . يا له من خمر ! لقد قدمه الي خمسة من العبيد ، انكم لا تتصورون كم كنت ثملاً آنذاك !

تيت : أما أنا ، فقد قدم لي الخمر ستة من العبيد ، والحق ، لا أستطيع أن أفهم (الى مارك) كم من العبيد يحملونك عادة الى البيت عندما تكون ثملا ؟ .

---

(٣) موتسي ستسيفولا اي شاب روماني تسلل الى معسكر العدو الاتيروسي الذي حاصر روما عام ٥٠٨ ق.م . ليقتل قيصرهم بورسين . الا انه أخطأه وقتل أحد المقربين من القيصر ، وبعد ان اعتقل ، عبّر موتسي عن احتقاره للعدو بوضع يده اليمنى في نار المذبح . وتقول الاسطورة ان بورسين وقد أعجب بثبات الشاب وبجولته أطلق سراحه ، ورفع الحصار عن روما .

مـــــارك : (على غير ارادة منه) اثنا عشر • ولكن قل لي من فضلك يا تيت، ألم تسمع أن قيصرنا العظيم ، كاليغولا المبجل ، قد عبر عن رغبته في تقصير ثوبنا ؟

تـيـت : ثوبـــا ؟

العضوالكبيرالثاني : أن يقصـر ؟

يضحك كلاهما ببطء

تـيـت : وما شأن كاليغولا بثوبنا ؟

العضوالكبيرالثاني : يا للسخافــة !

أغريبـــا : ولكن لماذا يعقد هذا الاجتماع الكبير اذن ؟ لقد قيل لي حتى ان الرسول قد بعث في طلب من يعيش في فيلات ألبا خارج المدينة • انظر كم من الحشد قد وصل الى الاجتماع لقد انتابنا القلق الى حد •••

تـيـت : سخافة ! أن القيصر يريد أن يقيم عددا من الاحتفالات الكبيرة •• « حركة مرحة وهتافات »

أجل ألا تصدقون ؟ انه بحاجة الى المال •

(يضحك ، ويمسح دموعه بأصابعه الجافة)

أغريبـــا : (بسعادة) اذا كان الامر يتعلق بالديون ، فهذا أمر آخر •

الجميـــع : طبعاً ، هذا أمر آخر •

مـــارك : ليقم من الاحتفالات ما يشاء ، المهم أن تبقى الارجل •

الرابـــع : التاريخ نفسه قد اعترف بالخبز والفرح •• وعلى وجه العموم منذ مبدأ •• أو باختصار « تائهاً في كلامه » حتى إني لا أفهم ماذا في الامر ••• أبداً !

نصفهالعضوالثاني : لا ، لا شيء ، لقد خيل الي أن ثمة نكتة تحكي هنا ، وأنا هل تتصور ، أحب الدهن ، ها ، ها • شيء غير لائق •

تـيـت : أهذا أنت يا شاطر ! أهلاً ، أهلاً ، ما الذي يمنعك من زيارتي؟ حبذا لو جلسنا معا ، وثرثرنا •••

نصف العضو : لم تسنح لي الفرصة أبداً أيها الطبيب الموقر ، فالاشغال كثيرة تدير الرأس ..

تيت : رزني ! (الحاشية تنحني قليلا باحترام)

نصف العضو : سأعتبر هذا واجباً عليّ أيهاالطبيب. لديّ بعضالأخبار ان.. (منحنيا) الم تسمع شيئاً عن سبب اجتماع اليوم ؟ ان أغريبا يقتفي أثري منذ فترة طويلة .

تيت : يا لك من غبي ، ما دمت هنا ، فمن أي شيء يمكن أن يكون لاجتماع ؟! لنذهب ! البارحة سألني القيصر ...

(يخرجان ، وتعود البقية الى مكانها)

مارك : أحاقرنا سدى ! انك شخص غير ماديء يا أغريبا .

الثاني : شيء رائع أن تقدم الاحتمالات ! ن عامة الشعب قلقة بعض الشيء حتى أن عبيدي البارحة أحنوا لي الطريق بالعصي .

اغريبا : أنا نفسي يا أخي ، سعيد .. الهدوء . مارتسيل قادم .

اصوات : مارتسيل !
ـ استدعوه أيضاً !
ـ لا .. انه أمر خطير بالتأكيد .

مارك : اني أخافه ، فقد يقول لي فجأة : انك لئيم يا مارك .. فماذا أجيبه ، هذه هي الحقيقة .

اغريبا : لم يبق لهؤلاء الا القليل ..

الجميع يحيون مارتسيل باحترام . يتوقف .

مارتسيل : مرحباً يا أصدقائي ، هل تعرفون لماذا استدعونا اليوم ؟ ان روما بأسرها تلهج باجتماع اليوم . أهي حرب جديدة مع غاليا (٤) ؟

(٤) غاليا . فرنسا القديمة .

أغريبـــا : حيث نلت ذات مرة أكاليل النصر أيها العظيم مارتسيل ـ أوه ، لا ! يقولون انه ستقام احتفالات كبيرة ، ويحتاج الامر للمال ·

مارتسـيل : أ !

عضو أصم ونصف أعمى : أني دائما أصوّت بنعم · أ ؟ هذا ؟ بالطبع ، مادمت أصم فكيف يمكنني أن أصوّت بلا ؟ مـاذا تقول ؟ قل ما تشـاء فاني لا أسمع على كل حال · أهذا أنت يا مارتسيل ؟ اني لا أرى جيدا · لعدكنا معا في عاليا ، هل تذكر ؟ أنا أنطوني ! ·

مارتسـيل : أنا مارتسيل ، أما أنت فلم تعد أنطوني · (يخرج)

الأصـــم : ما به ؟ (بالناقص) ! قل ما تشاء ، فأنا لا أسمع على كل حال · سأذهب أتكلم مع الآخرين (يستمر مع الضحك العام · ويدخل في حديث آخـــر) ·

(يتفرق جميع أعضاء مجلس الشيوخ تقريبا الى مجموعات· يقترب الى مجموعتنا أحد الاعضـاء ، انه مستدير كالكـرة ، ويلوح بيديه ، غير قادر على الكلام ، ويكاد يختنق ·

أغريبــا : ما بــك ، يا منيني ؟

مــارك : ما بك ؟ آه ، عد الى وعيك ·

منينــي : (يسترد أنفاسه) آه ، آها ، آها ··

الرابــع : هيــا ، تكلـم ·

منينــي : أيها الشيوخ ·· أوه ··

يقتـــرب آخرون

أصــوات : ماذا يحدث هنا ؟

ـ استمعوا ، استمعوا !

ـ هيا ، تكلم يا منيني · هل مات أحد ؟

ـ لا أحــد ·

مثينـــي	:	القيصر .. القيصر .. جلالة القيصـر ، أوه ! سوف يعيـين الاحمر عضوا ؟ .
		أوه ! الاحمر (يبكي) .
مـــارك	:	أي أحمر ؟ أقسم انه سكران .
مثينـــي	:	لا .
مـــارك	:	ولماذا تبكي اذن ؟ هيا انطق .
اغريبـــا	:	اي احمر ؟ مم أنت خائف ؟ وهل يعوزنا أعضاء ...
الثالث	:	ولكن ، من عندنا من الحمر ؟ مستيبيون : واحد .
الثـــاني	:	كاميل : اثنان . غليفيري : ثلاثة .
مثينـــي	:	(يلوح) بيده) لا ، أبداً ، الحصان !
الجميـــع	:	أي حصان ؟ ما الذي تقوله ؟
مثينـــي	:	لقد عين القيصر حصانه ، أتعرفون فحله الاحمر ؟
أصـــوات	:	نعـرف !
		ــ نعـرف !
		ــ نعرف ، وماذا ؟ تكلم !
مثينـــي	:	(بمأسوية) عينّه لقيصر عضوا ! أوه .

(يسود الصمت ، ثم ينفجر بعد ذلـك ضحك شـامل . يقترب آخرون جدد ، وبعد أن يعلموا ما الامر ينفجرون أيضا بالضحـك . يلوّح مسيي بيديـه ، دون أن يلقي اليه أحـد بـالاً) .

أصـــوات	.	نطق أخيرا . الفحل عضوا !
		ــ ها ، ها ، ها
		ــ من قال هذا ؟
		ــ منيني ، ها ، ها ، ها !
		(يهدأ الضحك أخيرا)

متينــــي : (يصرخ) حمير أغبياء ، مغفلون ! ما الذي يضحككـم ؟ اني أقول الحقيقة : لقد عيّن ، عيّن ، وسيحضرونه اليوم .
(يرتفع الضحك ثانية)
أجل ، سيحضرونه الى هنا ، وعلينا أن نحييه ، وهذا هو الخطاب الذي كلفت بقراءته . (يمزق صرة الخطاب ، ويبكي) وها هما القنصلان ، انهما يعرفان كل شيء ، اسألوهما ، يا مغفلون !
يصمت بعضهم نتيجة سوء الفهم ، وينفجر آخرون بالضحــك ، إلا أن كثـيراً منهـم كان قد تحول الى الجـد . يقترب القنصلان . ثيابهم أنيقة ، تبدو عليهما سمات الاهمية واللطـافـة) .

القنصل الأول : الحالة رائعة ! ومطمئنة جدا . انه ليوم ساحر ، أليس كذلك ؟

القنصل الثاني : الطقس الرائع ! والطيور .. المعزة لجوبيتر ، ان القيصـر اليوم في حالة رائعة ، ولقد أمر أن أتقدم بالشكر لكم . أعتقد أننا سوف نبدأ بعد قليل !

أغريبـــا : (متلعثماً) وهل هذا صحيح ؟

القنصلان معا : (بلطف) ماذا تقصد ، أيها الرفيق العزيز ؟

مــــارك : (متنهداً) فيما يتعلق بالأمر ... لا بد أن متيني قدكذبعلينا؟
(يتصنع القنصلان سحنة راضية يشوبها بعض الحزن فهي من جهة حزينة ، وتشع بالسعادة القصيرة من جهة ثانية) .

القنصل الأول : آه ، لقد سمعتم اذن ؟ أجل ، أجل ، طبعاً ، أستطيع أن أهنئكم جميعا بهذه السـعادة أيها السادة . لقـد منّ علينا القيصـر بحصانه ، واليوم يمكننا أن نستقبل بين ظهرانينا ـ كما يقال ـ عضواً جديداً ...

نصف العضو : (يحك رأسه) عضواً !

القنصــــل : آه ، أجل، أشكرك، عضواً بالطبع، انساناً يستحق، أوبالأصح..

القنصل الثاني : (همساً) حيواناً .

القنصـل : أجل ، أجل ، حيواناً أيها السـادة ، ولكـن ، ألسنا جميعـاً حيوانات ؟ كلنا حيوانات • واذا كان لكل واحد منا اثنتان من الارجل ، أقصد أنه للبعض رجل واحدة ، فماذا لا تكون أربع أرجل أيضـا ؟

القنصل الثاني : وفي التوصية لم يذكر شيئا بصدد كمية الارجل • واذا كان قد عيّن الفم ••• الفم ••

مـارك : (متجهما) افحل ، أنطقها حتى النهاية ! أوه جوبيتر ، جوبيتر !

القنصل الأول : ان ماضيه العريق معروف لدينا جميعا ، فهو في العام الماضي قد حاز جائزة في الميدان ••• وعلى وجه العموم علينا أن نفتخر ، وأن نرحب •••

القنصل الثاني : واذ كانت توجد ثمة اعتراضات في التوصية ، فهي ما يتعلـق بالعمر ، اذ ان لرفيقنا الجديد ، الموقر ، ست سنوات فقط •

القنصل الأول : هنا أسمح لنفسي الا اتفق مع زميلي المحترم ذلك انه بالنسبة للمخلوقات ذات الارجل الاربع ، يقاس العمر على نحو مختلف ، بعض الشيء • بالنسبة للمخلوقات ذات الارجل الاربع ، يبدأ النضج الفكري الكامل •••

اغريبـا : اني أعترض !

(هتافات السخط والاحتجاج العام)

اصـوات : ونحـن !

ـ ونحن أيضا !

اغريبـا : لم يسبق أن حدث مثل هذا في تاريخ روما !

اصـوات : لـم يسـق !

ـ ليسقط الفحل !

ـ ليسقط الاحمر !

اغريبـا : (منهما) لقد عيّنوا لنا مختلف الاشقياء ، ولـم نتكلم ، بـل

	وانقنا ، ولكن كان لديهم ، على أقل تقدير ، اثنتان من «الارجل» وليس اربع أرجل ٠
أصـــوات :	هـذا صحيـح !
	ـ لا يسمح باربع أرجل !
أغريبـــا :	لقد ضموا الينا اللصوص ، وعشاق القيصر ٠٠٠
مـــارك :	(يمسكه من يده) هل فقدت صوابك !
	(تخفت كل الهتافات ٠ صمت)
نصف العضو :	(يهمس) لقد قال : وعشاق القيصر ٠
القنصل الأول :	على أي حـال ، هـذه ارادة كاليغـولا ٠ فـاذا كـانت لا تعجبك ، فبوسعك أن تقول هـذا له : سيكون هنا القيصر بنفسه بعد دقائق ، ولسوف يسوق ٠٠٠
نصف العضو :	يدعـون ٠
القنصل الأول :	يدعون رفيقنا ، العضو الجديد الموقر ٠ بقي علي أن انوه بأن القيصر يعوّل ، بشكل خاص ، على استقبالكم الحار والفرح لرفيقكم الجديد ٠ ان القيصر يؤمن بعمق بأن شيمتكم المعهودة ، يا آباء الوطـن ، لن تخونكم في التعبير عن غبطتكم كملـة ، وعرفانكم العظيم للرب أغسطوس بنعمته ٠ وذلك ، طبعاً ، بعد كلمة الترحيب التي عبر منيني عن رغبته في قراءتها ٠
منينـي :	أوه !
القنصل الأول :	آ ، أهذا أنت يا مارتسيل ! انني سعيد جدا برؤيتك ٠
مارتسيل :	وأنا كذلك ، هل تسوق الحصان بنفسك ؟
القنصل الأول :	لا (بلهجة مسمومة) ولكنـك سوف تلقي الكلمة الترحيبية الثانية ٠٠ هذا ما أمر به القيصر ٠ انه في غبطة من حديثك المهذب سلفاً ٠
مارتسيل :	(شاحباً) ولكنني خطيب سيء ، إنني محارب ٠
القنصل الأول :	لا يسعني الا أن أبلغ ما أمر به كاليغولا ٠

مارتسيل : قل للقيصر ...

القنصل الأول : (رافعا كلتا يديه) لا ، لا أيها المحارب الموقر ، اني لا أستطيع أن أقول شيئا للقيصر (يبتسم بلطف) يمكنني فقط أن أكرر انه في غبطة من حديثك سلفا . وهكذا أيها السادة ، أهنئكم .

(يخرج كلا القنصلين بمرافقة أفراد الشرطة، والحاشية. يعتزل الجميع مارتسيل ، الذي شحب لونه جداً ، وأخذ يبتعد ببطء . صمت . بعد ذلك ترتفع صيحات السخط) .

ـ لم نسمع بشيء كهذا من قبل !
ـ ولا رأت مثل هذا عين !
ـ سيهزأ بنا سواد الشعب ، لتطرد هذا الحصان !

صوت وحيد : يسقط كاليغولا !

(يسود صمت مفاجيء ، وينظر الجميع حولهم ، واذا بمارك يجر واحداً من أنصاف الأعضاء الى الوسط ، قابضاً عليه من ياقته . ضحك) .

مارك : هذا هو . بماذا كنت تهتف ؟ من تريد أن تسقط ؟

نصف العضو : وهل أقوى على فعل شيء كهذا ؟ آه جوبيتر ! هل يعقل ...

الجميع : هيا ، انصرف !

(يركلون نصف العضو بالاقدام ، ويبتعد خلفه بقية أنصاف الاعضاء الذين ذعروا ، وأخذوا يسترقون السمع عن بعد ، جاهدين أن يتلقفوا أي شيء مما يحدث ، واليأس باد في أعينهم . تصبح الحالة هنا أهدأ بعض الشيء .)

الثالث : علينا ألا نوافق ، تصوروا ماذا سوف يحدث : مكتوب على جميع البوابات « مجلس الشيوخ والشعب الروماني » . وفجأة ثمة حصان ، فحل أحمر !

ـ هذا اسطبل ، وليس مجلسا للشيوخ ٠
ـ مربط للخيل ٠

الرابـــع : الهدوء أيها الشيوخ ! يجب أن نتشاور في الامر ٠٠ ها هو ذا تيت ـ لنسأله ٠ تيت ، تيت !

(يشق تيت الموقـر طريقه في الزحام ، انه فقد الآن قـدراً كبيراً من مكانته) ٠

تـيـت : لقد خرجت ، ولم أفهم ما الذي يجري هنا ، صياح ، وزعيق ، ما الذي حدث أيها الأصدقاء ، يقال أن ثمة حصاناً ٠٠ ؟

مـــارك : ليس ثمة حصان ، بل فحل القيصر ٠ الاحمر ، هل تعرفه ؟

تـيـت : أعرفه ، وماذا !

مـــارك : وماذا ! لقد عيّن عضوا ، وسوف يجلس الى جانبك ٠

(صرخات ، وضحك ٠ ينهـار تيت ويعود الى الـوراء ويفقد وعيه)

أصــوات : من الانف ! دغدغوه من أنفه !
ـ عليه بالمـــاء ٠

يعود تيت الى وعيه)

تـيـت : (يضعف) أهذا صحيح ؟ أوه جوبيتر !

أصــوات : ما لعمل يا تيت ؟

أغريبـــا : أقترح : أن نتوجه الى الجمهور والجيش ٠٠٠

تـيـت : هل جننت ! ٠٠ انتظروا ، دعوني أفكر (يفكر)
(البقية تنظر اليه فاغرة الفم)
وهكـــذا ٠٠٠

أصــوات : استمعوا ! استمعوا !

تـيـت : أقول بوصفي أقدم أعضاء مجلس الشيوخ : علينا ألا نخضع ٠

(هتافات استحسان)

ان أعسطس ، علـى ما يبـدو ، قـد أخطأ • اذ كيف يمكنـه أن يعين حصانه عضوا ؟ عند ذلك أكون أنا أيضا حصـان ؟ (بسخرية مريرة) فحل ؟ على ما يبدو انه لم يُقدّم تقريراً صحيحاً للقيصر، وأن جلالته في سعيه لخير الشعب ،لم يحسب•••

صــــوت : كم عدد الارجل لدى الاحمر ؟

تـيـت : طبعا ، كمية الارجل ، وبوجه عام •• ولكني أعتقد أن القضية هنا لا تتعلـق بالارجل : القضيـة في رأيي أعمق من هـذا ، وتحتاج الى أن نتوجه الى كاليغولا بعريضة نطلب فيها أن يلغي اختياره الخاطيء ، أو الأصح المتسرع •• غير اللائق •

نصف العضو : (حاكا راسه) حتى أنت ، يا تيت ؟

تـيـت : لتذهب الى بلوتون ! حتى أنت يا تيت ! ما الذي تقصده ؟ هيا انصرف (يختفي نصف العضو على صرخات « هيا ، انصرف ») وعلينا قبل كل شيء أن نشير لجلالته الى خدمتنا ، والى كفاءتنا التي تحتم ضرورة ضم أعضاء جدد من ••

صــــوت : من الحيوانات •

تـيـت : أجل ، من الحيوانات ألسنا نحن الذين وافقنا وسكتنا عندمـا نهب القيصـر الشعب كله ، وبـذّر الاموال في الاحتفـالات الليلية ، وحملات السحرية ؟ لقد سكتنا عندما أذاب الجواهر في الخل ، و حتسى ذلك الشراب الباهظ الثمن ، وقليل الفائدة • نحن سكتنا أيضـا عندما قـذف بالمواطنـين الرومـان طعاماً لوحوشـه في القفص • أما نفسي ، أذكـر اني بحثت في هـذه القضية ، وتوصلت عندها الى اعتقاد أنه ـ فعلا ـ في حالـة علام المدخرات يكون مثل هذا الطعام •••

أصـــوات : اختصر ! نعرف هذا !

تيـت : لقد سكتنا عندما توجه في مسيرته الى بريطانيا وأخذ يكـذب ويقول من هناك ، انه يحقق النصر ، في حين انه نفسه كـان يجمع الأصداف عند الشاطيء ، لقـد سكتنا أيضاً عندما امر بقطع رؤوس الآخرين ليضع رأسه عوضاً عنها . وما دام الأمر على هذه الصورة ، لماذا اذن يوجه اليـا مثل هذه الاهانـة ؟ ما ذنبنا ؟ (يبكي) اني شيخ طاعن في السن ، واب للوطن ، لا أقوى على تحمل أي حصان أحمر .. (يبكي) .

منيلنـي : (يبكي) الاحم .. الاحمر ...

تيـت : (ينتحب) وهو قد ارتدى الثوب .. ارتدى الثوب .. يعمل فعلته في المكان الذي أجلس بجانبه تماما ، عقابا على أي شيء ؟ اني أسأل : ما هو ذنبنا ؟ ما هي جريمتنا ؟ ألسنا نحن الذين سكتنا ، عندما ..

أصـوات : كفـى !

- يجب أن نطالب
- ليس لنا أي ذنب
- يجب أن نطالب
- ليسقط الحصان اللعين !

أغريبـا : اني أحتج ! يا أعضاء مجلس الشيوخ ثوبوا الى وعيكم !

الأصـم : (يجمجم كالعجائز وأنا أصوّت بنعم ، نعم ، نعم !

أغريبـا : علينا الا نرجو ، بل أن نطالب يا شيوخ الرومان ، اذا كنـا مذنبين في شيء ، فليحددوا لنا عقاباً في المحكمة ، ولكـن أن يكون الامر هكذا ! على حين غرة ، واذا بحصان .. ما هذا ؟ كثيرون هنا أشاروا الى اللون الاحمـر للفحل في اعتقـادي أن القضية ليست في اللون ، بل في أن ننهض جميعا ، وأن نخرج من هنـا .

اصـــوات : لنخـــرج ٠
ـ لنترك مجلس الشيوخ ٠

أغريبـــا : (مصغياً الى نفسه) وعندما نغطي جميعاً رؤوسنا بالثـوب ، تعبيرا عن اليأس العابس، وعن كبرياء عدمالخضوع للقدر ٠٠٠
(تنشأ حركـة عند المـدخل ، يظهـر القنصـلان ، وحـرس لامبراطور ، وأفراد الشرطة ، وهم يصرخون « الى أماكنكم ! الى أماكنكم ! أخلوا الطريق للامبراطور ٠ »
(يتمرق الاعضاء الذين أحاطوا بأغريبا ، ويركضون بسرعة الى أماكنهم) ٠

(غير منتبه) ومن سيبقى في المجلس عند ذلك ؟ من سـيعقد الاجتماعات ؟ الاحمـر وحده ٠ في هـذا المكان حيث يـرون صاحب الـ ٠٠

حـــارس : (دافعا اياه) افسح الطريق !

(يثوب أغريبا الى رشده ، ويهرع الى مكانه ٠ حركة صاخبـة وضوضاء ٠ الاعضاء القدامى ، وقد فقدوا صوابهم ، يتيهون في أماكنهم ، وأماكن غيرهم ، ويأخذون بالنزاع ٠ يمـر كتّاب القلـم ، وتبرز رؤوس أنصـاف الاعضاء من جميـع الزوايا والشقوق لوضع بيان ذكي عن الاجتماع ٠ ويرابط الحـرس عند منافذ الخروج ٠ يظهر كاليغولا برفقة حشد من المتمّمين المقرّبين ، وذوي الرتب العالية من رجال الامن ، وآخرين من ذوي الرتب الحربية الهامة ٠ انه سكران ٠ ويسنده من تحت ابطه اثنان من الاصدقاء هما (بريسك) و (دبيون) ٠ على رأس القيصر أكليل من الذهب ٠ عيناه صغيرتان متفتحتان ، ناعستان وثمرستان ٠ يسحب القيصر قدمه عابثا ويرسم بهـا دوائر على الارض ٠ الا أنه فجأة يدفع الصديقين ضاحكا ويدخل

بشيء من الثبات ، الشرفة القيصرية المرتفعة (تقع في الزاوية اليمنى من مقدمة المسرح) . وتحتل الحاشية مكانها الى جانبه . عندما يحتل كاليغولا مكانــه ، يقف مجلس الشيوخ بكاملــه ويستقبله بعاصفة من التصفيق والهتاف . وتدوّي زعقــات « عاش القيصر ، عاش القيصر » . يتفحص كاليغولا الزاعقين دون أن ينحني ، ومن ثم يلوح بيديه : «كفى» يخمت الزعيق، ويجلس الاعضاء ، ويفتتح القنصل الاول الجلسة . »

القنصل الأول : يا أعضــاء مجلس الشــيوخ الرومانـي ! ان القيصــر بسعيه الدائم لخير الشعب الروماني ! وازدهار الجمهورية ، يتعطف ويأمر بتعيين عضو جديد في مجلس الشيوخ ، غير متردد امام التضحيات مهما ثقلت على قلبه العظيم . ان كاليغولا في صالح احتياجات الدولة ، يتنازل عن الحـ . . . حـ . . حصا . . .

القنصل الثاني : (هامساً) حصانه .

القنصل الأول : عن حصانــه . ولسوف يشرفنا هــذا الاخير بزيارتــه من الآن فصاعداً بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ ، وأياً للوطن ونحن ســعداء . . .

كاليغــولا : (بصوت عال) ماذا تهرف ؟ أوقفه يا بريسك ، وقل له أني سأركب الاحمر . ما الذي يختلقه هذا الاحمق !

بــريســك : (بكسل) اسمع ، أنت ! . . .

القنصل الأول : أجل ، أعرف . وان عطف القيصر لعظيم بحيث انه لن يترك العضو الجديد ، بل انه يشمله سلفاً برعايته ، وسيقوم عليــه ـ كما يقال ـ بالتمارين . . .

القنصل الثاني : وبناء على أحكام التوصية ، فان كل عضو في أوقات الفــراغ يمكن أن يكون ذا نفع ـ أو كمــا يقال ـ (مكيفاً) بوجــه عــام . . .

كاليغــولا : (بصوت عال ، ومعصب) قل له ، متى أشاء !

القنصل الأول : (بعجلة) واذ أن خدمـــة القيصر هي أولى وظائف الدولـة وأهمها ، بل وأكثرها قدسية من بين الواجبات ، فان العضو الجديد سيكون دائماً على أهبة الاستعداد للقيام بهذا الواجب.. اقصد التمارين . وأخيراً اني سعيد بتبليـغ المجلس سـرور الامبراطور من أنكم ، يا أعضاء مجلس الشيوخ ، بوعيكـم لبواجب الملقى على عاتقكم ، قد اجتمعتم بهده السرعة فيجلسة اليوم . أما الان فارجو أن يسا ... أن يحضر ...

القنصل الثاني : أن يدعى .

القنصل الأول : أن يدعى الاخ .. العضو الموقر .

(الجميع يطر بنفعال . عدد من الساسة يقودون الحصان الأحمر الشاهق ، الذي أخذ يحطو بقوة على الأرض الحجرية . الحصان رائع بالفعل ، انه مستثار بعض الشيء ، ويحوّل عينيه المتكرتين السواداوين في قلق . وقد ألقي على الحصان ثوب مجلس الشيوخ عوضا عن الجلة)

كاليغــولا : (يدمدم بغبطة) يا له من حصان ! كم هو رائع يا بريسك ؟

القنصل الأول : ما بكم يا شيوخ روما ؟ هيا حيوا الحصان . عاش الحصان ! يهض الاعضاء ويحيون الحصان بصرخات عاليـة ، وبصوت واحد : « عاش ! » .

كاليغــولا : (يحث بعينين ناعستين) هل نهض الجميع يا بريسك ؟

بريسك : الجميع .

كاليغــولا : (متنهدا) أنظر بشكل جيد ، قد يكون هناك من لم ينهض ؟

بريسك : لقد نهض الجميع ، يا سيدي .

كاليغــولا : هات الخمر (يرفع الخمر ، وينظر بغضب على الحشد)

(اجتمع حول العضو الجديد فئة من النبلاء المميزين ، الذين

راحوا ، بابتسامة لطيفة ، يربتون على ظهره ورقبته . يتهيج الحصان) .

بريسك : ألا يبدو لك أيها المعظم ، أن هؤلاء المعجبين الجدد يرعجون الاحمر كثيرا ؟

كاليغـولا : آ ؟ (يصرخ) قل أن لا يلمسه أحد ! اطردهم . اطردهم جميعاً .

القنصـل : القيصر يطلب أن لا يثقل على العضو بالملطف الزائد .

كاليغـولا : اطردهم ، اطردهم .

القنصـل : (بعجلة) وأن يلزم كل مكانه .

(يصرف) النبلاء الى أماكنهم ، وهم يصمتون ، ويبتسمون تعبيرا عن فهمهم . يسود هدوء شامل . يتبادل الاعضاءأطراف الحديث بصوت منخفض ويرتسم على وجوههم تعبير الولاء ، حتى إن أحدهم يتثاءب بولاء أيضاً مظهراً أن كل شيء يجري على ما يرام .)

كاليغـولا : (عابسا) أهذا كل شيء ؟

بـريسـك : (متثائباً) وماذا تريد أكثر من هذا يا سيدي ؟ ها هو أحمرك قد قبل في مجلس الشيوخ بجدارة .

كاليغـولا : بجدارة ، بجدارة ، وهل هذا شيء ممتع ؟

بـريسـك : لا . ولكنني قلت لك : لنعيّن لهم ديكاً !

المقرب الثاني : لكان الامر نفسه مع الديك أيضا !

كاليغـولا : ما هذه الترهات ! أي ديك هذا ؟ اني أحب الاحمر ولا أريد أي ديك ! أنت نفسك ديك ! ماذا يعني هذا يا بريسك ؟ هذه حسرة ! اتفهم ؟ اني سأمن واريد أن أتهيج ، أما هم فلا يستطيعون شيئاً . (يبكي) تباً لبلوتون ، اني أبحث عن المشاعر .. القوية ؟ ايه ما هذا السأم يا أفروديت ؟

بـريسـك : اهدأ يا سيدي ، فأنت تمزق قلوبنا من الألم ...

كبير الشرطة : (يستل سيفه) أيها السفلة ! لقد أزعجتم القيصر ٠
المقرب الثاني : اهدأ ! ان صحتك ضرورية للوطن ! قد توفق الى شيء آخر ٠٠
كاليغـــولا : (مستحيا) نوفق ! وكيف ! اني أعرفهم جيدا !٠٠
بـــريســك : ان ميبي سوف يقول كلمة ترحيب بالحصان ٠٠٠٠
كاليغـــولا : (يكف عن البكاء) ميبني ! هل جننت !
بـريسـك : (دون اكترث) ولم لا ؟ انه نبيل ذائع الصيت ، ينحدر أصله مباشرة من سلالة نوما بومبيلي (٦) انه شخصية محترمة ، وسمعته لا غبار عليها ، وهو فوق ذلك محترم من قبل المجلس٠٠
كاليغـــولا : منيني ؟ انه يخطب في حفلات التأبين فقط ٠ ما زلت أذكر كيف ألقى كلمته عندما خنقوا أبي بأغطية الفراش ٠ لقـد بكيت آنذاك ٠٠ (يبكي ثانية)

بـريسـك : اهـدأ يا سيدي ، خفف من حساسيتك ، ان هـذا هو الممتع في الامر ٠ فهو قد اعتاد أن يخطب في حفلات التأبين ، فليغير من عادته الان ٠ اننا ، مع القنصل ، قد اخترناه عن قصد ، كي نضحك ٠

(يضحك المقربون ، وبعد أن يفهم كاليغولا الامر ، ينضم اليهم ويضحك بصوت عال) ٠

كاليغـــولا : ليكن ! ليخطب اذن ميبي !
اصـــوات : ميني !
ــ ميبي ! ٠٠٠

خطبة منيني

أيها السيد كاليغولا ، وأنتـم يا أعضاء مجلس الشيوخ الروماني :

---

(٦) نوما بومبيلي حاكم أسطوري في روما القديمة (نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع ق ٠ م)

يا للخسارة الفادحة ٠٠ اهم ٠٠ أهم ٠٠٠ التي كما قد تعرضنا لها لو ان جلالة القيصر لم يمن هذا الـ ٠٠ كيف يدعى ٠٠ اهم ٠٠ الـ ٠٠ العضو ٠ ويا للفضيحة الروحية القاضية ، التي كانت قد حلت بنا جميعاً ، نحن المجتمعين هنا على ٠٠ تحت ٠٠ على ما هو ليس هناء أبدا ٠ أجل لو أن الامبراطور قد ضنّ بفحله ، ولم يعطه بثوب مجلس الشيوخ٠ ان الدموع تختفي لمجرد التفكير ٠٠٠ يا آباء الوطن لقد عرفتموه جميعا ، وأحببتموه ، ولا يحتاج الامر لان أعيد الى ذاكرتكم ميزاته الخالدة ، أجل ، الخالدة ٠ كيف كان يتكلم ! وكيف كان يبدو رافعاً ذنبه كالقضيب في الميدان الامبراطوري، وكيف كان يرتع ويمرح بوجه حام ٠ أما الان ، فماذا نرى ؟ انه يجثم ٠٠٠ (يبكي) واذا كان هذا الاجتماع بالنسبة لنا ، نحن الذين نملك اثنتين من الأرجل مرهقاً ٠ ولا يطاق ، خاصة في أوقات الصيف ، فأية فائدة يجنيها هو ، أجل بأرجله المتعددة ويديه ؟ لنقدم له فرائض الاحترام مرة أخرى بالنهوض ، وبالشكر والعرفان لاغسطس العظيم الذي لم يضنّ على مجلس الشيوخ حتى بفحله العزيز (يبكي ويجلس) ٠

(ينهض الجميع ، ويحيون « عاش » ٠ شمك ، ويضحك الجميع أيضاً في الشرفة القيصرية ما عدا كاليغولا الذي لم يفهم بعد ما الباعث على الضحك) ٠

كاليغولا : ماذا في الأمر ، هل خطب جيداً ؟

المقرب الثاني : في رأيي ، انه خطب بشكل جيد ٠

بريسك : وفي رأيي أيضا ٠ ما عدا الكلمات الاخيرة ٠٠٠

المقرب الثاني : بل حتى الكلمات الاخيرة ٠٠ اذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، الاخلاص العميق للخطيب ، ودموعه ٠٠

(يضحكون من جديد يتفحص القيصر الجميع بارتياب · وفجأة ينقلب الى العنف ·)

كاليغولا : أخرسوا ، أنتم ، أيها العبيد ! سأريكم ، سأريكم جميعا (يلهث بشدة) ·

(يسود صمت كالقبر ، ينهض كاليغولا ، ويصرخ عبر حاجز الشرفة » هيّ ! أنتم ، يا آباء الوطن ، أيها العبيد ، لتكفوا عن ·· هذه الـ ·· اني أعرفكم جيداً ، من سمح لكم بالضحك ؟ لن تجرؤوا على الضحك ! هـذا حصاني ! وان ضحكتم فسوف ·· سوف ·· اخرسوا جميعا أيها الاوساخ والا أمرت بجلدكم بالسياط ، بالسياط ·· اخرسوا ·· من أنا ؟ أنا · لقد قطعت رأس كاستور ، ورأس بولوكس (٧) ، وسآمر بقطع رؤوسكم ، لقد سئمت ، ان شئت جعلت الفحل عضوا ، وان شئت جعلتكم جميعا فحولا ، وأطلقكم في الميدان لتعدوا أمامي · هل تسمعون ؟ سأركب لكم أذناباً يا أعضاء مجلس الشيوخ العفن · هل سمعتم ؟

(يجلس ويشرب الخمر ، وهو ينظر الى المقرّبين بأعين دموية· هؤلاء يهمسون فيما بينهم) ·

بريسك : يا لها من خطبة ! ان هذه واحدة من أروع الخطب ·

كاليغولا : (يشرب) هكذا !

المقرّب الثاني : وفكرة الذنب ! يا لها من فكرة !

كاليغولا : كفى ! لقد سئمت · ليخطب أحد ما هناك ، على شرط ألا تكون خطبته لغوا ، بل خطبة حقيقية ·

---

(٧) كاستور وبولوكس ، توأمان في الميثولوجيا ، وهما ابنا جوبيتر وليدا زوجة القيصر الاسبارطي تيندورا · اشتهر كستور بقيادة المركبة وترويض الجياد ، اما بولوكس فقد اشتهر بفن المصارعة ·

بـريسـك	:	يبدو أنه جاء دور مارتسيل !
كاليغـولا	:	آ ! العجوز المريد ! وهل هو لا يزال على قيد الحياة ؟
بـريسـك	:	انك نسيته يا سيدي ٠
كاليغـولا	:	وأنت لم تستطع أن تذكّرني ! دعه يخطب ٠ مارتسيل !
أصوات خجولة	:	« مارتسيل » ، « مارتسيل » ٠

خطبة مارتسيل

مرحباً يا سيدي أغسطس الفريد ! مرحباً أيها الشيوخ ! ومرحبا أيهـا الجديـد الموقر ! (يعني للحصـان) ٠ اني محارب ولست خطيبا ٠ أن أقارع بالسيف أجدر بي من أن أتفوه بالكلمات الخفيفة وأرجو أن تعذروني سلفا ، ذلك أن كلمتي لن تكون بليغة بما فيه الكفاية ٠ سأحاول تعويض هذا النقص باستقامتي الحربيـة ، وبشرف مواطن روماني قديم ٠ أجل ، أنت على حق يا كاليغولا ، أنت على حق في كل شيء ٠ لقد كنت على حق عندما غضبت ، وأردت أن تخرس الذين ضحكوا ، اني ، من كل قلبي ، أؤيد كلماتك العميقة : « اجلدوهم بالسياط ' » انهم يحلفون اليمين وينقضونه ،انهم دائما يتفوهون بالترهات والسخافات ، أما هو فوحده الذي يصمت بكبرياء ٠ من في المجلس من هو أجدر منه ! من منهم يستحق أن يكون عضوا ان لم يكن الفحل الاحمر ؟ غير أني آخذ عليك يا سيدي وقوفك في منتصف الطريـق ، أنت لـم تتم حتى النهاية ما شرعت به ، ولم تختتمه بتنازلك للاحمر عن التاج ، وعن المجلس ٠٠٠

(كاليغولا لم يفهم بعد ، يهمس له المقربون بشيء ما ، الا أنه يشيحهم عنه بيده) ٠

اجعل اذن الأحمر قيصراً كما جعلته عضواً لتزين به حكام روما · ما لي أرى وجهك قد احمّر من الخجل ، هل تشك في استحقاق الشعب الروماني ، الذي تكرهه ، لمثل هذه الهبة ؟ هدّىء من روعك · فالشعب يستحقها · انه قد احتمل بصمت وخنوع ، سنوات طويلة بهيجة مثلك بائنتين من الأرجل، لهذا فان حيواناً بأربع أرجل لن يكون بالنسبة لهم الا خطوة جديدة في الطريق الى المجد ·

(ترتفع الصيحة، ويتجه أفراد الجيش بسرعة نحومارتسيل للقبض عليه ، كثيرون من الاعضاء ينسحبون خوفا مما سيقع · كاليغولا يزعق بعنف اقبضوا عليه ! سأقذف بك الى الوحوش الضارية أنا ···)

مارتسيل : (ينحني) لقد أنهيت كلمتي !

(ترتفع الضجة أكثر ، ويهرب الجميع · أفراد الجيشيلقون القبض على مارتسيل) ·

□ ■ □

محبـــة القـــريب

مسرحية من فصل واحـد

مكان موحش في الجبال • فوق صخرة عالية ترتفع عموديا الى حد ما من الارض ، وعلى نتوء صغير فيها ، وقف انسان في وضعية يائسة • كيف توصل الى هناك ، هذا ما يصعب شرحه بيد أن انقاذه لم يكن ممكنـاً لا من الأعلى ولا من الأسـفل • فالعصي والحبال والسلالم القصيرة تدل على أنه بذلت بعض المحاولات لانقاذ المجهول ، الا أنها كانت مخفقة •

من المرجح أن المسكين ظل على هذا الوضع اليائس فترة طويلة ، فقد اجتمع في الاسفل زحام كبير مختلف في تكوينه ، ويضم مقهى بكامله يدور حوله نادل يلهث ويتصبب عرقا ، فعليه وحده أن يلبي جميع الطلبات • ويضم الزحام أيضا بائعي المرطبات ، وبائعين متجولين يخطرون بالاعشاب البحرية ، والهدايا التذكارية ، وبطاقات البريد ، ومختلف الترهات • ثمة شخص يحاول جاهدا بيع مشط بدا وكأنه مصنوع من درع السلحفاة • يستمر توافد السياح منجذبين بما سمعوه عن وشك وقوع كارثة مؤكدة ، من بينهم انكليز ، والمان ، وروس ، وفرنسيون ، وايطاليون ••• بكل ميراثهم القومية في الطباع والتصرفات والملابس • الجميع تقريبا يحملون عصيا للتسلق ، ومناظير مقرّبة ، وأجهزة تصوير • اثنان من الشرطة المرفاه يطردان الأولاد بعيداً عن أسفل الصخرة ، حيث يُفترض أن يسقط المجهول ، ويسيّجان المكان بحبل رفيع ثبّت على أوتاد ، هرج ومرج •

الشرطي ١ : ابتعد أيها الشقي اذا وقع على رأسك ، فماذا يقول أبوك وأمك ؟

الولد : وهل سيقع هنا ؟

الشرطي ١ : نعم . هنا

الولد : واذا وقع أبعد ؟

الشرطي ٢ : الولد على حق . اذ انه بدافع اليأس قد يقفز ويجتاز الحبل ويسبب بذلك مشكلة للمتفرجين . انه يزن لا أقل من أربعة بوندات .

الشرطي ١ : ابتعدي أيتها البنت ، إلى أين تزحفين ؟ ياسيدة هل هذه ابنتك؟ أرجو أن تأخذيها . ان الشاب سيقع الآن ..

السيدة : الآن ؟ آه يا الهي ! ولكن زوجي ليس هنا

البنت : انه في المقهى يا أمي .

السيدة : (في يأس) طبعاً ، دائماً في المقهى ! أدعيه يا نيللي ، وقولي له انه سيقع الآن . بسرعة ! بسرعة !

اصـــوات : أيها النادل

- يا جرسون
- أيها الرجل
- بيرة
- بيرة لا يوجد
- ماذا ؟ ما هنا ؟ المقهى الحقيقي ...
- سيحضرون الآن !
- استعجلوا !
- أيها لنادل
- يا نادل
- يا جرسون

الشرطي ١ : مدت مرة ثانية يا ولد !
الولد : أردت أن أرفع ذلك الحجر .
الشرطي ١ ولماذا ؟
الولد : حتى لا يكون وقوعه أليماً .
الشرطي ٢ : الولد على حق ... الأحجار يجب أن ترفع .وعلى وجه العموم، إن تهيئة المكان أمر ضروري . ألا يوجد هنا نشارة أو رمل ؟

(يقترب اثنان من السياح الانكليز . ينظران الى الرجل المجهول في النظارات المقربة ، ويتبادلان الملاحظات)

الاول : شاب !
الثاني : كم ؟
الاول : ثمانية وعشرون
الثاني : ستة وعشرون
الاول : الرهان ؟
الثاني : عشرة مقابل مئة . سجل !
الاول : (متوجها الى الشرطي وهو يكتب) قل لي من فضلك ، ماذا أوصله الى هناك ؟ وماذا يمنع من انتشاله ؟

الشرطي : لقد حاولوا ، ولكن دون جدوى ، فالسلالم كلها قصيرة .
الثاني : وهل هو هناك منذ فترة طويلة ؟
الشرطي : منذ يومين .

السائح ١ : أو ــ هو ! في المساء سيقع حتماً .
السائح ٢ : بعد ساعتين . مائة مقابل مائة
السائح ١ : سجل ! (ينادي صارخا على الرجل المجهول) كيف حالك ؟ ماذا ؟ لا أسمع .
المجهول : (بصوت ضعيف لا يُسمع) سيئة جداً .
السيدة : آه ! يا الهي وزوجي ليس هنا .

البنت : (تقترب راكضة) يقول انه لم يحن الوقت بعد ، انه يلعب الشطرنج مع احد السادة

السيدة : آه ! يا الهي · قولي له يا نيلي اني مصرة ·· على فكرة ،هل سيقع على العور أيها السيد العريف ؟ لا ، يا نيللي الافضل أن تذهبي أنت ، أما أنا فسأحجز مكانا لابيك ·

(سيدة طويلة القامة ، نحيلة ، ذات شخصيـــة مستقلة وعدائية تنازع أحد السياح على المكان · السائح قميء القامة، واهن القوى ، وهادىء يدافع عن حقه بضعف ·)

السائح : ولكن هذا مكاني يا سيدة · اني اقف هنا منذ ساعتين ·

السيدة العدائية : وما شأني أن تقف هنا منذ ساعتين أو أكثر ؟ أريد أن أقف هنا، هل فهمت ؟ من هنا ستكون الرؤية أفضل ·

السائح : (بضعف) ولكن من هنا ستكون الرؤية أفضل بالنسبة لي أيضاً·

السيدة العدائية : قل لي من فضلك ! وهل تفهم أنت شيئا في هذا الامر ؟

السائح : وما حاجة هذا الى الفهم · انسان يجب أن يقع ، هذا كل ما في الامر ·

السيدة العدائية : (تقلده) انسان يجب أن يقع ، هذا كل ما في الامر ! قل لي من فضلك ! وهل رأيت أنت كيف يقع الانسان ؟ تكلم ؟ لا؟ أما أنا فقد رأيت ثلاثة : بهلوانيين ، وراقصا على الحبل ، وثلاثة ملاحين يعملون على المنطاد ·

السائح : المجموع ستة ·

السيدة العدائية : (تغيظه) المجموع ستة ؟ يا لمواهبك الرائعة في الرياضيات · قل لي ، وهل رأيت بأم عينك كيف يمزق قميص احدى النساء في قمص ؟ آ ؟ ماذا ؟ هكذا ! أما أنا فقد رأيت ! من فضلك ، من فضلك ·

(يبتعد السائح مهاناً ، أما السيدة النحيلة فتجلس شامخة الانف وتصف حولهـا محفظه ، ومناديـل أنف ، وأقراص نعنـاع ،

وزجاجة مملوءة بالاكسير ، ثم تنزع القفازات ، وتمسح زجاج انظارات المقرّبة وتنظر فيها بسرور الى الناس المحيطين بها · توجه حديثها الى السيدة التي تنتظر عودة زوجها من المقهى·)

السيدة العدائية : (بعطف) سوف تتعبين هكذا يا عزيزتي · أجلسي ·

السيدة : آه ، لو تعلمين ، لقد نملت رجلي تماماً ·

السيدة العدائية : ما اوقح رجال اليوم ، أصبحوا لا يتخلون عن أماكنهم للنساء · على فكرة ، ألم تحضري معك أقراص نعناع ؟

السيدة : (بخوف) وهل هي ضرورية ؟

السيدة العدائية : الانسان يصاب بالدوار حتماً عندما ينظر طويلاً الى الاعلى · وهل معك روح النشادر ؟ لا ؟ يا لهي ، ما اخف عقلك ! كيف سيميدون اليك وعيك عندما يقع ؟ وليس معك اكسير ؟ ما دمت أنت نفسك على هذه ··· أيعقل أن لا يكون عندك من يستطيع أن يهتم بأمرك ؟

السيدة : (بخوف) سأقول هذا لزوجي ، انه في المقهى ·

السيدة العدائية : زوجك سافل !

الشرطي : لمن هذه السترة ؟ من قذف بهذه الخرقة البالية ؟

الولد : أنا ، أنا قذفت بالسترة حتى لا يكون وقوعه أليما ·

الشرطيان : يجب أن ترفع ·

(بعض السياح المجهزين بآلات تصوير ماركة كوداك ، يتنازعون الاماكن المريحة ·)

الاول : أنا أردت أن أقف هنا ·

الثاني : انت أردت ، اما أنا فقد وقفت ·

الأول : أنت وقفت الآن فقط ، أما أنا فقد وقفت هنا يومين كاملين ·

الثاني : ولماذا غادرت المكان ولم تبق ظلك على الاقل ؟

الأول : عليك اللعنة · طبعا لن أبقى هنا حتى أفطس من الجوع ·

بائع الأعشاب البحرية : « في السر » مصنوع من درع السلحفاة ٠

السائح : (بعنف) وبعد ؟

البـــائع : مصنوع من درع السلحفاة الحقيقي ٠

السائح : اذهب الى الشيطان ٠

السائح ٣ ـ مصور: سيدتي ، كرامة لله ، لقد جلست على جهاري ٠

سيدة شابـة : آه ، وأين هو ؟

السائح : انه تحتك ، تحتك !

السيدة الشابة : اني تعبة جدا ! اللعنة ما أكره جهازك ، وأنا أقول لماذا جلستي ليست مريحة ، هذا اذن لانني أجلس على جهازك ٠

السائح : (في يأس) أيتها السيدة !

السيدة الشابة : وأنا ، هل تتصور ، فكرت أنه حجـر ٠ رأيت شيئاً ما يرقـد هكذا ، فرحت أفكر : هل يعقل أن يكون حجراً ، لماذا هو أسود اللون ذن ؟ ثم يتضح انه جهازك ٠

السائح : (في يأس) سيدتي ! كرامة لله ! ٠٠

السيدة الشابة : ولكن ماالسبب في أنه كبير الى هذا الحد ، الاجهزة تكون عادة صغيرة ، أما هذا فكبير ٠ أقول ٠ الحق انني حتى لم أشك في أنه جهاز ٠ ايمكنك تصويري ؟ طالما تمنيت أن تؤخذ لي صورة على (خلفية) من الجبال في مثل هذا الوضع ٠

السائح : كيف أستطيع أن أخذ لك صورة وأنت عليه !

السيدة الشابة : (تتقفز خاضعة) صحيح ؟ لماذا لم تقل لي ؟ هل يصوّر الآن ؟

أصـــوات : أيها النادل ، بيرة !

ـ لماذا لا تقدمون البيرة ؟

ـ لقد طلبت لكم منذ فترة طويلة ٠

ـ ماذا تأمرون ؟

ـ الآن

ـ هذه اللحظة •
ـ أيها النادل !
ـ أيها النادل !
ـ مرشاة أسنان •
(يدخل سائح سمين لاهثاً ، تحيط به أسرته الكبيرة العدد)

السائح : (يصرخ) ماشا ! ماشا ، بيتيا ! أين ماشا ؟ آه يا الهي ، أين ماشا ؟

رياضي : (ببرود) انها هنا ، يا أبي •

السائح : ولكن أين هي ؟ ماشا !

الصبية : انا هنا ، يا أبي •

السائح : اين أنت ؟ (مستديرا) اه ، هناك ؟ ومن يقف ورائي ؟ انظري بسرعة ، انظري ! الى أين تنظرين ، يا الهي !

الصبية : (ببرود) أنا لا أعرف ، يا أبي •

السائح : لا ، هذا أمر لا يطاق ! تصوروا انها لم تر البرق ولا مرة • تحدق طويلا بعينين كبيرتين كالسطلة ، وما إن تبرق حتى تمدقهما • وهكذا فانها لم تر ولا مرة ! ماشا ، عدت لتتثاوب ! انه هناك ، هل ترين !

الرياضي : انها ترى يا أبي •

السائح : ـ اقبها (وفجأة يتحول الى لهجة أسى عميقة) آه ، أيها الشاب المسكين ! تصوروا ، أيصدق أنه سيقع حتماً ؟ انظروا يا أطفالي ، كم هو مسكين • أرأيتم ، هذه هي عاقبة التسلق •

الرياضي : (ببرود) انه لن يقع اليوم يا أبي •

السائح : هراء ! من قال هذا ؟

صبية أخرى : أبي ، ماشا أغلقت عينيها مرة أخرى •

الرياضي ١ : دعني أجلس يا أبي ، أقسم أنه لن يقع اليوم ••• لقد قال

لي هذا بواب الفندق . أنا لم أعد أحتمل أكثر ، فأنت تتسكع بنا في مختلف المعارض من الفجر وحتى الليل ...

السائح : والمصلحة من أفعل هذا كله ؟ تكلم ! أتفكر أن مع سخيف مثلك ، يحلـو الـ ...

الصبية ٢ : ابي ، ما شا تعمز ثانية .

الرياضي ٢ : لن أحتمل أكثر من هذا ، فأنا أحلم دائما بأحلام مرعبة ، لقد حلمت اليوم طوال الليل بالعدم .

السائح : بيتيـا .

الرياضي ١ : وأنا أيضا هزلت ولم يبق مني سوى اللحم والعظم . لن أحتمل أكثر يا أبي . اجعل مني راعيا للاغنام ، أو للخنازير ...

السائح : ساشا !

المهم أن يقع بالعمل ، اذ انهم يلفقون عليك مختلف الاكاذيب وانت تصدق ، وصاحك بيديكر (*) إنه يكذب أيضاً .

ماشا : (ببرود) يا أبي ، ايها الاطفال ، انه يبدأ في السقوط .
(الرجل المجهول يصرخ من الاعلى ، حركة عامة ، أصوات « انظروا انه يسقط » ترتفع المناظير المقربة ، بعض المصورين يتنافسون ، و (يقرقعون) بآلات التصوير .)
(الشرطيان يطليان مكان السقوط بنشاط وحيوية »

مصور : تبآ للعجلة اللعينة ! ماذا أنا ...

مصور ٢ : يا زميل ، العدسة عندك مغلقة .

الأول : اللعنة على الشيطان !

أصوات : هدوء ! انه على أهبة السقوط .
ـ لا ، انه يقول شيئاً ما .

(*) بيديكر ـ دليل للسياح يحمل اسم ناشره كارل بيديكر الذي نشر عدة أدلة للسياح في عدد من الـدول .

ـ لا ، أبدا . انه يسقط .

ـ الهــدوء .

المجهول : (بصوت ضعيف) أنقذوني ! ..

السائح السمين : آه ، أيها الشاب المسكين ماشا ! بيتيا ! يا لها من مأساة : السماء صافية ، والطقس رائـع ، وعليـه أن يسقط الآن ، ويترضض جسمـه حتى الموت . هـل تتصور يا ماشا كـم هذا مرعب !

الرياضي : (ببرود) أتصور .

السائح السمين : وأنت يا ماشا هل تتصورين ؟ انظري ، هــذه هي السماء ، والناس يأكلون ، كل شيء عذب ، أما هو فعليه أن يسقط ! يا لها من مأساة ! بيتيا ، هل تذكر هاملت ؟

الصبية ٢ : (همسا) هاملت ، أمير د نيماركي من السيموري .

بيتـا : (متجهماً) من هيلسيغفوري ، أعرف . لماذا تحاول اغاظتي يا أبـي ؟

مـاشا : (ببرود) انه يحلم طوال الليل بالحدم .

ساشـا : الافضل أن نطلب (اسندويش) .

بائع الاعشاب السحرية : (في السر) مصنوع من درع السلحفاة الاصلي .

السائح السمين : أهو مسروق ؟

البــائع : لا يا سيدي ، معاذ الله !

السائح السمين : (بغضب) ان لم يكن مسروقاً ، فكيف يكون أصلياً ؟

السيدة العدائيـة : (بلطف) كلهم أطفالك !

السائح السمين : أجل أيتها السيدة . هذه واجبات الاب ... الا أنهم يعقون كما ترين . انه الشقاق الابدي بين الآباء والبنين . سيدتي هنا تحدث مأساة مخيفة ، يتقلص لها القلب من شدة الالم ... ماشا ، عدت للغمز ثانية !

السيدة العدائية : انك على حق ، يجب أن يكون الاطفال أقوياء . ولكن لماذا تسمي هذا بالمأساة المخيفة ؟ ان أي انسان يعمل فوق أي سطح يسقط من ارتفاع كبير . كم الارتفاع هنا .. مائة ، مثلا قدم ؟ اني رأيت كيف يسقط الانسان مباشرة من السماء .

السائح السمين : (ببساطة) أحقا ما تقولين ! حاشا ، يا أطفالي ، اسمعوا! مباشرة من السماء !

السيدة العدائية : نعم . ملاح يعمل على المطاد ، سقط من الغيوم ، بم — م م على السطح الحديدي .

السائح السمين : يا للفظا ... عة !

السيدة العدائية : هذه مأساة حقيقية ! لقد صبوا علي الماء من المضخة طيلة ساعتين ليعيدوا اليّ وعيي . الانذال كادوا أن يغرقوني ! منذ ذلك الحين وأنا أحمل معي ملح النشادر .

(تظهر فرقة جوالة ايطالية من المطربين والموسيقيين . أحدهم ذو صوت (تينور) قميء الشكل ، سمين ذو لحية حمراء ، وعينان كبيرتان ، غبيتان . وهو يغني بصوت عذب غير مألوف. وآخر أحدب هزيل يرتدي قبعة راكبي الخيل ، ويغني بصوت « بارتيون » دي صريس . أما ذو صوت « الباص » فيشبه قطاع الطرق ويعزف على المندولين . ويسحب وراءه فتاة رفعت عينيها الى الاعلى بحيث لم يظهر منهما الا البياض . الفتاة تحمل كماناً .

يبحثون عن مكان لانفسهم ، ثم يشرعون بالغناء)

الايطاليون : مقطع من أغنية نابولية « سانتا لوتشيا »

« البحر يتلألأ بالشعاع القمري

والريح المواتية ترفع الشراع

زورقي خفيف ، والمجاذيف كبيرة

سانتا لوتشيا ! »

مـاشا : (ببرود) أبي ، أيها الاطفال ، انظروا : أخذ يلوح بيديه .

السـائـح : أيعقل أن يكون هذ بتأثير الموسيقا ؟

السيدة العدالية : جـدا . وعلى وجـه العموم . مثل هـذه الامور تجري عـادة بمصاحبة الموسيقا . الا أنه هكذا سيقع بأسرع ممـا يجب . هي ، أيها الموسيقيون انصرفوا من هنا .. هيا ، انصرفوا !

(يقترب سائح طويل ذو شاربين مفتولين الى الاعلى ، برفقة بعض الاتباع من الفضوليين . انه يشير بيديه بقوة) .

السائح الطويل : هذه فصيحة . .. لماذا لا يقذونه ؟ أيها السادة ، أما سمعتم جميعا ، كيف صرخ « انقذوني » ؟

الفضوليون : (في صوت واحد) كلنا سمعنا .

السائح الطويل : بالضبط ! وأنا أيضاً سمعت ذلك بوضوح كامل ، وعلى وجـه الخصوص هذه الكلمة : أنقذوني . لماذا لا ينقذونه اذن ؟ ان هذه فضيحة ! أيها الشرطي ، يا شرطي ، لماذا لا تنقذه أنت ؟ ماذا تعمل هنا .

الشـرطي : نُعِدّ مكاناً للسقوط .

السائح الطويل : أما ! هذا أمر معقول . ولكن لـماذا لا تنقذونه ؟ عليـك أن تنقذه . هذا واجبك الانساني . مـادام هناك انسـان يطلب الانقاذ ، فلا بد من انقاذه أليس كذلك أيها لسادة ؟

الفضوليون : (في صوت واحد) بالضبط . بالتأكيد . لا بد من انقاذه .

السائح الطويل : (بحرقة) نحن لسنا وثنيين ، اننا مسيحيون ، وعلينا أن نحب الجار . وما دام هذا الجار يطلب الانقاذ فيجب أن تكون قد اتخذت جميع الاجراءات التي تملكها الادارة. أيها الشرطي . هل اتخذت جميع الاجراءات ؟

الشـرطي : جميعهـا .

السائح الطويل : جميعها بلا استثناء ؟ أيها السادة ، لقد اتخذت جميع الاجراءات أيها الشاب ، اسمع ·· لقد اتخذت جميع الاجراءات في سبيل انقاذك · هل تسمع ؟ ·

الرجل المجهول : (بصوت يكاد لا يسمع) انقذوني ! ···

السائح الطويل : (خائر القوى) أيها السادة ، هل سمعتم · لقد صرخ للمرة الثانية « انقذوني » · هل سمعت أيها الشرطي ؟ ·

الفضولي : (بحمل) أرى انه من الضروري انقاذه ·

لسائح الطويل : بالضبط ! طيلة ساعتين وأنا أتكلم عن هذا الامر · أيها الشرطي هل سمعت ؟ هذا أمر فاضح !

الفضولي نفسه : (أكثر جرأة) في رأيي يجب أن نتوجه الى الادرة العليا ·

البقية : (معاً) نعم ، نعم · من الضروري أن تقدم الشكوى ، هذا أمر فاضح ! يجب على الدولة أن لا تترك مواطنيها في خطر · نحن جميعا ندفع الرسوم · من الضروري أن ينقذ ·

السائح الطويل : ألم أقل لكم ، طبعا، من الضروري أن تذهب فنقدم الشكوى ·· أيها الشاب ، اسمع ، هل تدفع الرسوم ؟ ماذا ؟ لا أسمع ·

السائح السمين : بيتيا ، كاتيا ، اسمعوا ، يا لها من مأساة ! آه ، يا للشاب امسكين عليه أن يسقط الآن· ويطلبون منه رسوم الشقة···

كاتيا : (فتاة تلبس النظارات وتتكلم بلهجة تعليمية) وهل يمكن أن يسمى هذا برسوم الشقة يا أبي ؟ ان مفهوم الشقة ···

بيتا : (يقرصها) يا لك من متملقة ···

ماشا : (ببرود) يا أبي ، أيها الاطفال ، انظروا ، بدأ يسقط من جديد ·

(تبدأ حركة في الرحام من جديد ، بنفس الصرخات وضجة المصورين) ·

السائق الطويل : لا بد من العجلة ، أيها السادة يجب انقاذه مهما كلف الامر ! من يتبعني ؟ ·

الفضوليون : (في صوت واحد) كلنا ·

السائق الطويل : أيها الشرطي ، هل سمعت · لنذهب حالا أيها السادة · (يخرجون ملوحين بأيديهم · تنمو الحركة في المقهى ، ويسمع (قرقعة) كؤوس البيرة ، وبداية أغنيــة ألمانية في صـوت مرتفع · الخـادم الذي أنهك تمـاما ، يتنحى جانبا ويرمـق السماء في يأس ، ثم يمسح وجهه المتغضّن بالعرق · أوامر عنيفـة) ·

ـ « أيها النادل ! يا نادل ! »

المجهول : (بصوت مرتفع بعض الشيء) أيها النادل ،هل تستطيع أن تقدم لي ماء الصودا ·

(النادل يرتعش ، وينظر الى السماء برعب باحثاً عن الرجل المجهول ، ثم يخرج متحدّاً هيئة من لم يسمع · أصوات قوية)

ـ « أيها النادل ، بيرة ! »

النـــادل : الآن ، حالا ! حالا ·

(يقترب اثنان من السكارى ، قادمين من المقهى) ·

السيدة : آه · ها هو زوجي ! تعال الى هنا بسرعة !

السيدة العدائية : يا له من نذل !

السـكران : (ملوحا بيده) هي ، أنت هناك ، في الاعلى ، ما بك ·· هل الحالة سيئة ؟

المجهول : (بصوت مرتفع بعض الشيء) سيئة جدا ، لقد سئمت ·

السـكران : ولا يمكنك أن تشرب الخمر ·

المجهول : هناك ! الى أين ؟ ·

السكران ٢ : ماذا تهرف ، كيف يستطيع أن يشرب الخمر ؟ الرجل عليه أن يتطلس وأنت تثيره بمختلف المغريات • اسمع اننا دائما نشرب نخب صحتك • أيعيرك ذلك ؟

السكران ١ : ماذا تهرف ، كيف يمكن أن يضيره ذلك ؟ من شأن ذلك أن يدهشه فقط • اسمع ! نقسم بأننا نأسف لك ، فلا تلق انتباها الى هذا كله ، ، ستعود الآن الى المقهى ثانية •

السكران ٢ : انظر هذا الحشد الهائل من الناس !

الأول : لنذهب ، قد يسقط ، فيسبقون المقهى •

(يظهر حشد جديد من السياح • على رأسه سيد رشيق جدا ، انه مراسل اكبر الصحف الاوربية ، ترتفع صـرخات التعجب والغبطة • كثيرون يهجرون المقهى لرؤيته ، حتى ان النـادل نفسه يلتفت بخفة وينظر على الفور ، ثم يبتسم بسعادةو يستمر في طريقه دون أن يشعر بانسكاب الكأس الذي يحمله •)

أصـــوات : مراسل صحفي !

— انظروا ، مراسل صحفي !

السيدة : آه يا الهي ، اختفى زوجي ثانية •

السائح السمين : بيتيا ، ماشا ، كاتيــا ، فاسيا ، انظروا •• هــذا هو كبير المراسلين الصحفيين •• أتفهمون ؟ المراسل الاكبر • ما سوف يكتبه سينشر حتما •

كــاتيـــا : الافضل أن تطلب (السندويش) ! انني لا أستطيع يا أبي ! يجب إطعام الانسان •••

السائح السمين : (في عجلة) يا لها من مأساة ! كاتيا يا عزيزتي هل تتصورين كم هذا مرعب ! في مثل هــذا الطقس الساحر •• وكبيـر المراسلين ! اخرج الدفتر يا بيتيا ، دفتر المذكرات • بسرعة •

بيتــا : لقد أضعته ، يا أبي •

المراسل : أيـن هـو ؟
أصوات : (بطاعـة) هناك !
ـ أعلى بعض الشيء ، أعلى قليلا !
ـ اخفض ، اخفض !
ـ لا ، أعلى !
المراسل : من فضلكم ، من فضلكم أيها السادة ، سأجده بنفسي . آها هذا هو ! نعم .. م ، حالة ...
السائح : ألا تريد كرسيا ؟
المراسل : أشكرك (يجلس) نعم .. م حالة ! رائع ، رائع جدا (يعد دفتر المذكرات ويوجه حديثه الى المصورين بلطف) هل أخذتم صوراً أيها السادة ؟
مصور ١ : طبعا ! لقد صورنا الطابع العام للمكان ..
مصور ٢ : وضع مأسوي لشاب ...
المراسل : حقاً ؟ شيء ممتع ، ممتع جداً .
السائح السمين : أتسمع يا ساشا : رجل ذكي ، وكبير المراسلين يقول ان هذا شيء ممتع ، أما أنت ، (فسندويشات) ! .. أبله !
ساشا : يبدو أنه شمان ...
المراسل : أيها السادة ، حافظوا على الهدوء من فضلكم .
صوت أحد الاتباع : هي ، هناك في المقهى : الهدوء !
المراسل : (يصرخ موجهاً حديثه الى الاعلى) اسمح لي أن أقدم لك نفسي : أنا كبير مراسلي الصحافة الاوربية ، أرسلت الى هنا بناء على اقتراح خاص من ادارة التحرير ، لو سمحت ، أن أطرح عليك بعض الاسئلة التي تتعلق بوضعك . ما اسمك ؟ الاسم .. والحالة الاجتماعية ، والعمر ؟
(المجهول يدمدم بشيء ما)

المراسل : (بشيء من سوء الفهم) لا أسمع شيئاً . هل هو يتكلم هكذا دائماً ؟

أصوات : أجل . لن تفهم شيئاً مما يقول .

المراسل : (يسجل شيئاً ما) رائع ! هل أنت أعزب ؟

(المجهول يدمدم ثانية)

المراسل : لا أسمع ! متزوج ، أليس كذلك ؟ أعد

السائح : قال انه أعزب

السائح ٢ : لا ، أبداً ! انه متزوج طبعاً .

المراسل : (بلا اكتراث) هل تعتقدون ذلك ؟ سأسجل : متزوج . كم من الاطفال عندك ؟ ماذا ؟ لا أسمع . يبدو انه قال ثلاثة ؟ هم .. م ستسجل خمسة على كل حال .

السائح السمين : آه ، يا لها من مأساة ! خمسة أطفال . تصوروا !

السيدة العدائية : انه يكذب .

المراسل : (يصرخ) كيف وقعت في هذه الحالة ؟ ماذا ؟ لا أسمع بصوت أعلى ، أعد ، ماذا قلت ؟ (بسوء فهم الى الجمهور) ما الذي يقوله ؟ صوت هذا العفريت ضعيف جداً ؟

السائح ١ : يخيل الي أنه قال انه ضاع .

السائح ٢ : لا .. هو نفسه لا يعرف كيف وقع في هذه الحالة .

أصوات : كان قد خرج للصيد !

ـ كان يتسلق الصخور .

ـ لا ، أبداً . كل ما في الأمر انه مصاب بالعشا .

المراسل : على رسلكم أيها السادة ، انه لم يهبط من السماء على أي حال . على فكرة .. (يسجل بسرعة) الشاب المسكين .. يعاني منذ طفولته من داء العشى .. ضوء القمر القوي .. الصخور الموحشة .. البواب النعسان لم أميز ...

السائق ا	:	آه ، وهل تعتقد أن الجمهور يفهم شيئا ما في عمق الفلك ؟
السائح السمين	:	(في غبطة) ماشا ! انتهي .. هذا مثال واضح على تأثير القمر في الاعضاء الحيوية ، ولكن ، يا لها من مأساة مخيفة : أن يخرج الانسان (للتحول) في ليلة مقمرة .. وفجأة يتسلق هكذا بحيث يستحيل انقاذه .
المراسل	:	(يصرخ) ما هو شعورك ؟ لا أسمع . أعلى ! آه هكذا اذن ! نعم .. م . حالة .
الجمهور	:	(باهتمام) اسمع .. اسمع ، ما هو شعوره ، كم هذا مرعب !
المراسل	:	(يسجل ، ملقياً بين الحين والآخر ملاحظاته بصوت عال) رعب قاتل يشل الاعضاء ... خوف حقيقي يزحف في الظهر .... ليس ثمة أمل ... تتوالى أمام العين الواعية لوحات السعادة المنزلية : الزوجة تصنع البسكويت ، أصوات الاطفال الخمسة الملائكية والبريئة تعبر عن أرق المشاعر ... الجدة في مقعدها الوثير تدخن الغليون ... أعني الجد يدخن الغليون ، والجدة .. حالي من تعاطف الجمهور ... لقد عبر عن رغبته الاخيرة قبل موته فقال : أرجو أن ينشر نفسي الاخير في جريدتكم ....
السيدة العالية	:	(مهتاجة) يا له من دجال !
ماشا	:	(ببرود) أبي ... أيها الاطفال ، انه يبدأ بالسقوط مرة أخرى .
السائح السمين	:	(بغضب) اسكتي ! تقع هنا مثل هذه المأساة .. وأنت ... لماذا تحدّقين هكذا ؟
المراسل	:	(يصرخ) تماسك أكثر ! أجل هكذا . السؤال الاخير . وأنت تنتقل الى العالم الافضل ، بم ترغب أن تبلغ اخوانك المواطنين؟
المجهول	:	(بصوت ضعيف) أن يذهبوا الى الشيطان جميعاً .
المراسل	:	ماذا قلت ؟ آه نعم ! معارض بحزم لحقوق المساواة الكاملة مع

الزنوج ·· اخر وصية له وهي أن لا يكون لهؤلاء المتلطخين بالسواد ·

القس : (يخترق الزحام لاهثاً) · أين هو ؟ آه هناك ! يا للشاب التعيس ! أيها السادة ، ألم يحضر أحد رجال الكهنوت ؟ لا ؟ أشكركم جميعا · أيعقل أن أكون الاول ؟

المراسل : (يكتب) لحظة حاسمة ·· لقد ظهر القس ··· وتجمد الجميع ·· كثيرون انخرطوا في البكاء ، ··

القس : اسمحوا لي من فضلكم أيها السادة ، الروح الضالة تطلب الصلح الاخير مع السماء (يصرخ) هل تطلب الصلح مع السماء يا بني افتح لي نفسك ، وستنال الغفران بالتأكيد · ماذا ؟ لا أسمع ؟

المراسل : (يكتب) النحيب يهز عنان الفضاء · خادم الكنيسة بتعابير مؤثرة يقدم الوعظ للمجرم ، أعني البائس ·· واغرورقت عيناه بالدموع · ثم شكر بصوت ضعيف ···

المجهول : (بصوت ضعيف) ان لم تبتعدوا فسأقفز فوق رؤوسكم · ان وزني ستة بوندات · (يرتد الجميع خائفين ويختبيء الواحد خلف الآخر) ·

أصوات : انه يسقط ، انه يسقط !

الصائغ السمين : (بانفعال) ماشا ، ماشا ، بيتيا !

الشرطي : (بحيوية) المكان ، أرجو أن تخلوا المكان ·

مصور : (بيأس) يا الهي ، لقد انتهى شريط الفيلم (يحوص في مكانه ناظرا الى الرجل المجهول بيأس) لحظة واحدة سآتي حالا ، انه هناك في المعطف (يبتعد بعض الشيء دون أن يرفع بصره عن المجهول يبد أنه يعود على الفور) لا ·· لا أستطيع ·· آه يا الهي ! انه هناك في المعطف ! سأعود حالا ، لحظة واحدة ·

القس : بسرعة يا مزيزي ، اجمع قواك واعترف ولو بالآثام الكبيرة فقط أما الصغيرة فسوف نغض الطرف عنهما .

السائح السمين : ي لها من مأساة !

المراسل : (يسجل) المجرم ، أعمى اليائس ، يجلب تطهيرا عاما للشعب .. تتصبح أسرار محيمة .. الشرير فجر صيرفيا ...

القس : (يصرخ) أولا ، ألم تقتل ؟ ثانيا ، هل سرقت ؟ ثالثا ، هل زنيت ؟

السائح السمين : مشا ، بيتيا ، كاتيا ، ساشا ، فاسيا ، سدوا آذانكم .

المراسل : (يسجل) الشعب غاضب . ومتاففات السخط ...

القس : (بعجلة) رابعا ، ألم تجدف على الله ؟ خامسا ألم تطمع بحمار جارك ؟ أو ثوره ، أو أسماكه ، أو زوجته ؟ سادسا ...

مصـور : (منزعجا) أيها السادة ، حمار !

مصـور ٢ : أين . أين الحمار ؟ اني لا أرى .

مصـور ١ : لقد خيل الي .

القس : أمنك يا بني ، لقد صالحت السماء ، وتستطيع الآن بهدوء أن .. آه ، يا الهي ، ماذا أرى ؟ أعضاء جيش الانقاذ(*) . أيها الشرطيان ، اطردوهم !

(يقترب عدد من الرجال والنساء في ثياب استعراضية ، يعزفون الموسيقا على آلات ثلاث . طبل ، وكمان ، وثمة آلة غريبة تشبه صوتا يشبه السقسقة (١) .

القس :

عضو جيش الانقاذ الأول . (يقرع الطبل بقوة ويصرخ من انفه بصوت ممطوط) أيها الاخوة ، وأيتها الاخوات ...

القس : **(محاولا أن يطغى صوته على كل صوت) لقد طلب الغفران**

(*)جيش الانقاذ . منظمة خيرية رجعية أسسها القس د . بوتس عام ١٨٦٥ في انكلترا .

(١) صوت العصفور .

أيها الاخوان • كونوا شهودا على ذلك أيها السادة ! لقد طلب المغران صالح السماء •

عضو جيش الانقاذ الثاني ـ سيدة : (تتسلق صخرة وتجعر لقد ضللت في الظلام• ومثل هذا الخاطىء شربت الكحول، عندما كان نور الحقيقة•••

صوت : والا سكرانة (طيبة) أيضاً •

القس : أيها الشرطي أسمعت كيف طلب الغفـر ن صالحَ السماء ؟ (عضو جيش الانقاذ الاول يقرع الطبل • باحتدام ، ويشرع الآخرون بالغناء • صراخ وضحك وصفير • يرتفع الغناء في المقهى أيضا • ويتادون على النادل بمختلف اللغات • الشرطيان الحائران يتملصان من القس الذي كان يجرهما الى مكان ما • المصورون يحوصون كالمجانين •

تظهر سائحة انكليزية تمتطي حمارا يأبى بين رجليه الاماميتين غير راغب في متابعة المسير ، ويصم صوته لى أصوات الآخرين• يهدأ الجميع بعض الشيء • ثم يبتعد جيش الانقاذ ، ويخرج القس حنقه ملوّحا بيديه) •

سائح انكليزي : (لآخر) يا لشؤم • هـؤلاء الاوباش لا يعرفون أبدا كيف يتصـرفون •

سائح انكليزي ٢ : لنذهب من هنا •

الاول : لحظة واحدة (يصرخ) اسمعني أيها المحترم : ألا تريد أن تسقط بسرعة ؟

الثاني : ماذا تقول يا سير ويليام ؟

الاول : (يصرخ ألا ترى أنهم لا ينتظـرون الا سقوطك ؟ وواجبـك كانسان مهذب أن ترضي فيهم هذه الرغبة ، وتجنب نفسـك كلفة المعاناة أمام هؤلاء الاوباش ••

الثاني : يا سير ويليام !

السائح السمين : (بنبطلة) هذه هي الحقيقة ! ساشا ، بيتيا ، اسمعوا انهم يقولون الحقيقة . يا لها من مأساة !

احد السياح : (متهجما على الانكليزي) كيف تسمح لنفسك ...؟

الانكليزي ! : (منحياً اياه) اقفز بسرعة ، هل تسمع ؟ واذا كانت تنقصك الجسارة دعني أساعدك برصاصة جيدة . هل توافق ؟

أصوات : لقد جن هذا العفريت الاحمر !

الشرطي : (يقبض على الانكليزي من يده) أنت لا تملك الحق في فعل شيء كهذا . اني أعتقلك .

أحد السياح : أو بـاش !

(يصرخ المجهـول بشيء ما . حركة في الاسفل . أصـوات) « اسمعوا ! اسمعوا ! » .

المجهول : (بصوت عال) حذوا هذا الحمار ، انه يريد أن يطلـق علي الرصاص . ثم بلغوا صاحب المقهى أني لم اعد أحتمل اكثر

أصوات : ماذا يقصد ؟

— الى من ، صاحب ماذا ؟

— لقد جن المسكين !

السائح السمين : ماشا ، ساشا ، هذه هي لوحة الجنون . بيتيا ، تذكر هاملت بسـرعـة .

المجهول : (بعصب) قولوا له أن ظهري قد انكسر .

ماشـا : (سرور) يا أبي ، أيها الاطفال ، انظروا انه بدأ يهز قدميه .

كـاتيـا : هذا ما يسمى بالتشنج يا أبي .

السائح السمين : (ببطء) لا أعرف ، ربما . يا لها من مأساة .

ساشـا : (متهما) كاتيا ، أيتها الغبية ! يعلمونها ولا تعرف أن هذا يسمى سكرة الموت . ومع ذلك تلبس النظارات ! لا أستطيع ان أحتمل أكثر من ذلك يا أبي .

السائح السمين : تصوروا يا أطفالي ، انسان سيترضض حتى الموت ، وماذا يشغل فكره ؟ ظهره

(نسمع ضجة · بعض السياح الغاضبين يجرّون سيداً مرتدياً سترةً بيضاء · انه خائف جدا ، ويبتسم ، ويركع صوب كل الجهات رافعاً ذراعيه · السياح يدفعونه بقوة ، فيحاول الهرب بيد أنهم يقبضون عليه من جديد ويجرّونه ·)

أصوات : خداع فاضح ·

ـ يا للفضيحة ·

ـ أيها الشرطي ، أيها الشرطي !

ـ يجب تلقينه درساً !

أصوات أخرى : ما هذا ؟

ـ ما الأمر ؟

ـ أيها السادة ، لقد قبضوا على لص ·

السيد : (يركع مبتسماً) مزحة أيها السادة الكرام · مجرد مزحة ؟ رأيت الجمهور سائما ، فأردت أن أسليه قليلا ···

المجهول : (بعنف) يا صاحب المقهى !

السيد : انتظر قليلا ·

المجهول : ما هذا · هل سأقف هنا حتى يوم القيامة ؟ اتفقنا حتى الساعة الثانية عشرة · فكم الوقت الآن ؟

السائح الطويل : (خارجاً عن طوره) أسمعتم أيها السادة ؟ لقد تبيّن أن هذا السافل ذا السترة البيضاء استكرى سافلا آخر · وبكل بساطة ربطه الى الصخرة ·

أصوات : هو مربوط اذن ؟

السائح الطويل : أجل ، هو مربوط ولا يمكنه أن يقع · نحن هنا نتفمل ويقتلنا القلق ، وهو لا يستطيع أن يقع ·

المجهول : حالا ، سأفعل ! سوف أكسر لك رقبتي من أجل خمسة وعشرين روبلاً ! يا صاحب المقهى ، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك ، أحد الحمير هنا أراد أن يطلق عليّ الرصاص ، والقس أخذ يستفني ساعتين كاملتين . ان هذا كله لا يدخل في الاتفاق .

ماشـا : الم أقل لك يا أبي ان صاحبك بيديكر هذا يكذب . أنت تصدق كل شيء وتتسكع بنا دون أن نأكل !

صاحب المقهى : رغبتي الوحيدة كانت تسلية الجمهور المحترم . لقد رأيت أنه سائم ، فأردت ..

السيدة العدائية : ما هذا ؟ اني لا أفهم شيئا ، لماذا لن يقع ؟ ومن سوف يقع اذن؟

السائح السمين : وأنا أيضا لا أفهم شيئا . طبعا يجب أن يقع .

بيتـا : أنت لا تفهم شيئا يا أبي ، يقال لك إنه مربوط .

ماشـا : وهل تستطيع اقناعه ! انه يحب بيديكر أكثر من أبنائه جميعـ.

بيتـا : وفوق هذا يقال انه أب !

السائح السمين : اخــرس !

السيدة العدائية : ما هذا ؟ يجب أن يسقط !

السائح الطويل : ما هذا الخداع الفاضح !يجب أن تفسر ذلك أيها السيد المحترم.

صاحب المقهى : سامحوني أيها السادة ، الجمهور سؤوم . ولقد فعلت هذا من أجله ، فما يضير أن ينفعل الجمهور بمرح بضع ساعات ، ويجرب مشاعره العبرية ، ويقوي أعصابه ؟ ..

الانكليـزي : المقهى لـك ؟

صاحب المقهى : لــي .

الانكليـزي : والفندق الذي في الاسفل أيضا لك ؟

صاحب المقهى : لي .. الجمهور سأمان ..

المـراســل : (يسجل) خداع فاضح ... ان صاحب المقهى ، طمعا برفع دخله من المشروبات الروحية، استغل أسمى المشاعر الانسانية .. سخط الجمهور .

المجهول : (بعنف) يا صاحب المقهى ، أتحلّ وثاقي بسرعة أم لا ؟

صاحب المقهى : وما دخلك أنت ؟ ماذا يضيرك ، ان حلوا وثاقك أم لم يحلوه في الليـل ؟

المجهول : أهذا ما يجوز لي أن أعلق هنا طوال الليل ؟

صاحب المقهى : يمكنك أن تصبر بضع دقائق في هذا الوضع ، ان الجمهور سؤوم .

السائح الطويل : هل تعرف ماذا فعلت أيها السافل ! من أجل اغراضك القذرة استغليت حبنا للقريب . لقد أرغمتنا جميعاً على معاناة الرعب والتعاطف مع الالم ، لقد سممت قلبنا بالشفقة ... وماذا يتبين بعد هذا كله ؟ تبين أن شريكك القذر هذا مربوط الى صخرة ، فقط لن يقـع كما كان يتوقـع الجميع . بل ولا يمكنـه أن يقع أيضا .

السيدة العدائية : ما هذا ؟ يجب أن يقع .

السائح الطويل : أيها الشرطي ، أيها الشرطي !

(يظهر القس لاهثاً)

القس : ماذا . ما زال حيا ؟ آه ، هذا هو . يا لهم من دجالين هؤلاء أعضاء جيش الانقاذ !

صوت : ألم تسمع : انه مربوط .

القس : مربوط إلامَ ؟ الى الحياة أوه نحن جميعا مربوطون الى الحيـاة حتى يحررنا الموت . ولكن ان كان مربوطاً أو لم يكن فأنا قد صالحته مع السماء وانتهى الامر ! أما هؤلاء الدجالون ...

السائح السمين : أيها الشرطي ، أيها الشرطي ، من الضروري أن تسجل المحضر !

السيدة العدائية : (متهجمة على صاحب المقهى) أنا لا أسمح لاحد بخداعي ، لقد رأيت كيف سقط ملاح يعمل على المنطاد من الغيوم الى السطح ، ورأيت كيف مزق نمر امرأة .

المصـور : لقد افسدت ثلاثة أفلام ، وأنـا أصور هذا اللعـين . يجب أن تعوض لي هذا أيها السيد المحترم !

السائح السمين : لمحفر ، المحصر ! يا للسفالة ! ماشا ، بيتيا ، ماشا فاسيا ، ادعوا الشرطي .

صاحب المقهى : (متراجعا في يأس) اني لا أستطيع ارغامه على السقوط ما دام لا يريد . لقد فعلت كل ما في طاقتي أيها السادة .
سامحوني أيها السادة ، أقسم لكم أنه في المرة القدمة سيقع
أما الآن فهو لا يريد ذلك !

المجهول : ما هذا الذي في المرة القادمة ؟

صاحب المقهى : اخرس أنت !

المجهول : في سبيل خمسة وعشرين روبلا ؟

القس : يا له من وقح ، لم أكد أنقذه من الخطر ، وأصالحه مع السماء حتى أخذ يهددني بالوقوع على رأسي ! وهو فوق ذلك ليس راضيا . الفاجر ! اللص ! القاتل ! الطامع بحمار جاره

المصور : أيها السادة حمار .

مصورتان : أين الحمار ؟

مصور أول : لقد خيل الي .

مصور ثالث : أنت الحمار . بسببك جحضت عيناي .

ماشا : (ببرود) يا أبي ، أيها الاطفال ، انظروا ، الشرطي قادم .
(حركة وضجة . الجمهور يطلب الشرطي من جهة ، ويهس صاحب المقهى من جهة ثانية ، وكلاهما يصرخ « من فضلكم ، من فضلكم ») .

السائح السمين : أيها الشرطي ! هذا هو ، المخادع ، المحتال ...

القس : أيها الشرطي! هذا هو ، الفاجر، القاتل ، الطامع بحمار جاره.

الشرطي : من فضلكم ، من فضلكم أيها السادة ، الآن سوف نعيد اليه وعيه ، ونجعله يندم على ما فعل .

صاحب المقهى : لا أستطيع أن أرغمه على السقوط ، ما دام لا يريد ذلك !

الشرطي : هي ، أنت ، أنت هناك ، في الاعلى ، هل تستطيع أن تسقط أم لا ، اعترف ؟!

المجهول : (متجهمة) لا أريد أن أسقط ·

أصـــوات : آها ، لقد اعترف ! السافل ·

السائح الطويل : سجل أيها الشـرطي · انه يهدف الربـح ··· استعمل محبـة القريب ·· تلك العاطفة المقدسة أ ·· أ ·· أ ··

السائح السمين : يا أبنائي اسمعوا ، انهم يكتبون المحضر · يا لها من بلاهة !

السائح الطويل : العاطفة المقدسة ، التي ···

الشرطي : (يكتب باندفاع عاضا على لسانه) محبة القريب تلك العاطفة المقدسة ، التي ···

ساشـا : (ببرود) يا أبي ، أيها الاصغال · انظروا : رايـة تتقـدم ! (يظهر عدد من الموسـيقيين ، يحملون الابواق والطبـول ، ويسير في مقدمتهم رجل يحمل على عصا طويلة راية كبيرة جدا ، رسم عليها شخص ذو شعر طويل جدا ، وكتب تحت الرسم « كنت أصلعاً »)

المجهول : لقد تأخرتم أيها الاخوة · انهم يكتبون المحضر · فانصرفوا بسرعة ·

أحد الاشخاص : (يقف ويتكلـم بصوت عـال) لقد كنت أصلع منـذ ولادتي ولسـنوات عديـدة ، ذلك النبات الضئيل الذي كـان يغطي جمجمتي في السنة العاشرة من عمري ، كان أشبه بالصوف منه الى الشعر · وعندما تقدمت للزواج كانت جمجمتي عاريـة تماماً كالمحدة ، وعروستي الصبية ···

السائح السمين : يا لها من مأساة ! عريس بمثل هذا الرأس • أتتصورون ذلك، ما أرعب هذا يا أبنائي ؟

يصفق الجميع باشتباه ، حتى الشرطي نفسه يحمد و لريشة بيده) •

الشخص : وجاءت اللحظة التي أصبحت فيها سعادتي الزوجية متعلقة على شعري • اذ ان جميع العقاقير التي وصفها لي الدجالون لتنمية الشعر •••

السائح السمين : أخرج دفتر المذكرات ، يا بيتيا •

السيدة العدائية : أيسقط في آخر الامر ، أم لا ؟

صاحب المقهى : (مشيرا) في المرة القادمة أيتها السيدة ، في المرة القادمة لن اربطه بقوة •• أتفهمين ؟ ••

ستـــــار

□ ■ □

قصائد

من شعر بابلو نيرودا

ترجمة الأب الياس زحلاوي

السماط العظيم

عندما وُجهت الدعوة للوليمة ،
تدافع الطغاة
وصواحبهم العواهر العابرات .
جميلاً كان مشهدهم يمرون
كالزنابير ذوي الصدور القوية ،
تلاحقهم أولئك النمور العامة ،
الشاحبة ، البائسة .

في الحقل أكل ، الفلاح
نصيبه المتواضع من الخبز .
كان وحيداً ، وكان الوقت قد فات .
وكان القمح يحيط به ،
ولكنه لم يبقَ لديه خبز ،

فأكله بصعوبة ،
وهو يحدق اليه بعيون قاسية .

وفي ساعة الغداء الزرقاء ،
وساعة الشواء اللامتناهية ،
يترك الشاعر قيثاره ،
ويمسك بالسكين والشوكة ،
ويضع كأسه على المائدة ،
ويسارع الصيدون الى قاع الحساء .
وتحتج قطع البطاطا ،
تلعقها ألسنة الزيت .
والحَمَلُ المذهّب وسط الجمر ،
فيما البصل يتعرى .

محزن أن يأكل الانسان بلباس رسمي ،
إن هذا إلا أكل في نعش .
اما أن يأكل في الأديرة ،
فهو الايذان بأنه يأكل تحت الارض .
منتهى المرارة أن يأكل وحيداً .
أما ألا يأكل ، فشيء عميق ،
شيء أجوف ، أخضر ، ذو أشواك ،
كسلسلة من الصنانير ،
تسقط من القلب ،
وتتمسك في الداخل .

أن يجوع الانسان أمر يشبه الكمّاشة ،

يشبه عضة السرطان ،
يحرق ، يحرق ، ولا نار له :
الجوع حريق بارد •
فلنجلس سريعاً كي نأكل
مع جميع الذين لم يأكلوا •
ولنشر السمط الطويلة ،
والملح في بحيرات العالم ،
والمخابز الكونية ،
وموائد الفراولة فوق الثلج ،
ولنات بصحن كالقمر ،
نأكل فيه كلنا •

أما الآن فلست أطالب بأكثر
من عدالة الغداء •

(من ديوانه « استرافاغاريو » أو « هذيان ») ١٩٥٨

لا تسلني

قلبي مثقل
بالعديد من الاشياء التي أعرف •
لكأني أحمل حجارة
ضخمة في كيس •
أو لكأن المطر انهمر
دونما انقطاع ، في ذاكرتي •

لا تسلني عن هذا ،

لست أدري عما تتكلم •

لم أعرف ما الذي حدث •

والآخرون بدورهم لم يكونوا يعرفون ،
فتنقلت هكذا من ضباب الى ضباب ،
ظناً مني بأن شيئاً لم يكن ليحدث ،
باحثاً من فواكه في الطرقات ،
ومن أفكار في المراعي ،
وكانت النتيجة كالآتي
أن الجميع على حق ،
وإني أثناء ذلك كنت أنام •
فأركمُ بسبب ذلك ، فوق صدري ،
لا حجارة وحسب ، بل ظلاً ،
لا ظلاً وحسب ، بل دما •

هكذا هي الاشياء ، أيها الفتى ،
وهي أيضاً ليست كذلك •
فأنا ، على الرغم من كل ذلك ، أحيا ،
وصحتي ممتازة ،
ونفسي تنمو ، وأظفري ،
أقصد لحلاقين ،
أعبر الحدود وأعود منها ،
أطالب بأهداف ، وأسبلها •
ولكن ، إن شاء المنافقون
أن يعرفوا أكثر ، فانهم سيخيبون •

وإن سمعوا الحزن ينبح ،
بالقرب من منزلي ، فذلك كذب :
فالوقت الصافي هو الحب ،
والوقت الضائع هو النحيب .
وهكذا ، عن الاشياء التي أذكر ،
وعن تلك التي غادرت ذاكرتي ،
عما أعرف ، وعما عرفت ،
وعما فقدت في الطريق ،
بين العديد من الأشياء المفقودة ،
وعن الموتى الذين لم يسمموني ،
والذين قد يكونون ودوا أن يروني ،
من الاجدى ألا تسلني :
ألمس هنا ، فوق سترتي ،
تر كم ينبض
كيس من الحجارة الغامضة .

وكم تراه يحيـا ؟

أخيراً ، كم ترى الانسان يحيا ؟
هل هو يحيا ألف يوم أم يوماً واحدا ؟
اسبوعاً أم قروناً كثيرة ؟
ولأي فترة يموت الانسان ؟
ماذا تعني : « إلى الأبد » ؟
أستبدت بي هذه المشكلة ،

فانصرفت الى استيضاح الاشياء •
بحثت عن الكهنة العلماء ،

أرهقتهم أسئلتي •
هم أيضاً لم يكونوا ليعرفوا الكثير ،
لم يكونوا سوى موظفين •
واستقبلني الأطباء ،
ما بين معاينة وأخرى ،
وفي كل يد مبضع ،
غارقين في الأوريوميسين •
وفي العمل يوماً بعد يوم •
الذي فهمته من خلال ما قالوا ،
أن المشكلة هي التالية •
لم يقتل يوماً مثل ما قتل من الجراثيم ،
سقطت بالأطنان •
ولكن البقية الباقيه
تبدت خبيثة •

ولقد أثاروا فيّ من الهلع ،
ما دفعني إلى البحث عن حفّاري القبور •
قصدت الأنهر حيث تحرق
جثث كبيرة ملونة ،
وأمرات مشار هزيلون ،
وأباطرة تنظيم

قشور مرعبة ،
ونساء حصدتهن فجأة
رشقة غضب .
كانت ثمة شواطىء من الموتى ،
وأخصائيون رماديون .
عندما حان دوري ،
طرحت عليهم بعض الأسئلة ،
فاقترحوا عليّ أن يسرقوني :
كان ذلك كل ما يعرفونه .

وفي بلدي ، قال لي
حفاروا القبور ، بين كأس وأخرى .
ـ « تدبر أمرك بفتاة قوية ،
وتخلّ عن هذه الحماقات . »
لم أر يوماً بشراً مرحين كهؤلاء .
كانوا يغنون وهم يرفعون نخب
الصحة والموت .
كانوا فساقاً مارقين .

وعدت الى بلدي أشد هرماً ،
بعد أن جبت العالم .
لا أطلب شيئاً من أحد .
ولكني أزداد جهلاً يوماً بعد يوم .

وارتحلت المدينة

مثلما أن الساعة تتقدم دون أن تسرع ،
بثقة تمكنها من التهام السنوات
فالأيام عناقيد عنب ، صغيرة وعابرة ،
والشهور المتسلحة من الزمان تفقد ألوانها .
والدقيقة ترحل نحو الوراء ، ترحل تطلقها
أكثر المدفعيات صموداً .
وفجأة لم يعد يتبقى لرحيلنا إلا سنة .
شهر ، يوم ، ويطال الموت التقويم .

ما من انسان استطاع أن يوقف المياه الهاربة ،
ولم يتسالك فكري ذاته بحب ،
بل استمر ، استمر راكضاً بين الشمس والكائنات ،
وقد قتلت بشيده العابر .

وأخيراً نسقط في الزمان ، ممددين ،
ويدفعنا ، فاذا بنا راحلون ، موتى ،
مساقون ، دونما وجود ، ونصبح لا بالظل ،
ولا بالغبار ولا بالكلام ، والكل يوقف هنا ،
وفي المدينة ، حيث لن نعود نحيا ،
تظل الالبسة والكبرياء فارغة .

ولادة ذاتية

جميع الذين كانوا يقدمون لي النصح
يزدادون جنوناً يوماً بعد يوم .
لحسن حظي ، لم أصغِ اليهم ،
فانتقلوا الى مدينة أخرى
حيث يعيشون جميعاً معاً
ويتبادلون القبعات .

كانوا رعايا محترمين ،
ولهم فكر سياسي عميق .
وكان كل خطأ أرتكبه ،
يسبب لهم من الألم
ما ضربهم بالشيب والتجعّد ،
ومنعهم عن أكل الكستناء ،
ثم جعلتهم كآبة خريفية
أخيراً يهذون .

لأني لست أدري إن كان يجب علي الاعتصام
بالنسيان أم بالاحترام ،
إن كان يجب علي أن أتلقى النصح ،
أو آخذ عليهم هذيانهم :
حراً ، لست أصلح لشيء ،
أتيه بين العديد من أوراق الشجر ،
ولا أدري إن كان يجب عليّ أن أخرج أو أدمل ،
أن أسير أو أتوقف ،
أن أبتاع قططاً أو بندورة .

ساحاول أن أفهم
ما يجب عليّ ألاّ أفعله ، فأفعله ،
فأستطيع بذلك أن أبرر
الدروب التي سافقدها ٠
فان لم أرتكب خطأ ،
من تراه سيصدق أخطائي ؟٠
وان احتفظت بتعقلي
فلن يقيم أحد لي وزنا ٠
ولكني سأحاول أن أتغير :
سأحبّي بلباقة ،
ساعنّى بالمظاهر ،
باجتهاد واندفاع ،
حتى أصبح كل ما يريدون لي
ان اكون ،
وألا أكون ،
حتى لا أكون سوى الآخرين ٠
ولئن تركوني عندها وشاني ،
فسأستبدل شخصي ،
وسأستبدل جلدي ،
وعندما سيصبح لي فم آخر ،
وأحذية أخرى ، وعيون أخرى ،
عندما أصبح آخـر ،
سأبقى أتصرف على هذا النحو ،
لانني لا أعرف أن أفعل شيئا آخر ٠

أطلب الصمت

فلأترك الآن وشأني ·
وليألفوا الان غيابي ·
سأغمض عيني ·
لست أريد سوى خمسة أشياء ،
خمسة جذور مفضلة ·

أحدهما الحب دونما نهاية ·
ثانيهما مشاهدة الخريف ·
فلا يسعني أن أكون ، ان لم تتطاير
الاوراق وتعد الى الارض ·
ثالثها الشتاء الرصين ،
والمطر الذي احببت ، ومداعبة
النار في صقيع الغابات ·
رابعها الصيف
المستدير كالبطيخة ·
وخامسها هو عيونك ،
يا ماتيلدا ، حبيبتي ،
لست أريد أن أرقد من دون عينيك ،
لست أريد ان أكون دون أن تنظري اليّ :
فأنا أبدل الربيع
كي تواصلي التحديق اليّ ·
أصدقائي ، هذا ما أريد ·
يكاد يكون لا شيء وكل شيء ·
ارحلوا الان ، ان رغبتم في ذلك ·

لطالما استهلكت من العمر ،
حتى أنكم ستضطرون حتما لنسياني •
وستسقطوني من اللوح :
فليس لقلبي نهاية •
ولكن إن كنت أطلب الصمت ،
فلا تظنوا اني على وشك الموت :
ما يحدث لي هو نقيض ذلك ،
فالذي يحدث هو أني أوشك أن أحيا ذاتي ،
الذي يحدث هو أني قائم واقوم •
أليس ذلك لان في أعماقي ،
تنمو الزروع ،
وفي طليعتها الحبوب التي تشق
الارض لتبصر النور ؟
إلا أن الارض الام غامضة ،
وأما في أعماقي غامض :
فأنا شبيه ببئر ، في مياهها
يودع الليل نجومه ،
وهو يواصل السير وحيدا عبر الحقول •
الواقع أني لطالما نهلت من الحياة ،
حتى انني أريد أن أحيا أيضا مثيل ما عشت •
لم أجدني يوما على هذا القدر من الارتعاش ،
لم أوفق يوما بمثل هذا القدر من القبلات •
الان ، كما في كل آن ، لم يحن الوقت بعد •
النور يطير بنحله •
دعوني وحدي مع النهار •
أسأل أن يؤذن لي بالولادة •

□ ■ □

معجم الأساطير اليونانية والرومانية

ترجمة وإعداد سهيل عثمان
عبد الرزاق الأصفر

القسم الرابع

☐ **أومولبوس Eumolpos**

هو ابن بوزيدون وشيونه. ألقته أمه في اليم فتلقاه أبوه إله البحر وأوصله إلى ساحل أثيوبيا، حيث تبنته بانثيسيسيمه بنت بوزيدون من أمفتريت وزوجته إحدى بناتها، ثم طرد لما سولت له نفسه اغتصاب إحدى أخوات زوجته، فالتجأ إلى تراقيا وتآمر على ملكها تيجيريوس فطرد من جديد والتجأ إلى ايلوزيس وأصبح ملكا عليها وكاهنها الأعظم الذي أسس العبادة السرية التي تقدس ديمترا ثم هلك على يد ايريختوس أثناء الحرب بين مدينته ومدينة أثينا. وقد انتقم زوس لمصرعه بإلحاح من بوزيدون بأن قصف ايريختوس بإحدى صواعقه. وقد خلف أومولبوس في الكهنوت ابنه الأصغر سيريكس وبقيت هذه الوظيفة في أعقابه. وبعض الروايات تفرق بين أومولبوس الكاهن وأومولبوس الملك.

☐ **أونوبيون (بالاغريقية واتوبيون) Oenopion**

هو ملك جزيرة شيوس وابن أريان وديونيزوس. تعلم من أبيه صناعة الخمر وأدخل صناعة الكرمة في جزيرته. أشهر أولاده ابنته ميروب التي عشقها

أوريون ولأجل أن ينالها قتل كل الوحوش التي كانت تعيش في الجزيرة فساداً، وذلك حسب شرط والدها الذي لم يحجز وعده بتزويجه اياها • ولكن أوريون اغتصب الفتاة ذات ليلة بينما كان أبوها ثملا • وانتقم الملك لشرف ابنته بأن سمل عيني أوريون وطرده من البلاد •

□ **أونوس** بالاغريقية (وانوس) وتعني الخمر **Oenée**

هو ملك كاليدونيا في ايتوليا تزوج ألثيا فولدت له عدة أولاد منهم ميلياغروس • أعطاه ديونيزوس الكرمة وسر الخمر • وفي مملكته جرت أمور هامة منها صيد الخنزير الذي فاز فيه ملياغروس • وفيها قام هرقل بعدد من أفاعيله العجيبة قبل زواجه بديجانير • ثم أقصي أونوس عن العرش على يد أبناء أخيه أغريوس الذين قتلوه فانتقم له حفيده ديوميد •

□ **أونوماوس** **Oenomaos**

هو إبن آريس اله الحرب وملك بيزا في مقاطعة الايليد ووالد الحسناء هيبودامية • وقد ذكرت له احدى النبوءات أن موته مقترن بزواج ابنته هذه ولذا أعلن أنه لن يزوجها الا من يغلبه في سباق العربات • وكان مطمئنا الى النتيجة لأن بوزيدون اله البحر ـ وقيل والده آرس ـ قدم له جيادا لا تسبق • وهكذا هلك كثير من طلاب يد هيبودامية لأنه كان يقتل مسبقه المغلوب • وأخيرا استطاع بيلوبس أن يتغلب عليه بحيلة وذلك بأن رشا سائسه فألصق عجلات عربته على محورها بالشمع وفي أثناء السباق ذاب الشمع فانفصلت العجلات ومات أونوماوس تجره جياده وتزوج بيلوبس هيبودامية •

□ **أونوماوس في الفن** : تظهر على الآنية الاغريقية صورة السباق بين أونوماوس وبيلوبس • وهناك نقوش بارزة تزين الواجهة الشرقية لمعبد زوس في أولمبيا تعود الى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد تمثل السباق • ويبدو فيها أونوماوس ملتحيا ومتكبرا مفعما بالثقة وعلى رأسه خوذة الحرب •

اونون وبالاغريقية (وانون) Oenone

هي حورية فريجية والدها اله النهر سيبرن . اختطفها باريس الى قمة جبل ايدا حيث تزوجها وولدت له كوريثوس ثم هجرها زوجها لـ عشق هيلين فماتت غما . ويقال إنها لم تمت مباشرة وان بريس لما جرح في حرب طروادة جرحا بليغا استدعاها لعناية به لعلمه انها الوحيدة القادرة على شفائه فرفضت متأثرة بخيانته لها ولكنها عندما سمعت بموته انتحرت شنقا أو حرقا .

أياكوس Eaque

هو ابن زوس وايجين وملك جزيرة ايجين ووالد تيلامون وبيلياس . عندما ضرب الطاعون بلاده واهلك أهلها استجاب زوس دعاءه بأن حول النمل بشراً أصبحوا يعرفون بالميرميدون أو شعب النمل . وشاركوا في حرب طروادة بقيادة اخيل . وبعد أن توفي أياكوس جعله زوس قاضياً في عالـم الاموات الى جانب مينوس ورادامانت . وهو جد البطلين أجاكس وآخيل .

ايبافوس Epaphos

هو ابن زوس من ايو . وكانت هيرا قد غضبت عليها فحولتها عجلة . ولمـا آلت ايو الى مصر استعادت صورتها البشرية الجميلة وولدت ايبافوس على شاطىء النيل غير أن الكهنة أخفوه بأمر من هيرا ولكن أمه عادت فوجدته ولما أصبح شاباً ملك مصر وتزوج في ممفيس التي يروى أنه بناها ، وأنجب ثلاث بنات هن ليزياناسا وطيبة وليبيا . وهذه الأخيرة تزوجها بوزيدون فولدت منه آجينور وبيلوس ولما مات ايبافوس عبد في مصر كتجسد للاله الثور آبيس .

الأبيغونيون Les Epigones

هم الابناء السبعة للأبطال السبعة الذين اشتركوا في الحملة الأولى عـلى مدينة طيبة التي قادها ادراست ملك أرغوس انتصاراً لبوليتيس الذي كان أخوه قد طرده من طيبة وقد هلكوا جميعاً ما عدا أدراست . وحين شب أبناؤهم السبعة

ـ الأبيغونيون ـ قاموا بحملة ثانية انتقاما لمصرع آبائهم • وقد أنبأهم وحي معبد دلفي بأنهم لن ينتصروا الا اذا رأسوا عليهم أحدهم وهو الكميون بن أمفياروس • وقتل هذا رئاستهم تحت ضغط والدته • وقد فاجأوا المدينة وانتصروا في معركة حاسمة وقدموا قربانا للاله أبولون الذي صدقهم وعده • ونصبوا أحدهم وهو ثرساندروس ابن بولينيس ملكا على طيبة •

□ ابيكوس Ibycos

شاعر غنائي يوناني عاش في أواسط القرن السادس قبل الميلاد في بلاط الطاغية بوليقراط في ساموس • وقد نسجت حول موته عدة الاساطير • وذلك أنه عندما اغتيل طلب من سرب من اللقلق أن ينتقم له • وحدث أن سربا من اللقالق مر من فوق مسرح احتشد فيه الناس فلما رآه أحد القتلة صاح مذعورا انها طيور الانتقام لايبيكوس ، فكشف بذلك عن نفسه وقبض عليه فاعترف أمام الجمهور ، وأعدم هو وشركاؤه في الجريمة •

□ ابيميثيوس Epimethée

هو المارد بن المارد جابيت وأمه كليمينية وأخوه بروميثيوس • عندما أراد بروميثيوس محب البشر أن يتحدى زوس الغاضب من البشرية نصح أخاه ابيميثيوس ألا يقبل أية هبة من زوس • ولكن أخاه لم يجرؤ على رفض باندورا الجميلة التي قدمها اليه زوس ومعها علبة مغلقة تحتوي على الأوبئة والكوارث • ولما فتحتها بدافع الفضول انطلقت منها الشرور لتصيب البشرية •

□ ابيبوس Epéios

أحد أبطال الاغريق في حروب طروادة كان على رأس ثلاثين مركبا • وجاءت شهرته الحربية من صنعه حصان طروادة الخشبي بوحي من الآلهة • وبواسطة هذا الحصان استطاع الاغريق دخول طروادة ونهبها وتدميرها • وبعد ذلك ذهب الى ايطاليا وأنشأ مدينتي ميتابونت وبيزا • ويقال أن نساء طروادة أحرقن مراكبه فمنعته من العودة الى وطنه •

ايتالوس Italos

تذكر احدى الروايات أن تيليغونوس كان ثمرة لعلاقة بين أوليس والساحرة كيركة . وقد قتل تيليغونوس والده أوليس دون قصد منه وتزوج أرملة أبيه بينيلوبة فولد لهما ايتالوس الذي سميت ايطاليا باسمه ، لانه أصبح ملكا على شعبها القديم وتقول رواية أخرى أنه بطل ايطالي أصيل .

ايتنا Etna

هو البركان الشهير القائم في صقلية مطلا على مدينة كاتان وقد سمي باسم ايتنا الحورية التي فصلت في الخصومة بين هيفايستوس وديمتر حول امتلاك جزيرة صقلية ، وهذه الحورية هي بنت أورانوس وغايا . وفي الاساطير أن زوس سجن تحت هذا الجبل الماردين تيفون وانكيلادوس اللذين تحديا سلطة الأولمب . وأن الهزات البركانية من احتلاجهما واشواظ من أنفاسهما . وفي رواية لاتينية أن جبل ايتنا هو مقر فولكان آله النار الذي كان يصنع فيه بمساعدة المردة السيكلوبات صواعق جوبيتر وأسلحة الأبطال .

ايتيس Itys

هو ابن تيروس وبروكنة . لما دنس تيروس فيلوميل أخت زوجته وقطع لسانها لئلا تبوح انتقمت الأختان منه بأن قتلتا ابنه ايتيس وقدمتاه له على مائدة الطعام .

اتيوكل Eteocle

هو ابن أوديب . كان أوديب قد قتل أباه وتزوج أمه جوكاست بدون أن يعلم . فولد له منها ابناه ايتيوكل وبولينيس وبنتاه يسمين وأنتيغون . ولما اكتشف فعلته سمل عينيه ، وطرده ابناه من طيبة التي كان يحكمها ، فلعنهما وأنذرهما بعداوة أبدية . وتنبأ بأن سيقتل كل منهما الآخر . وقد حكم الأخوان طيبة بالتناوب ولما انتهت سنة حكم ايتيوكل وطالبه أخوه بدوره في الحكم استأثر

ايتيوكل وطرد أخاه الذي ألب على طيبة عددا من حلفائه في حرب السبعة ضد طيبة • وأثناء هذه الحرب تبارز الاخوان فقتل كل منهما الآخر • ونظرا لأن ايتيوكل كان يدافع عن المدينة فقد استحق التشييع المناسب بينما حرم أخوه من الطقوس الجنائزية •

□ **ايجوس** **Egée**

ملك أثينا ووالد تيسيوس وهو مؤسس أعياد الآلهة أثينا • قتل أندروجيه بن مينوس ملك كريت فحكم عليه بأن يرسل الى كريت سنويا سبعة غلمان وسبع فتيات من أثينا ليأكلهم المينوتور وحش الجزيرة ، وقد أرسل ايجوس ابنه تيسيوس في آخر فوج من الضحايا وأوصاه بأن يقتل المينوتور اذا استطاع وأن يبدل بأشرعة السفن السود أشرعة بيضا دلالة على نجاته وظفره • وقد انتصر تيسيوس وقتل المينوتور ولكنه نسي أن يبدل الاشرعة فلما رآها ايجوس الذي ينتظر على مرتفعات الشاطىء ظن أن ابنه قد هلك فألقى بنفسه في البحر الذي حمل اسمه (بحر ايجه)

□ **ايجيبتوس** **Egyptos**

هو ابن بيلوس والأخ التوأم لداناوس • وقد رزق ايجيبتوس خمسين ولدا قتلوا كلهم على يد بنات عمهم داناوس ما عدا واحدا منهم وقد حكم ايجيبتوس مصر التي سميت باسمه •

□ **ايجيد** (ايجيس باليونانية) **Egide**

هو في الاصل درع زوس التي لا تثقب وقد أصبح فيما بعد علما على درع ابنته أثينا وهو عبارة عن ثوب من جلد الماعز مزخرف بصور الثعابين ومحلى بالحراشف وفي وسطه رأس سملاة • وقد صنع ايجيد أثينا من جلد العنزة امالتيه ويشاهد في تماثيلها مغطيا كتفيها وصدرها •

□ **ايجيريا** **Egérie**

احدى ربات الليل عند الرومان • كانت زوجة ومستشارة لنوما بومبيليوس

ثاني ملوك روما وقد تحولت بعد موتها الى ينبوع يجري قرب أريسيا في اللاتيوم وقد عبدها الرومان باعتبارها الآلهة المهيمنة على الولادات .

□ ايجيست Egistne

ابن ثييسترس . قتل عمه آتريوس واستولى على السلطة في ميسين فطرده منها ابن عمه أغاممنون . وفي أثناء حرب طروادة أغوى ايجيست كليتمنسترة زوجة أغا ممنون واغتالاه عند عودته ، فثأر له ابنه أورست وقتلهما .

□ ايجيميوس Aegimius

هو الجد الاسطوري للدوريين . أسر في معركة ضد اللابيتيين فطلب مساعدة هرقل وأراد أن يكافئه باعطائه ثلث مملكته . الا أن هذا رفض بإباء وأراد ايجيميوس أن يعبر عن عرفانه لجميل هرقل فتبنى أحد أولاده (هيلوس) ومن سمه واسم أخويه بانفيلوس وديماس إبني ايجيميوس جاءت أسماء ثلاثة أعمدة دورية .

□ ايدا Ida

جبل في كريت يوجد فيه الكهف الذي ولد فيه زوس وقد سمي هذا الجبل باسم مرضعته ايدا . وهناك قمة بهذا الاسم بالقرب من طروادة وتدعى حالياً (كازداغ ١٧٥٠ م) وقد تخذها الآلهة مقرا لهم أثناء حرب طروادة ، وعليها جرى تحكيم باريس بين الآلهات المتنافسات على تفاحة ايريس الذهبية .

□ ايداس Idas

هو ابن آفاريه ، خطف ماربسّا أميرة ايتوليا وحفيدة آريس وكان أبولون يحبها ويريدها لنفسه فخيَّرها زوس بينهما فاختارت ايداس . وقد اشترك ايداس في صيد الخنزير البري في كاليدونيا وفي رحلة الأرغيين ، ونشبت بعدئذ معركة بينه وبين ابني زوس كاسترو وبوليتيكس المعروفين بديوسكور بسبب الخلاف على قسمة قطيع فقتل ايداس كاستور وهمّ بقتل أخيه لولا أن تدخل

أبوهما فضرب ايداس بالصاعقة . ويقال ان سبب النزاع خلاف بينه وبين الاخوين ديوسكور على حب ابنتي لوسيبوس هيليرا وفوابيه .

□ ايدومينوس Idomenée

هو حفيد مينوس ملك كريت وقائد الكريتيين في حرب طروادة ، وهو احد الذين اختبأوا في جوف الحصان الخشبي وتمكنوا من دخول طروادة . وكانت عودته الى بلاده حميدة حسب رواية الأوديسة ولكن بعض الروايات الأخرى تزعم أنه كانت عودة مشؤومة،حينما داهمت أسطوله العواصف،نذر أن يضحي لبوزيدون أول من يستقبله عند عودته ، وكم كان هلعه عظيماً حين بقي على الشاطىء ابنه الحبيب أول مستقبليه . وترجح الروايات أنه وفى بنذره فغضبت عليه بقية الآلهة وأصابت كريت بالطاعون فطرده أهلها الى كالابريا حيث أسس مدينة سالانت ونقل اليها قوانين جده مينوس الحكيمة .

□ ايدون Aedon

هي بنت بانداريوس وزوجة زيتوس ملك طيبة . لم ترزق الا ولداً واحداً هو ايتليوس . فحسدت نيوبيه زوجة أخيها على كثرة أولادها وارادت أن تقتل لها ابنها البكر ولكنها أخطأت فقتلت ابنها الوحيد مما سبب لها آلاماً شديدة حتى أشفق عليها زوس وحولها بلبلة .

□ ايراتو Era'o

هي ملهمة الشعر الغنائي والغرامي عند الاغريق ، إليها توجه فرجيل عندما أراد نظم الانيادة وكان الفنانون يمثلونها أو يصورونها فتاة تمسك بيدها اليمنى قيثارة و باليسرى سهماً ، ويتوجون رأسها بالآس والورد .

□ ايرجينوس Erginos

هو ابن كليمينوس ملك المنيين في أورخومين . وقد قتل أبوه تحت احدى العربات الطيبية أثناء الاحتفال بعيد بوزيدون ، فغضب ايرجينوس وشن حملة

على طيبة أحرز فيها انتصاراً سريعاً وارغم سكانها على دفع جزية سنوية مقدارها مئة ثور سنويا لمدة عشرين عام . ولكن هرقل قبض على رسله الذين جاؤوا لأخذ الجزية المعتادة فصلم آذانهم وجدع أنوفهم وغلّ أعناقهم بالحبال وأرسلهم الى ايرجينوس ، فغضب هذا وزحف ثانية على طيبة التي كان يحكمها كريون ولكنه اصطدم هذه المرة بجيش من شباب طيبة يقوده هرقل فهزم وقتل . وفي زاوية أخرى أنه عاش بعد هزيمته وشارك في رحلة الارغيين وتزوج وأنجب المعماريّن المشهورين آغاميد وتروفونيوس .

□ ايروب **Aerope**

هي زوجة آتريوس وقد خانته مع أخيه ثييستوس الذي قدمت له الكبش الذهبي وبفضل هذا الكبش كان يجب أن يصبح حاكماً شرعياً لمنطقة ميسين ولكن آتريوس عرف كيف يحول بينه وبين الحكم .

□ ايروس **Iros**

١ ـ متسول أتيكي حاول أن يبعد أوليس عن مملكته بلكمة من يده أثناء ابتهاج الطامعين في بينيلوبة الا أن البطل قتله .

٢ ـ ثمة ايروس آخر هو والد الأرغيين أوريداماس وأوريتيون . قتل بيليوس خطأ أحد أبنائه ودفع ديته قطعانا من الماشية فرفضها ايروس وتركها في العراء فأكلها الذئب ثم تحول هذا الوحش الى تمثال من الحجر .

□ ايروس **Eros**

١ ـ هو أحد الآلهة المذكرة التي حكمت الكون قبل ظهور البشر وتتعدى قدرته الاحياء الى الجمادات والنباتات وهو الذي جعل النظام والترابط في أجزاء السديم الكوني الاول وهو القوة المجمعة والمازجة والموحدة ، انه القوة الجاذبة التي تحمل الموجودات على التآلف لانتاج الحياة .

٢ ـ آله الحب عند الاغريق وهو ابن آفروديت وآريس وزوج بسيشة وقد

اتحد عند الرومان بكيوبيد اله الحب وصوره الفنانون بهيئة غلام مجنح يرمي بسهامه قلوب البشر ويوقد في نفوسهم شعلة الهوى ٠

٣ ــ ايروس أو الحب عند أفلاطون هو هبة الآلهة للانسان ويعني التشوق الى الخير والخلود ٠

□ ايريب Erèbe

تعني في الاصل الظلمات وربما أطلقت على ظلمات الجحيم ثم تشخصت فأصبحت تعني ابن لسديم وأخا الليل وفي الاساطير أن ايريب ساعد المردة في حربهم ضد آلهة الأولمب فالقي في الجحيم ٠

□ ايريختوس Erechthée

بطل أتيكي قديم وهو ابن هيبايستوس وجيا ٠ عهدت به أمه الى الآلهة أثينا لتنشئه وعندما شب وأصبح ملكا على أثينا أدخل عبادة هذه الآلهة اليها ٠ وقد حكم في الخصومة التي قامت بين بوزيدون وأثينا وعبد مع هذين الالهين في معبد أريختيون في الأكروبول وهذا المعبد يحتوي على قبره وتوحده بعض الروايات بايرختونيوس الذي حمل طفلا في سلة الى بنات سيكروبس ٠

٢ ــ وقد سمي بهذا الاسم حفيده الذي ملك أثينا ٠ وكانت له سبع بنات متحابات تواثقن على أن ينتحرن جميعاً اذا ماتت احداهن ٠ وقد تعرضت أثينا في أيامه الى هجوم شنه عليها أومولبوس بن بوزيدون ٠ ولما استشار ايرختوس هذا عرافة دلفي أشارت عليه أن يتقرب الى الآلهة باحدى بناته ففعل وانتصر ولكن أخواتها انتحرن وفاء لعهدهن ٠

وتلبية لطلب بوزيدون الغاضب ضرب زوس ايرختوس باحدى صواعقه فأهلكه ٠

□ أيريختونيوس Erichthonios

لما كان الاله هيبايستوس يلاحق الآلهة أثينا بغراميته العنيفة مست بعض

تلف ساق الآلهة ووقعت على الارض فكان منها طفل يدعى اريختونيوس وقد وضعته أثينا في صندوق مغلق وأودعته عند باندوروس احدى بنات سيكروبس واوصتها بألا تفتح الصندوق • وبما عهد عند المرأة من الفضول فتحت الاخوات الصندوق وفوجئن بالطفل ومعه ثعبانان • ومن هول المشهد وشدة الفزع القين بأنفسهن من فوق قلعة أثينا • وقد أصبح ايريختونيوس فيما بعد ملكاً على هذه المدينة وأدخل عبادة أثينا اليها وأقام فيها اعياد الآلهة أثينا •

□ ايريس Eris

هي آلهة الفتنة والشقاق ويقال انها ابنة الليل - ويروى أن هيرا ولدتها حين لمست زهرة وتعد توأم آريس ورفيقته في الحرب وكانت وظيفتها اذكاء العداوة والكراهية بين المتحاربين وهي التي تسببت في نشوب حرب طروادة وقصة ذلك أنها حضرت مأدبة لم تدع اليها فكانت مغتاظة ولذلك رمت تفاحة ذهبية مكتوباً عليها (الى أجمل فتاة) فتنافست عليها الآلهات هيرا وأثينا وأفروديت واحتكمن الى الامير الطروادي باريس الذي قدم التفاحة الى أفروديت فكافأته أفروديت بأن قدمت اليه هيلين الجميلة فخطفها باريس وثارت ثائرة الاغريق ومن أجل ذلك شنوا حملتهم الشهيرة على طروادة • وقد ولدت ايريس مجموعة من الآلهات المجردات الخبيثات كالجوع والتعب والنسيان وغيرها وقد أصبحت تفاحتها رمزا للفتنة •

ايريس في الفن : ظهرت صورتها على بعض المرايا الاتروسكية مجنحة وفي عصر النهضة والعصر الباروكي برز كثيرا في الاعمال الفنية مشهد تحكيم باريس•

□ ايريس Iris

هي آلهة قديمة • وهي بنت توماس وايلكترا وهي رسولة الآلهة وعلى الأخص هيرا ووصيفتها المخلصة التي تستجيب لأدنى رغباتها ويعد قوس قزح تجسيدا لها لانه الجسر الذي يمتد بين الارض والسماء وقد اعتبرها بعض الشعراء المتأخرين زوجة زفير وأم ايروس •

ايريس في الفن : تمثل ايريس بشكل فتاة مجنحة على الاواني الاعريقية حاملة بيدها عصاً أو ابريقاً ·

☐ **ايريستيختون Erysichthon**

١ ـ هو ابن أحد ملوك تساليا وكان قد اقترف خطيئة قطع أشجار غابة لديمترا فعاقبته بجوع دائم فلم يكن يشبعه شيء فانتهى بأن أكل نفسه ·

٢ ـ هو ابن سيكروبس أحد مؤسسي أثينا ·

☐ **ايريغونة Erigoné**

١ ـ بنت كليتمينيسترة من ايجيست ·

٢ ـ بنت ايكاريوس الاثيني الذي قتله رعيان سكارى ولم يتقم لهفشنقت ابنته ايريغونه نفسها حزنا عليه ولما كان الآلـه ديونيزوس يحبها فقد غضب وانتصر لها ورمى بنات أثينا بجنون يدفعهن الى شنق أنفسهن على أغصان الصنوبر ولما استشار الاثينيون عرفة دلفي وجههم الوحي الى انزال القصاص بالرعيان المجرمين فشنقوهم وبذلك سكن غضب الالهة وانحسر الجنون عن بنات أثينـا وقد أقيم عيد في أثينا تخليداً لايريغونة ·

☐ **ايريفيل Eriphyle**

هي مثال افتتان المرأة بالزينة والتبرج · وهي أخت أدراست وزوجـة أمفياروس · وكانت تقوم بدور الحكم بين زوجها وأخيها · وعندما قرر أخوها أن يزحف على طيبة انتصاراً لبولينيس بن أوديب رفض أمفياروس المشاركة في هذه الحملة متوقعا الهزيمة ومقتله فيها · ولاجل أن يرغمه ادرست على الاشتراك في الحرب ، أشار على حليفه بوليبيس بأن يقدم لايريفيل عقداً ورداء ثمينين ، مما جعلها تنسى حب زوجها وتلزمه الذهاب مع الحملة حيث هلك فعلا فانتقم له ولداه ألكميون وامبيلوكس وقتلا أمهما · ولما كان هذا العقـد يجلب الشؤم لمن يحوزه فقد أهدي الى الآلهة أثينا وأودع معبدها ·

ايريفيل في الفن : توجد صورة لبولينيس في ثياب مسافر وهو يقدم العقد الى ايريفيل فتتناوله باليد اليمنى وتعود هذه الصورة الى القرن الخامس قبل الميلاد ٠

□ ايريكس Eryx

هو ابن الآلهة أفروديت ويسمى باسمه جبل في صقلية أقيم على قمته معبد لامه أفروديت ٠ كان ايريكس ملكاً على مقاطعة ايليم في صقلية وكان يتمتع بقوة خارقة مما جعله يتحدى هرقل ٠ وقد قبل هرقل التحدي على شرط أن يأخذ مملكته اذا غلبه ٠ولما التحما رفعه هرقل في الهواء ثم صرعه على الأرض فمات ٠ وأصبحت المملكة من حق هرقل ولكنه تخلى عن حكمها لأهلها واخبرهم بأن أحد أحفاده سيحكمها في يوم ما وقد كان هذا الحاكم هو دوريوس ٠

□ ايرينه Irènée

هو تشخيص يوناني للسلم واحدى بنات روس الثلاث الراعيات للنظام الكوني والاجتماعي ٠

ايرينه في الفن : تمثل ايرينه أو السلم على هيئة امرأة تحمل العصا وقرن الثروة والشعلة وقد اشتهر تمثالها المرمري الذي صنعه الفنان سيفيزودوت في سنة ٣٨٠ ق٠م ويمثلها حاملة بلوتوس رمز الثروة والتمثال محفوظ في متحف ميونيخ ٠

□ الايرينات Les Erinnyes

اسم يطلق على آلهات الانتقام الثلاث تيسيفون وميجير وآليكتو ٠ زعم هزيود أنهن ولدن من الأرض بعد أن أخصبها دم أورانوس أما أسخيلوس فقد روى أنهن بنات آشيرون ٠ أجسامهن مجنحة وجدائلهن من الأفاعي ويحملن مشعلاً وسوطاً ويلاحقن المذنبين والمخلين بالنظام العام وينزلن بهم العقوبة في الحياة وبعد الموت أما في الحياة فبالندم وتأنيب الضمير والجنون والخوف من العقاب ، وأما بعد

الموت فيجلدنهم بالسياط ويشتمنهم . وكانت هذه المقوبات تنزل على الاخص بمن يخفر ذمة المستجير أو الضيف أو يقتل والديه أو يحنث بيمينه • وقد يكون عقابهن جماعيا كأن يرسلن الوباء على المنطقة التي وقعت فيها الجريمة • وممن وقع عليهم عقابهن أورست قاتل أمه • ويستطعن القاء الكراهية بين ضحاياهن كما فعلن بين الاخوين ايتيوكل وبولينيس ابني أوديب • ثم يلطفن مع من تطهر من ذنبه • وكان الاغريق يذكرونهن بالاجلال والخوف ويتجنبون ذكر أسمائهن الصريحة بل يكتفون عنهن بكلمة (أومينيد) ومعناها الخيّرات • أما الرومان فيسمونهن (ديريا) وتعني الرهيبات •

الايرينات في الفن : درج الفنانون القدماء على تصويرهن بعيون ملتهبة وشعر من الافاعي وفي أيديهن المشعل والسوط وأحيانا على هيئة سيدات بأثواب قصيرة ومن تماثيلهن الشهيرة تمثال ايريني النائمة الموجود في روما والعائد الى العصر الهيليستي في القرن الثاني ق•م

□ ايزاكوس Aesacus

هو ابن بريام ملك طروادة أحب الحورية هيسبري التي نهشها ثعبان فماتت فدفع اليأس ايزاكوس لان يلقي نفسه في البحر فتحول الى طائر غواص بقدرة تيثيس •

□ ايزيس Isis

هي آلهة المصريين القدماء وزوجة أوزيريس وأم حوريس وكانت آلهة الخصب والنظام وحامية الأمومه وحاكمة العالم الآخر وبها صلاح الفرد والدوله، وقد بدأت عبادتها تنتشر بين اليونان في العصر الهيلينستي ثم اتسعت في الامبراطورية الرومانية وأنشيء لها معبد في ساحة مرس بروما • وكانت عبادتها تقوم على الاسرار اذ تمثل طقوسها أحزان ايزيس لمصرع زوجها وبحثها عنه ثم أفراحها عندما يعود الى الحياة ، فالتشابه واضح بين أسطورتها وأسطورة

كل من ديمترا وسيبيل الأولى في بحثها عن ابنتها برسفونة والثانية في بحثها عن حبيبها آتيس • وقد وحدها اليونان أحيانا بايو حبيبة زوس •

□ **ايسكولاب** (باليونانية اسكليبيوس) **Esculape**

هو آله الطب عند الاغريق • وهو ابن أبولون وكوروتيس • وقد صوره الادب اليوناني المغرق في القدم بصورة بطل بشري • وذكر هوميروس انه كان حاكم منطقة تيكـ في تساليا ووالد بودالير ومشاوون طبيبي الجيش الاغريقي الذي حاصر طروادة • وكان أبوه أبولون قد عهد بتربيته الى شيرون معلمه الطب حتى تَطبَّب ونبغ واصبح قادراً على احياء الموتى ولكن زوس اغتاظ منه فضربه باحدى صواعقه • وقد انتشرت عبادة ايسكولاب في أرجاء اليونان ولا سيما في أبيدور حيث يوجد معبده الرئيسي الذي يرتاده المرضى معتقدين أنهم يشفون أثناء النوم او يحلمون بالدواء الناجع • وأقيمت حول المعبد منشآت عديدة منها المسرح الضخم الذي حافظ على بهائه رغم القدم • وفي معبده كانت تمارس عبادة الأفعى وهي الحيوان المنذور لايسكولاب لانها رمز الحياة• وقد اكتسب كهنة معبده خبرة في التشخيص والعلاج اشتهرت بها ابيدور وسائر مناطق عبادة ايسكولاب وبذا أصبحت مراكز لانطلاق الطب اليوناني • وعندما أصاب الطاعون مدينة روما حوالي عام ٢٩٣م أرسل الرومان بعثة الى أبيدور لنقل الآله الى روما وقد عبده الرومان مرموزا اليه بالافعى •

ايسكولاب في الفن : يمثل ايسكولاب بصورة رجل مكتهل وملتح ، عليه ملامح النباهة تلازمه عصاه وأفاعيه ، وكان اسكوباس وألكامين أشهر من مثله من النحاتين ، وفي برلين ونابولي نسخ من تمثال ألكمين يبدو فيها الآله مغطيا كتفه الايسر بردائه وكاشفا كتفه الايمن ومعتمدا على عصاه التي لتفت عليها احدى لحيات • ويوحي شعره ولحيته بشيء من ملامح زوس • وقد فقد تمثاله الذهبي والعاجي الذي صنعه الفنان ثراسيميد خصيصا لمعبده في ابيدور فيالقرن الر بع قبل الميلاد • بينما وصلتنا كثير من صوره البارزة • وكانت صوره تزيّن

كتب الطب في العصور الوسطى أما في عصر النهضة فقد أصبح ايسكولاب صيدلانيا .

□ ايسمين Ismène

هي بنت أوديب من أمه جوكست وأخت أنتيغون واتيوكل وبوليتيس . لما طرد أوديب من طيبة وطاف مسمول العينين أرجاء اليونان رافقته أنتيغون بينما بقيت ايسمين في طيبة ، ولكنها كانت بقربه عندما مات في كولونا ثم عادت بصحبة اختها الى طيبة . وعندما قتل أخوهما بولينيس ومنع كريون تقديم الشعائر الجنائزية له باعتباره خائنا للوطن ، التزمت ايسمين بأمر كريون خوفا من الموت، في حين أقدمت أنتيغون على تقديم تلك الشعائر لأخيها مضحية بنفسها. وقد حاولت ايسمين أن تشاركها في مصيرها المحتوم ، لكن أنتيغون أبعدتها بلطف ومضت وحدها الى الموت . وبعد هذه الحادثة يختفي ذكر ايسمين من الاساطير حتى أن تاريخ موتها وكيفيته مجهولان .

□ ايشيدنا Echidna

هي بنت غايا من بونتووس ، وقد كانت وحشا خرافيا نصفه امرأة ونصفه أفعى . أنجبت من الوحش الهائل تيفون كل أنواع الوحوش الخرافية مثل شيمير وكلب جيريون وأرثروس وسيربير والاسفنكس ، ووحش بحيرة ليرن ، وتنيات كولشيد وبستان هيسبيريد ، وميدوزا ، والنسر الذي يأكل كبد بروميثيوس وغيرها . وقد لعبت هذه المخلوقات العظيمة أدوارا رئيسية في الاساطير اليونانية. وعقابا لايشيدنا على هذه الذرية اللعينة وعلى افتراسها المسافرين ، سلطت عليها الآلهة آرغوس ذا مئة العين فقتلها وهي نائمة .

□ ايفاندر Evandre

تتضارب الروايات حول مولد هذا البطل اليوناني الروماني وأشهرها أنه ابن هرمس والحورية الاركادية نيكوستراتا التي يدعوها الرومان كارمانتا . أنشأ مدينة بالانتيه في اللاتيوم بعد أن استوطن ايطاليا على رأس جالية يونانية

قبل حرب طروادة بسنوات · وبفضل حكمته وعلمه حاز تقدير السكان الاصليين لعلمهم القوانين الجديدة والكتابة ونقل اليهم عبادة بعض الآلهة · استقبل هرقل بمراسم التقديس كما استقبل ايبياس وحالفه في حروبه وبعد وفاته أصبح في عداد الخالدين ·

□ ايفيتوس Iphitos

١ ـ هو ابن اوريتوس ملك أوشاليا · وقد برز كأحد الرماة المهرة مع الأرغيين وهو الوحيد بين اخوته الذي اقر حق هرقل في الزواج من أخته يولا عندما ربح مباراة الرماية ولكن هرقل قتله عندما حاول أن يسترد منه الثيران التي غنمها ويقال أن هرقل أخذته نوبة من الجنون فالقى به من فوق الاسوار ·

٢ ـ ملك بين الاسطورة والتاريخ حكم مقاطعة الايليد في القرن التاسع قبل الميلاد وقد أصيبت مملكته بالانقسام والمجاعات والأوبئة فاستشار عرافة دلفي فنصحته بأن يعيد الألعاب الاولمبية التي أسسها هرقل واهملها القوم من بعده ففعل ، ومد يده بالمودة الى ليكورغوس حاكم اسبرطة فتحققت بذلك أول وحدة بين أجزاء بلاد اليونان المنقسمة الى دويلات وحكومات متعادية فأصبحوا يتناسون خصوماتهم على الاقل في موسم الألعاب الأولمبية ·

□ ايفيجينيا Iphigenie

هي بنت آغا ممنون وكليتمنسترة · حين كان والدهـا قائدا للاسطول اليوناني الذاهب لاقتحام طروادة أسكنت الآلهة آرتيميس الريح في مرفأ أوليس فعجز الاسطول عن الابحار فأشار عليه الكاهن كالشاس أن يضحي ابنته ايفيجينيا للآلهة آرتيميس · وبعد تردد اضطر الأب الى الاذعان فاستدعى ابنته من مدينة ميسين بحجة أنه سيزفها الى آخيل ، ولما أصبحت تحت السكين أخذت آرتيميس الشفقة عليها فوضعت محلها على المذبح وعلا ويقال انه حملها في غمامة الى توريد في شبه جزيرة القرم حيث جعلتها آرتيميس كاهنة معبدها المسؤولة عن ذبح الغرباء الذين يدخلون المنطقة · وحدث أن أخاها أورست من توريد بصحبة

صديقه بيلاد فلما قدم اليها لتذبحه عرفته وادعت أنه ارتكب جريمة قتل فلابد من تطهيره قبل تقريبه - وهكذا تمكنت من انقاذ حياته وهربت معه عائدة الى بلاد الاغريق • ويقال انها ماتت في ميغارا وأن آرتيميس وهبتها الخلود • وقد ذكرها هوميروس باسم ايميانسا ولم يتعرض لحادثة تقريبها • والحق أنها في الاصل أحدى تشخيصات آرتيميس وقد الهمت ايفيجينيا كثيرا من كتاب العصور القديمة واللاحقة ومنهم أوريبيدس الذي كتب (ايفجينيا في أولس) و (ايفيجينيا في توريد) ومنهم راسين وفوندل وغوته وغلوك •

ايفيجينيا في الفن : ظهر منظر تقريب ايفيجينيا في كثير من الصور الجدارية في بومبي حيث تبدو فتاة تتقدم الى المذبح بسكينة وظهرت لها رسوم أخرى في هذه المدينة وهي في توريد مع أخيها وصديقه بيلاد • ومن رساميها في العصور المتأخرة ريتشي وبيتوني وبانكوفيش وتيبولو -

□ ايفيس Iphis

١ ــ فتاة من كريت حاولت أمها تيليثوزا أن تتخلص منها لان والدها يكره البنات فتدخلت الالهة ايزيس ونصحت الأم بأن تلبسها زي البنين ، وهكذا نشأت ايفيس وعندما شبت عشقتها فتاة من الحي تحسبها شابا فتحابتا • ولما حان وقت الزفاف أحرجت تيليثوزا فلا هي قادرة على الزوج بالحقيقية ولا هي قادرة على اجراء الزفاف وأخيرا تدخلت ايزيس مرة ثانية فحولت ايفيس الى فتى وتم الزواج •

٢ ــ عاشق الحسناء آناكساريتية الذي انتحر لأنها لم تكن تحبه •

□ ايفيكليس Iphiclès

هو ابن أمفتريون والكمين ويعد الاخ غير الشقيق لهرقل الذي ولدتـــه الكمين من زوس ، وقد ولد ايفيكليس قبل هرقل بليلة واحدة ولما كان من طبيعة بشرية فقد أعوزته شجاعة أخيه وقوته الخارقتان • فحين أرادت هيرا ذات ليلة أن تنتقم من غريمتها الكمين أرسلت الى بيتها ثعابين في سلة لقتل الطفل هرقل •

ولما شاهدهما ايفيكليس هرب من معهده وجعل يصرخ وأما هرقل الصغير فقد خنقهما ببراعة جأشه وخنقهما · وقد ارتبطت حياة ايفيكليس بأخيه البطل فصحبه في عدة حملات وعلى الاخص في حملته ضد ورشومين وقتل في الحرب ضد أبناء هيبوكون ·

□ ايكاروس Icare

هو ابن البطل اليوناني ديدال من احدى جواري مينوس ملك كريت ، وقد حبس الابن والوالد في تيه كريت وتمكنا من الخروج بفضل أجنحة صنعها ديدال وألصقاها بجسميهما بالشمع · وقد أعجب ايكاروس بقدرته على الطيران فحلق عاليا على الرغم من تحذير أبيه له فأذابت الشمس الشمع فانفصل الجناحان وسقط ايكاروس في البحر فحمل هذا اسمه بعدئذ ، وقد دفن في جزيرة ايكاريا الواقعة في الغرب من ساموس ·

□ ايكاريوس Icarios

١ ـ هو اثني أحسن ضيافة ديونيزوس فكافأه بأن علمه صنع الخمر · وقد افتتن ايكاريوس بشرابه هذا فسقى منه رعاة في وليمة فسكروا واصابهم صداع وحسبوا انه سقاهم سما فقتلوه · وقد اكتشفت ايريغونه قبره بفضل حاسة الشم عند كلبتها ميرا فانتحرت فغضب ديونيزوس واصاب بنات أثينا بالجنون فأخذن يشنقن أنفسهن على جذوع الصنوبر ولم يرفع هذا البلاء الا بعد الانتقام لمصرع ايكاريوس ·

٢ ـ هناك ايكاريوس آخر ينتسب الى بيريير وكان هيبوكون قد طرده وأخاه تندار من لاكيديمونيا فعاش في آركانانيا وتزوج الحورية بيريبولا فولدت له أبناء منهم بنلوبه الحسناء التي كانت احبهم اليه · ولما بلغت سن الزواج أراد أن يصرف عنها الخطاب حتى لا تفارقه فكان يضع العراقيل في سبيلهم وأخيراً جعلها جائزة لمن يستطيع أن يتفوق عليه في سباق العربات ففاز أوليس وأصبحت بينيلوبه من حقه ولكن أباها اشترط عليه أن يعيش بقربه فلم يرض وخير الوالد ابنته

بين أبيها وفتاها فاحمر خداها خجلا وغطت وجهها بحجاب فعرف أنها قد احتارت أوليس فخضع ايكاريوس لقرارها وبنى في مكان الحادثة معبداً لالهة الحياء .

□ ايكسيون Ixion

هو ملك اللابيثيين ،تزوج ديا بنت ديونوس بعد أن وعد أباها بهدايا نفيسة، ولكنه نكث بوعده وزاد على ذلك أن قتـل حماه بالقائه في الفرن فثارت ثائـرة الآلهة ولم يقبلوا له توبة أبداً فالتجأ الى زوس الذي رق لنكبته ودعاه الى مائدته وأطعمه من طعام الآلهة ، وبدلاً من الاعتراف بجميل كبير الآلهة اشتهى ايكسيون هيرا وحاول تدنيسها فخلق زوس سحابة على هيئة هيرا فاتحد بها ايكسيون وكانت الصانتـورات (البشر الأحصنة) ثمرة هـذا الحب الوهمي ثم ألقاه في أعمـق الجحيم ووكل بتعذيبه هرمس فربطه بأربع أفاع على دولاب مشتعل يدور به الى الأبد ، وهذا يمثل عقاب ناكري الجميل .

□ ايكسيون في الفن : وجدت على بعض الآنية في جنوبي ايطاليا صورة تمثل عقاب ايكسيون وهي عبـارة عن دولاب مشتعل تحيط به أربـع أفاع وعليه رجل عـار مقيد بالسلاسل .

□ ايكو Echo

حورية يونانية من بيوتيا شقيت في حب نرسيس وماتت غماً وبقي صوتها من بعدها فهو الصدى .

□ ايلبيس Elpis

هي الأمل عند اليونان ثم الرومان الذين أسموها سبيس . والأمل هو الشيء الوحيد الذي بقي في علبة باندورا بعد أن غادرتها جميع الشرور . وقـد عبدها القدماء ومثلها الرومان بصورة فتاة ترفع ذيل ثوبها باحدى يديها وتحمل باليد الأخرى زهرة في أول تفتحها .

□ ايلبينور **Elpénor**

هو أحد رفاق أوليس ـ مسخته الساحرة كيركة خنزيراً ثم استرجع هيئته الانسانية ، سقط وهو ثمل من أعلى قصر كيركة فانكسر رأسه ومات ـ ولما نزل أوليس الى الجحيم التقى بطيفه فوعده بأن يقيم له جاراً يليق به ـ

□ ايلوزيس **Eleusis**

مدينة صغيرة في أتيكا تقع على خليج يحمل اسمها ، اشتهرت بالشعائر السرية التي تقام فيها تكريماً لديمترا وبرسفونه وكان يصلها بأثينا طريق طوله اثنان وعشرون كيلو متراً يدعى الطريق المقدس عند الأثينيين الذين مارسوا هذه الطقوس منذ القرن السابع قبل الميلاد ـ

□ ايلوس **Ilos**

هو ابن تروس والحورية كاليرووية وأخو كليوباترة وأسار كوس وغانيميد وحفيد داردانوس ، تزوج أوريديسة فأنجبت له لاوميدون والد بريام وتزوج أخرى ولدت له بنتا هي جدة اينياس ـ يروى انه فاز في بعض الألعاب فحصل على جائزة هي جمة من العبيد مع بقرة ـ وتبع ايلوس البقرة حسب اشارة الوحي فوقفت على هضبة أتيه في فريجيا فبنى عندها مدينة ايليون التي سميت فيما بعد طروادة ـ وقد بارك زوس هذا الاحتيال فأرسل اليه تمثال أثينا بالاس حامياً للمدينة الجديدة ـ

□ ايليثيا **Ilithie**

هي ربة الأمومة وحامية الوالدات والقابلات وأخت هيبيه وآريس وهيفايستوس ـ أرسلتها هيرا لتساعد النساء في المخاض واتحدت في العصور المتأخرة بهيرا أو آرتيميس ـ

ايليثيا في الفن : تمثل ايلثيا عادة بشكل فتاة ترفع يداً وتمسك بالأخرى

مشملا مضاء رمزاً للحياة الجديدة التي ترى النور • وتبدو في بعض الصور لابسة ثوباً بدون أكمام معقوداً فوق الكتف ومتوجة بضفيرة نباتية •

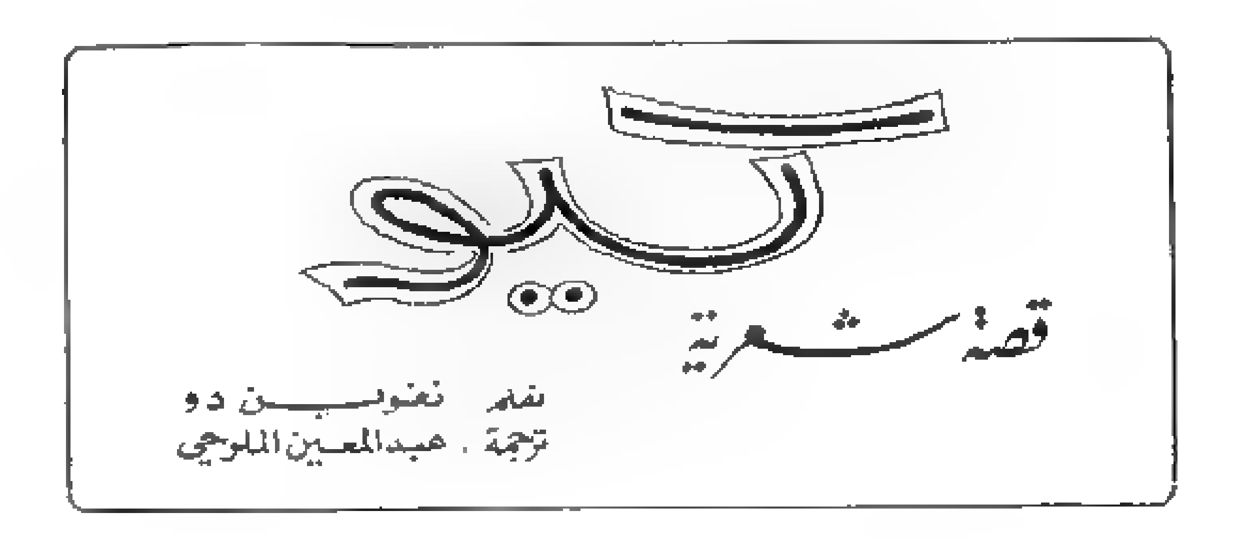
□ ايليد Elide

مقاطعة في شبه جزيرة المورة ، أشهر مدنها ايليس وأوليمبيا التي كانت تقام فيها الألعاب الأوليمبية الشهيرة على شرف زوس كل أربع سنوات • وكانت ايليد تعتبر منطقة حراماً لا يدخلها انسان بسلاحه وعلى قاصديها أن يلقوا خصوماتهم وحروبهم •

□ ايليزيه Elysée

وتسمى أيضاً حقول الايليزيه (شانزيليزيه) وهي سهل نضر في أقصى الارض ينقل اليه من تصطفيهم الآلهة بعد الموت حيث ينعمون بحياة أبدية سعيدة

□ ■ □



نغويـن دو

(١٧٦٥ ـ ١٨٢٠ م)

ولد « نغوين دو » عام ١٧٦٥ م ، في أسرة من كبار الموظفين شغل كثير من افرادها وظائف رفيعة في بلاط أسرة « لي » المالكة • وقبل « نغوين » نفســه في مسابقات المثقفين وشغل مركزاً متواضعاً كموظف عسكري حتى سقوط أسرة « لي » في الربع الأخير من القرن الثامن عشـر ، وسقوط الأسرتين الاقطاعيتين ، أسـرة « ترينه » في الشمال واسرة « نغوين » في الجنوب ، وقد تم سقوطها كلها عـلى يد الحركة الشعبية الكبرى « تي سون » •

لجأ « نغويــن دو » الى الريف ، وحاول تنظيم حركة لمعارضـة « تي سون » تستهدف اعادة أسرة « لي » الى الحكم • ولكن اخفاق هذه المحاولة دعاه الى الاعتزال سنوات طويلة في قريته ومسقط رأسه « تيان ديان » في مقاطعة « هاتينه » •

انتصرت الأسرة الاقطاعية « نغوين » على « تي سون » واقامت أسرة ملكية، كان « جيا لونغ » عام ١٨٠٢ م أول اباطرتها . وحاول « جيا لونغ » ضم حاشية الأسرة المالكة القديمة « لي » الى بلاطه فعرض على « نغوين دو » أن يعود الى وظيفته .

وبعد أن رد « نغوين دو » هذا العرض ، مرارا ، انتهى الى القبول بخدمة الأسرة المالكة الجديدة . وفي عام ١٨١٣ م ترأس سفارة الى الصين .

ومات عام ١٨٢٠ م .

عرف « نغوين دو » على الخصوص كمؤلف لقصيدة « كيو » ولكنه ترك قصائد كثيرة ، نذكر منها « نداء الى الأرواح المتشردة » وغيرها باللغة الصينية المدرسية .

تقـــديم « كيـو »

كان مركب منقل بالركاب يجري على صفحة نهـر تتلألأ في نور القمر الصافي ٠ ومن وراء الحقول تلمح كتلة قاتمة لقرى الدائمة وراء أسيجة من أشجار الخيزران ٠ وفجأة ، وفي صمت الليل ، تعلو اغنية طويلة توقعها المجاديف التي تضرب الماء :

توحي اليـسك
نظرتها ، تلألؤ النور على صفحة البحيرة في الخريف
واجفانهـا ، تبرج القبة في الربيع
الأزهـار تصفر حسدا لهـا
الصفصافة تبكي لانها لا تملك رشاقتها

انها صاحبة المركب تتغنى بجمال « كيو » التي لم تنقطع سلسلة حبها الشقي عن تحريك قلوب النساء في فيتنام ٠

كان قطف « التمر الهندي » في اوانه ٠ وعلى ضوء مصباح معلق على عارضة ، كانت الأسرة كلها تقشر النوى ٠ وتقطعها قطعا تجففها بعد ذلك ٠ يتقدم الليل ، تخمد المحاورات شيئا بعد شيء ، ولا تسمع الا قعقعة السكاكين فوق قشور النوى ٠ ويقول احد افراد الأسرة : يا «اونغ نو»

ـ انشدنا شيئا ٠

ويرك « اونغ نو » الناس يرجونه ويستحثونه ، ولكنهم كانوا يرون عشوته وهو ينتفض فرحا ٠ سعل ، وهو يصلح صوته ، ثم علا صوته باغنيته ، وسط ترحيب كل من هنالك :

كما تشق غصن خيزران ، كما تسقط آجرة من سقف ،
سحق « توهي » اعداءه ٠ متنقلا كالطير من نصر الى نصر ٠
عمت شهرة قوته الآفاق ، في مثل هزيم الرعد
شطر المسكة شطرين ٠ تملك شطرا من السماء
اقام له بلاطا ، سلطة مدنية وسلطة عسكرية
انطلقت الزوبعة : الثغور والولايات
تساقطت تحت ضربات سيفه الذي كان يشحذه بالريح والغبار

عرف الناس جميعا « تومي » المحارب الرائع ، والعاشق الجدير بـ « كيو » الحسناء ، الذي سقط ، بعد ان انتصر في مائة معركة ، ضحية مكر حاكم حقير .

هنالك شرفة وبضع زهرات ، وكؤوس شاي .
مثقفون ، أصدقاء قدماء يثرثرون . وفجأة ينهض واحد منهم ويقول :

أصدقائي الكرام ، حاولت ، بخرقي المعهود ، أن انظم بضعة أبيات ، فهل تتفضلون علي وتصغون إلي ؟

من يملك من الدموع ما يكفيه لبكاء اناس الزمن الغابر
الأرواح الحساسة ، رغم بعد القرون
تشترك في آلامها ، كما حدث في « تام زونغ »
حين وجدت ، في امثالها من الأرواح الحساسة ، صداها (١)

المثقف يغني ويبكي مصائب الحسناء « كيو » . وأي مثقف فيتنامي لم يحاول مرة واحدة على أقل تقدير . ان يحتفل في بضعة أبيات بهذه الشخصية أو تلك من شخصيات « كيو » أو يرثي لهذه المهنة او تلك التي عانتها البطلة .

هكذا كانت « كيو » في فيتنام الماضي . أبناء الشعب رغم انهم أميون ، من الصياديس والفلاحين يحفظون عن ظهر قلب مقاطع منها طويلة . المثقفون الذين تغذوا بتراثهم الادبي ، المتذوقون للجمال العتيدون . كلهم أحبوا هذه القصيدة التي وجدوا فيها شيئاً من طعم فاكهة محرمة .
بعض الناس عبدوا « كيو » الحسناء ، شاطروها مصائبها ، احترموا فضائلها . وبعض الناس هاجموها لعدم اخلاقيتها .

واليوم ، في جمهورية فيتنام الديمقراطية ، ولد مجتمع جديد فوق انقاض المجتمع القديم ، كنسته نفحة ثورية ذات قوة لم يسبق لها مثيل . ورأى النور أدب جديد عزيز ، قدم للملاحين والصيادين الذين أصبحوا يعرفون القراءة غذاء فكريا ثمينا . وفي وسط هذا الازدهار الأدبي حافظت « كيو » على مكانتها وثابر الناس على التغني بها وحبها وتعلمها وتعليمها . لم تحملها الثورة ، ولا الثوريون . الى متحف الآثار القديمة ، ولكنها على عكس ذلك نظرت نظرة جديدة الى هذا الأثر الأدبي الذي اعتبرته أحد أجمل الآثار في التراث الوطني .

في سنة ١٩٥٥ وبعد سنة واحدة من نهاية حرب التحرير الوطنية ، احتفلت جمهورية فيتنام

(١) من قصيدة لـ « شو مانه ترينه » Chu Manh Trinh

الديمقراطية بالذكرى ١٩٠ لولادة مؤلف « كيو » « نقوين دو » وكتبت صحيفة « نهان دان » لسان حال حزب الشغيلة الفييتنامي ، في عددها الصادر يوم ٢٥ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٥٥ ما يلي :

« ان قيمة « كيو » الكبرى ، بغض النظر عن انسانيتها المفعمة بالحماسة ، تقوم أيضاً على شاعريتها الرائعة ذات الصفة الوطنية الرفيعة ، السماوية في شكلها ، العميقة في مغزاها . »

وفي هذا العام (١) ، عام الاحتفال بمرور ٢٠٠ سنة على ولادة « نقوين دو » تجاوزت الاحتفالات بهذه المناسبة حدود فييتنام . وأصبحت « كيو » و « نقوين دو » الآن معروفين ومحبوبين في كثير من البلاد .

من اجل ذكراه المئتين ، ومن اجل اصدقائه حاولت ، بعد عدد من المحاولات الكثيرة ، أن أترجم « كيو » الى لغة اجنبية .

★ ★ ★

ما الذي أتاح لقصيدة « كيو » هذا الجمهور الواسع من المستمعين وهذه المكانة المتميزة في الادب الفييتنامي ؟

★ ★ ★

« علمتني أغاني الملاحين لغة القنب والتوت » . قال ذلك « نقوين دو » في قصيدة أخرى .

والواقع أن الشاعر عاش سنوات طوالاً في الريف ، قريباً من اولئك الذين يزرعون الارز والقنب و شجار التوت .

ان لغة « كيو » تأخذ مكانها الراسخ بين أكثر تراثنا في الأغاني الشعبية صفاء ، حافظت على مرونتها وطابعها الواقعي ، وغناها في الصور والالوان . وليس من قبيل المصادفة أن يحفظ أبناء الشعب ويرددوه عن ظهر قلب مقاطع منها طويلة ، وإن أصبحت بعض أبياتها امثالا حقيقية وحكماً دخلت في الكلام الدارج .

ولكن « كيو » ليست كتاب ادب شعبي (فولكلور) . انها اثر أدبي كبير يمكن أن يأخذ مكانه ، دون تردد ، بين روائع الادب العالمي .

ان « نقوين دو » الذي يمثل تمثلا عميقا الآداب الصينية والفييتنامية المدرسية ، نجح عندما الف قصيدته بين اللغة الشعبية واللغة الأدبية المدرسية مؤالفة منسجمة .

كانت « كيو » بدء مرحلة هامة في تاريخ اللغة الفيتنامية ، وأسهمت في اغنائها وتطويعها ، ووهبت لها وضوحا وايجازا بارزين - وهذا ما يفسر لنا كان هذا الأثر وما زال حتى ايامنا هذه

(١) عـام ١٩٦٥ - المعرب

النموذج الذي أجهد أكثر من الشعراء ورجال الأدب أنفسهم في تقليده . ذلك أنهم قلما وجدوا في شاعر مثل ما وجدوه عنده من أنغام ومن ألوان كثيرة الغنى ، كثيرة التنوع .

كان « نغوين دو » ابداعيا فعرف كيف يغني جمال الطبيعة ويعبر تعبيرا عجيبا عن العواطف التي تجيش في قلوب العشاق ، وعن الأسى والآلام واليأس والفرح المنتصر ، وفي اختصار ، عن كل الحركات الغنائية في روح الانسان ، وعن تبدلات الاحلام ومن خلجات الضمير ». (بودلير)

وكان نغوين دو » واقعيا ، فاستطاع في بضعة أبيات الاحاطة بشخصية من الشخصيات ، وايضاح سحية من السجايا : الحاكم الشهواني ، والتاجر اللئيم الوقح ، والمشرفة على « المقصورة الخضراء » ، كل هؤلاء كشف النقاب عنهم ، دون رحمة ، وفي لغة ساخرة ملونة لاذعة ، وفي شكل بلغ من الجودة أن جعل من أسماء بعض الشخصيات تدخل اللغة الدارجة وتصبح أسماء متداولة عامة ، فنحن نقول عن « المرتشي » أنه « سوكانه » كما يقولون في الفرنسية عندما يتحدثون عن بخيل حريص على دوانيقه انه « هارباغون » .

★ ★ ★

بعض الترجمات حولت « كيو » الى حكاية شرقية ، بسبب ما فيها من تباين ومن مفارقات وما فيها من غرابة مشكوك فيها وبذلك أخرجتها عن طبيعتها تماما . لقد أحب الشعب الفييتنامي « كيو » لا لأنه اعتبرها اسطورة أو حكاية ، فلم يتسرب الى هذه الأثر ظل من العجائبية ، وحتى من الابداعية ، وهذا القدر الذي غالبا ما نراه مذكورا لا يأخذ قط شكل اله او ملاك يتدخل فيندفع في اللحظات الحرجة الحوادث لكي يتقدم العمل في القصة . ولكن هذا القدر ينظر اليه القارىء كأنما هو قانون ضروري يحكم الدورة العادية للاسباب والنتائج ، بل ان القدر يكتسي وجها انسانيا والقارىء الناقم ، الحائر المرتبط بواقعية الاوصاف يبلغ مرحلة ينسى فيها القدر لكي ينقل كل غضبه وعطفه واعجابه الى الشخصيات الحية ، الواقعية التي تتطور في مجتمع حقيقي . ليس في « كيو » الا موسيقى الشعر ، والوان مناظر الطبيعة ، وغنى للغة مما يهز قلب صياد أو فلاح عجوز في ذلك العهد ، او يحرك قلب مناضل ثوري في عهدنا هذا .

ان « نغوين دو » الرجل الذي عاش في نهاية القرن الثامن عشر ، هذا القرن الذي كان عهد الانتفاضات الواسعة والآمال العريضة ، لقد ادرك واحس في شكل عميق هذه الطموحات وهذه الآلام . كان المجتمع الاقطاعي الفييتنامي يتخبط عندئذ في ازمة ليس لها نهاية ، وليس منها خلاص . لقد قام هذا المجتمع منذ عدة قرون على نظام اقطاعي يمنع اكثرية الفلاحين من حق التملك ، وعلى نظام أخلاقي يعتمد على ثلاث دعائم صلبة . اخلاص الرعايا المطلق للملك ، بر الأبناء بالآباء قبل كل الواجبات ، خضوع المرأة الكلي لزوجها . .

الملك ، وهو ابن السماء ، يحكم لا باختيار الشعب له ، بل بالحق الالهي ، ونشر السلام • في السماء كما في الارض يتعلق بـ « فضيلة » الملك التي تعم نعمة البلاد كلها مثل المطر الرخي في فصل الربيع • كانت « مكتبية الموظفين الكبار » آباء الشعب وأمهاته ، تحكم البلاد باسم الملك • وأكبر شرف يصبو الشاب الى تحقيقه هو ان يصل عن طريق المسابقات الى مهنة الوظيفة ، وهي التتويج الأسمى لحياة الدراسة • كانت الثورة على الملك هي الجريمة الكبرى • لانها ثورة على الارادة الالهية •

بر الابوين واحترامهم وهما واجبان على كل ابن ، وصلا الى حد المطلق في العقيدة الرسمية • لا يمكن لاحد ان يفي الدين الذي عليه لوالديه ، بل ان كل تضحية يقوم بها الابناء لا يمكن ان تصل الى حد الوفاء بكل واجبات بر الوالدين ، وخاصة حقوق الوالد قبل حقوق الام •

ولم يكن للبنت اي حق في اختيار الرجل الذي تتزوجه ، بل انها « تجلس حيث يضعها ابواها » • انها ، وهي بنت ، يجب ان تطيع اباها ، وانها ، وهي زوج ، يجب ان تخضع لارادة زوجها ، وانها ، وهي أرملة ، يجب أن تتبع نصائح ابنها البكر •

هذه العقيدة الرسمية حولتها الكونفوشية الى قوانين صارمة منذ قرون تكون الهيكل الاخلاقي للمجتمع الاقطاعي • والقالب الذي تجري فيه الافكار والاعمال • ولكن ، هاهوذا النظام يلغم من أساسه الفلاحون يثورون دون هوادة، وعدد كبير من الثورات هددت العاصمة عدة مرات • وفي منتصف القرن الثامن عشر حكم « تعوين هوكو » وهو أحد القادة الثوريين ، كل المنطقة الساحلية في شمالي شرقي فييتنام سنوات كثيرة ، وكتب على رايته هذه الكلمات : « الدفاع عن الشعب » وصادر أموال الاغنياء ليوزعها على الفقراء • كان محاربا لامعا ، ومثقفا متبحرا ، أحبه الشعب ، فاستطاع أن يجند في بضعة أشهر جيوشا غفيرة حيثما تنقل•

وكانت الاقطاعية • من جهة اخرى ، تتخبط في الهزال والملك ، ابن السماء ، سليل « لي » لا يحكم الا شكليا ، وقد عزلته في قصره اسرة « ترينه » الاقطاعية التي كانت تملك السلطة الفعلية ، وكانت الاسرة المالكة ، والعصابة الاقطاعية • والموظفون الكبار يتسابقون في حياة العهر والشهوات الحسية ، وكانت الالقاب تشترى شراء ، والاختلاسات شرها مستطير •

وفي الجنوب شطرت أسرة اقطاعية أخرى هي أسرة « نغوين » اقطاعية واسعة مستقلة ، وكانت جيوش الاسرتين « ترينه » و « نغوين » تحارب وتصطدم دوريا ، فتزيد بؤس الشعب •

وفي نهاية القرن الثامن عشر ، استطاعت حركة ثورية ذات مدى ليس له مثيل في السبق ، ثورة « تي سون » التي قادها رجل نابغة هو « نغوين هو » ، ان تكنس في وقت قصير ، الاسرتين الاقطاعيتين معا في الشمال وفي الجنوب وان توحد البلاد • واعتقد الاقطاعيون الصينيون الذين

استدعاهم زملاؤهم الاقطاعيون الفيتناميون الى نجدتهم ؟ أنهم قادرون على الاستفادة من هذه القلاقل ليفرضوا سيطرتهم على فيتنام • ولكن « نغوين هو » انزل بجيوشهم هزيمة منكرة في معركة ذائعة الصيت (عام ١٧٨٩ م) •

مع هذه الثورات الفلاحية الكبرى ، مع تأسيس أسرة « تي سون » المالكة التي قادها ذلك البطل اللامع « نغوين هو » تولدت آمال واسعة • لقد هتزت أركان المجتمع الاقطاعي وتزعزعت ، ولكن هل تراها ستفسح المجال لقيام حياة جديدة ؟ ان العقلية الاقطاعية بعد هذه العقود من الاضطرابات قد اضاعت كل اعتبار وكل قيمة •

هذا الاخلاص للملك ، الى من يجب ان تحفظه ؟ أين هي السلطة الشرعية ؟ هل هي « ابن السماء » ؟ أو الاقطاعيون اللصوص الناهرون الذين استنجدوا بالأجنبي ؟ أو هي هؤلاء « الثوار الأبطال المنبثقون من صفوف الشعب » الاشراف ، الوطنيون • محررو الشعب والوطن ؟ ما الذي يمكن الا نتهم به هؤلاء الحكام « أباء الشعب وأمهاته » الذين لا يشغلهم شاغل غير نهب « أطماعهم » وغير التنازع على المناصب والرواتب بالحيلة والمكيدة • بل كم من جريمة شنعاء ومن فظائع يرتكبها هؤلاء الحكام في حق الناس البسطاء ؟

هذا المجتمع الاقطاعي ، في أقصى حالات مسخه ؟ والذي تنبت فيه بعض بذور الرأسمالية ، يجر وراء مسخر الاحتفالات في البلاط الملكي ، ومع جلسات كبار الموظفين ، عددا غير قليل من التجار الوسطاء والمتجرين بالدعرة والنصابين و المرتشين • وكلهم مستعدون لارتكاب كل الموبقات • وظهرت سلطة المال الكبرى • واحتل التاجر المستغل مكانه الى جانب الحاكم المستبد • وأصبحت المرأة — الأمة تجارة أيضا فقد سحقتها الاقطاعية ، وأهانها المجتمع الذي بدأت تنبت فيه بذور الرأسمالية ، وأذلها وجرها في الطين •

★ ★ ★

كانت لـ « نغوين دو » في كيو ، أثره هذا الواقعي الكبير ، مزية حسر القناع عن وجه هذه الاقطاعية الباغية المتفسخة ؟ وفضحها في كثير من العنف • نحن لا نجد في « كيو » موظفا واحدا نأنس به ونعطف عليه • كل المصائب التي حلت بـ « كيو » كان مصدرها شراهة حاكم لم يتردد في سبيل حفنة من المال ، من القاء أسرة كاملة في وهدة البؤس والشقاء • وعندما تدخل قصر الوزير الاول نشعر بقشعريرة ونحس اننا نختنق ؟ واكبر قائد حربي في البلاط لا يستطيع ان يغلب عدوه الا بالحيلة والمكيدة •

وعلى عكس ذلك ـ اجمل وجه هذا « الثائر » « توهي » الذي « هز الأرض والأنهار » وسار على الارض بخطى الكبرياء ، ولم يرفع فوق رأسه الا نجوم السماء » ٠

علينا ان نعرف الى أي مدى ترسخ في فكر المثقف الكونفوشي تعظيم الملك واحترام الحكم وفي مقابل ذلك ، الاشمئزاز من الثوار والخوف منهم ، لكي ندرك كل ما في جرأة « نغوين دو » من أبعاد ٠ هذه الجرأة التي تزداد قيمة حين نضعها في اطارها الزمني ، في العهد الذي كتب فيه المؤلف قصة « كيو » حين كانت الرجعية الاقطاعية منفلتة من عقالها في وحشية مرعبة ٠ فبعد عهد قصير من المجد والجلال مات « نغوين هو » وانتصرت أسرة « نغوين » الاقطاعية على ثورة « تي سون » الشعبية وفرضت ، من جديد ، على البلاد أغلال الاقطاعية ٠ وليس من شك أننا نلمح في صورة « توهي » انعكاسا لهذه الوجوه الرائعة ، وكثيرا من ملامح هؤلاء الأبطال ، قادة الثورات الفلاحية ، الذين أناروا تاريخ فييتنام في القرن الثامن عشر ٠ وتظهر لنا ، في الصورة المعاكسة ، وجوه الحكام القساة الجشعين ، ومع جلاوزتهم ، في رؤوس ثيران وسحنة أفراس ٠ »

لم يتخدع الشعب الفيتنامي ٠ لقد أحب وسوف يحب دائما في « كيو » هذا الاتهام الذي يبلغ مرحلة الهيجان أحيانا ، للاقطاعية التي طالما عانى آلامها ٠ وقد كتب الامبراطور « توودوك » بعد قراءة « كيو » وعلى هامش المقطع الذي يتحدث عن « توهي » ما يلي : « المؤلف يستحق الجلد ٠ »

ها هي ذي « كيو » فتاة من أسرة طيبة ، تجتاز ذات ليلة ، الحديقة وتلحق بالرجل الذي أحبته ، في غياب أهلها ودون علمهم طبعا ٠ ما هذه الفضيحة في مجتمع كونفوشي ، ألف منذ قرون مفهوم المعلم : « لا يجوز أبدا أن يختلط الشبان بالصبايا » ؟! والمؤلف لا يكتفي بعدم لوم العاشقين اللذين تجرأا على الحب دون اذن الوالدين بل انه يخصص عددا من الصفحات ، ومن أكثر صفحات القصيدة حرارة ، ينقل فيها نجوى العاشقين وبوحهما ورقتهما ٠ هذا الحب ، هذا الاختيار الحر بين شابين ، اللذان طالما أنكرتهما قرون طويلة من الاقطاعية ، وجدا في « نغوين دو » شاعرا حقيقيا ٠ وقد حاول ملوك « نغوين » خلال القرن التاسع عشر ، بكل ما يملكون من جهود ، ترسيخ أكثر تعاليم الكونفوشية تزمتا ، ولكن عبثا ما حاولوا ، فان شباب فييتنام وصباياها لم يمنعهم مانع من حب « كيو » الحسناء الجريئة ، و « كيم » حبيبها الوفي ٠

وكذلك تحدى المؤلف هذا المفهوم ، المقدس للاخلاص الزوجي الذي يفرض على المرأة أن تكرس حياتها كلها لرجل واحد ، حتى بعد موته : أما « كيو » التي كانت لها الحياة كثيرا من الضربات ، والتي أجبرت على بيع جسدها ، كثيرا من المرات ، فقد أحبت مرة أخرى حبا عنيفا

عندما وجدت الرجل الذي هو اهل لها • هذا الحب الثاني ، الذي يعتبره الكونفوشي المتزمت فضيحة ، وجد في « نغوين دو » مدافعا متحمسا عنه • والكونفوشية الصارمة تحرم تحريماً قاطعة الاشارة الى الحب الجسدي ، مهما كانت بعيدة ، اما المؤلف فلم يخش من الاعجاب بـ « كيو » وهي في حمامها ، تكشف امام عيني عاشق مسحور « جسداً من اليشب وبياضاً كالعاج » •

و « نغوين دو » يحتفظ بكل عطفه على « كيو » التي اجبرها المجتمع الوحشي على أن تكون مومساً عدة مرات ، وجعلها تقول ، في انصاف ، لحبيبها المخلص ، انها بقيت طاهرة نقية رغم كل الاهانات ، وان الاخلاص في الحب يجب أن يفهم على نحو اكثر انسانية من مفهوم الناس الفريسيين • وعندما يغني « نغوين دو » حب الشابين ، بكل روعته ، هذا الحب القائم على الاختيار الحر ، دون أن يلغي عنصره الجسدي ، فانه يجاهر بالدعوة الى إعطاء المرأة كل الحقوق التي انكرها عليها المجتمع الاقطاعي •

وفي الانتفاضات التي شهدها القرن الثامن عشر عند نهايته ، اصبح الحب ، وهو أمر جديد ، جزءاً من الطموحات العميقة التي احست بها ، في وضوح كثير او قليل ، الجماهير الواسعة ، كما اصبح – علامة على العصر – حب الشابين الجميلين الموهوبين موضوعاً اساسياً في عدد كثير من القصص الشعرية • ان نفحة انسانية جديدة تهب ضد القسوة اللا انسانية والمذهبية اليابسة في الكونفوشية ، وانها لانسانية تصبح متهمة – لا متهمة – عندما يصف المؤلف في واقعية لاذعة هذا المجتمع القاسي الذي هدم – دون رحمة – كل الاحلام البريئة التي حلمت بها صبية في زهرة شبابها ليجبرها على أن تجرر جسدها في الطين • والشاعر الكبير ، الذي هو « نغوين دو » اعار هذه الانسانية نبرات ناعمة احيانا شجية احيانا مثيرة لشفقة أحيانا ،وبذلك استطاع أن ينقش في قلوب ملايين الناس هذا التطلع الى السعادة ، الذي يحاول الفكر الاقطاعي دائما أن يخنقه ويقضي عليه•

من هنا نفهم الصدى الذي استطاعت كثير من المقاطع في « كيو » ، بالاضافة الى جمال اللغة، أن تجده في قلب الشعب الفيتنامي •

★ ★ ★

طالما اثرت المأساة الداخلية التي عاناها « نغوين دو » الموظف الذي اضطر الى خدمة اسرتين مالكتين واحدة بعد واحدة وجرح تجريحا عميقاً في اخلاصه الاول • والسجلات السنوية تذكر لنا في الواقع أنه كان موظفاً قليل الحماسة بل أكثر ميلاً الى الوجوم ، غير عابىء بالسباق الى المناصب التي كانت تحرك الموظفين الذين بلغوا ارفع المراكز في عهد الأسرة المالكة الجديدة •

وكذلك يجد بعض النقد وجوها من المشابهة بين وضع المؤلف الشخصي الذي لم يخلص لمليكه ، وبين وضع « كيو » الحسناء التي خانت حبيبها ، واجبرت على تقديم جسدها لأول عابر .

وقيل لنا : إن في هذا التناقض في المواقف يكمن السبب العميق لهذه النغمة الوجعية ، المثيرة للشفقة التي نجدها في «كيو» المصدر الأول لقصيدته المؤثرة ، بل والموجعة في اغلب الاحيان.

ولكن في ذلك تجنيا كبيرا لأبعاد هذه المأساة . كان « نغوين دو » ذا ثقافة ادبية وموسيقية واسعة ؛ كما أنه تعلم الفن العسكري ؛ وكثير من القصائد توحي الينا أنه حلم بـ « بشر السلام في العالم وانقاذ الشعب » . انه قلب حساس يشعر في عمق بآلام الشعب ، وتهتز أوتار قلبه كلها بالتطلعات التي تحتضنها الجماهير الواسعة ولو في شيء من الغموض .

ومع ذلك ، وعلى نقيض ما حدث في فرنسا في القرن الثامن عشر الذي اسفر عن انتصار الثورة الفرنسية ، نجد عصر « نغوين دو » يسفر عن هزيمة . ان هزيمة « تي سون » وقيام أسرة نغوين « قرعت أجراس النعي الحزين للآمال الكبرى التي اثارتها الثورات الفلاحية في القرن الثامن عشر . وعادت فييتنام لتقع في ليل الاقطاعية الأسود .

ان عايه برجوازية نشيطة جعلت كل المحاولات المناهضة للاقطاعية تقع في مازق ، وكان علينا أن ننتظر قرنا ونصف قرن قبل أن تنفجر ثورة وطنية وشعبية تقودها الطبقة العاملة لتنسف قناع الاقطاعية الرصاصي وتحرر الأجسام والأفكار معا .

واذا كان القرن الثامن عشر في فييتنام غنيا بالآمال فانه لم يكن قرن نور ، ولم ينبثق فيه ما يضيء الطريق لأولئك الذين ناضلوا ولا لأولئك الذين كانوا يحلمون بالحياة الانسانية .

كان مازق « نغوين دو » الفكري عميقا شاملا . إنه منحدر من أسرة من كبار الموظفين ، وتم تكوينه وتربيته وفق التعاليم الكونفوشية ، وهو لما يتحرر من كل هذه المعوقات ، وهو لا يستطيع ان يحلم ، في غمرة كل هذه القلاقل والاضطرابات التي حدثت في عصره ، الا بعودة الشرعية ، وعلى رأسها ملك متبصر ؛ تنقذ « فضائله » الوطن والشعب . لقد عارض تلك الحركة الشعبية والوطنية الكبرى التي هي حركة « تي سون » دون ان يفهم مداها ومغزاها ، بل انه ؛ في فترة من الفترات ، انحاز الى الاقطاعيين الذين استدعوا الجيوش الاجنبية للتدخل ولانقاذ امتيازاتهم .

ومع ذلك فلم يكن « نغوين دو » اعمى حتى يجهل ضعف وخنوع الامراء الذين يسمون

« شرعيين » من أسرة « لي » القديمة ، وحتى لا يرى أن الملك الجديد « جيا لونغ » الذي كان عليه أن يقوم بخدمته سنين طويلة ، كان يجهد نفسه في اعادة حكم الاقطاعية في أشد أشكالها فظاظة وغطرسة .

ان مأساة « تفوين دو » هي مأساة عصر هزته انتفاضات عنيفة ، ولكنهـــا كانت دون أهداف ، دون تنظير سابق ووضوح . انها مأساة رجل تتناقض رؤاه مع تطلعات قلبه . والحق ان ذلك تناقض مأساوي لانه لا يمكن حله .

ان « الفنان » فيه « يشارك الشعب آلامه في عمق ، ويغضب في غضب ، ويتهم في فصاحة ، ويحلل وهو يعض على شفتيه ، ولكن المفكر « فيه » يتخبط في تأملات عميقة حول قدر الانسان . الكونفوشية لا تقدم له تفسيرا كافيا لكثير من المآسي والمظالم ، ومع ذلــك فيجب أن ترتد الى النظرية البوذية في « الكرما » التي تريد من الانسان أن يجر معه قائمة فاعلة ومنفعلة من الحيوات العديدة المتتابعة اللاحقة ، وان يدفع ديون حيوات اخرى سابقة ، وان يدفع ، في حياته المستقبلة ، ضريبة كل ما قام به في حياته الحاضرة من اعمال .

من اجل هــــذه « الكرما » لم تعــرف « كيو » الحســناء ، المتمتعــة بكثير من المواهب والفضائل ، الا النكبات التي لا نهاية لها . هذا التناقض الموجع ، في كثير من الاحيان ، بين حساسية فنان يهتز قلبه مع الوقائع الانسانية والاجتماعية اهتزازا عميقا ، وبين التأمل العقيم لرجل من رجال ما وراء الطبيعة ، تغشي على بصره مفاهيم « الكرما » والقدر ، هذا التناقض هو الذي يسري في القصيدة من اولها الى آخرها .

وانتهى المؤلف اخيرا الى اقامة نوع من « التوفيق » فحشر في دورة الفاعل والمنفعل في الحيوات المتتابعة السابقة و اللاحقة وهي دورة لا ترحم ، قلب الانسان ، وذلك كي يتسنى له تخفيف الصرامة اللا انسانية في قانون « الكرما » هذه .

والمسألة اخيرا هي مسألة فلسفة الخضوع والاستسلام لقــد حاولت « كيو » ان تتخبط وتقاوم ، ولكنها اجبرت قهرا ، وغلبت على أمرها ، وانفنيت إرادتها منــذ سفرها بذلـــك لشعور الحاد بعطب القدر . انها تشعر بوطأة كل ما تتمتع به من مواهب ، ولذلك لم تصل محاولاتها في الثورة الى نتيجة . انها وقد سحقها مجتمع لا انساني تعتقد في بساطة انها تدفع ثمن اخطاء ارتكبتها خلال حيوات سابقة ، وهكذا جردت سلفا من سلاحها امام الخبث والشر اللذين احاطها بهما كل اولئك الذين خدموها وخانوها .

ان مخنقة المجتمع الاقطاعي تقتل في «كيو» وفي كل النساء ، كل امل في التحرير . ان قسوة مجتمع التناسخ ، وقد اصبحت قدرا و « كرما » تتفشى وباء ليس له دواء .

التعريف بمازق « نغوين دو » هو في الوقت نفسه دلالة على حدوده . وهي حدود لا تقتصر فقط على انسانيته التي لم تدرك الحقائق التاريخية ، والتي ما تزال غارقة في المبادىء الدينية او في المفاهيم الاقطاعية ، ولكنها ايضا حدود لفنه . نعم ان « كيو » في مزاياها الادبية تدل على تدوين واحيانا على نجاح لا يضارعهما فيها مضارع ، ولكن « نغوين دو » ترك كثيرا من أوتار القلب الانساني فلم يستطع تحريكها كما حركها غيره من الادباء والشعراء . النغمة تنتهي غالبا بالنحيب ، وطيبة قلوب اكثر الشخصيات تتوقف في خضوع لا يكاد يوارى ، ثم لا تصل الى الاندفاعة ولا الى عمق الطيبة التي نجدها كثيرا في ابناء الشعب ، والملامح الرائعة لـ « توهي » لا يمكن مع ذلك ان تبلغ به مستوى الشخصيات التاريخية الكبيرة في عصر المؤلف ، مثل « نغوين هوكو » و « نغوين هو » .

ومما لا شك فيه اننا نبالغ حين نؤكد ــ كما يفعل بعض الناس ــ أن « كيو » وحدها تصور لروح الفييتنامية كلها ، وانها ستبقى الى الابد الصرح الذي لا يضاهى في الادب الفييتنامي .

ان هذه الاسباب وان أثرت هذا التأثير الى حد يسمح لنا بعيبهما دون أن نقع في زخرفة وتقعر لا جدوى فيهما .

ــ نغوين خاك فيان ــ



القصة الشعرية*

مدى حياة الانسان مائة عام ، انها ساحة صدام
يتصارع فيها القدر والعبقرية صراعاً لا هوادة فيه .
البحر يهدر هنالك حيث كانت تخضوضر أشجار التوت (١) .

أيضيق صدرك برؤية هذا العالم ؟
ولكن علام تتعجب ؟ لا يدرك شيء عفوا بلا تعب
طالما عاندت السماء الزرقاء الحسان ذوات الخدود الوردية .
هذه مخطوطة قديمة طالما قلبها الناس على ضوء السراج
وقلبوها منذ زمن بعيد ، تحكي لنا حكاية هذا الحب .
في عهد الامبراطور « جياتينه » من أسرة « مينه » (٢)
كانت الحدود آمنة ، وكانت العاصمتان يسودهما السلام .

في ذلك العهد عاش (فونغ) المحترم ، وكان متوسط الثروة
وكان ولده ووريثه (كوان) ثاني أولاد الاسرة يدرس ،
مضيفاً حلقة جديدة الى سلسلة طويلة من المثقفين
وكانت له أختان أكبر منه « توي كيو » و « توي فان »
كانتا في رقة زهرة الدراق ، وفي نقاء الثلج .
كانتا جميلتين ، ولكل منهما جمالها المتميز
كانتا جميلتين الى حد الكمال .

(*) الحواشي واردة في آخر القصة ، لكيلا ينقطع الوحي الشعري .

أما « فان » فرائعة روعة القمر في الليلة الصافية ...
بسمتها كبتسامة الزهرة ، وصوتها في رنين البلور .
لغيوم ليس لها جلال ضفائرها .
والثلج ليس له نقاء لونها .

وأما « كيو » وهي الكبرى ، فكانت أروع جمالا ،
أكثر رقة ، وموهبة ، يخيل اليك أنك ترى
في نظرتها تلألؤ النور على صفحة البحيرة في الخريف .

وأنك ترى في أجفانها ، تبرج الغابة في الربيع .
الازهار تصفرّ حسدا لها ،
والصفصافة تبكي ، لأنها لا تملك رشاقتها
كانت جميلة جمالا ـ كما تقول الاساطير ـ
ينسف القلاع ويدك الحصون
كانت فذة في جمالها ، نادرة في مواهبها :
الشعر والرسم والموسيقى : ما من شيء عنها غريب
سلم الألحان ذات الاصوات الخمسة على قيثارة هو (٣)
تعرف كل ما فيها من أسرار .
وضعت ، لتتسلى ،
لحن « القدر القاسي » بنماته الموجعة هذه :
صبايا في ربيع الحياة
جميلات بين الجميلات ، في حليهن وزينتهن ،
يقضين أياما هادئة ، وراء الستائر المسدلة
ووراء الجدران تغدو وتروح أسراب الشباب الظرفاء .

★ ★ ★

عندما طارت المنادل جعل الربيع ينسل خيوطه
من ستون يوما من هذا الفصل البديع
العشب يبسط حتى الافق سجادته الخضراء الناعمة
وأشجار التفاح تزينت بأزهارها البيض
في نور الشهر الثالث الصافي ، وفي إبان حضرته
ذهب كل الناس الى المقابر خاشعين
يزورون ويمجدون أولئك الذين مضوا ولم يعودوا
مثل سرب من العصافير احتشدوا مختلطين صاخبين
شباب مرموقون ، وفتيات رشيقات
الرجال والنساء يتدفقون موجة بعد موجة
بين القبور لتي يستريح فيها الموتى
تراكمت النذور ، وكانت الريح
تحمل ، في طياتها ، رمادها الى البعيد البعيد •
جنحت الشمس الى المغيب ، وعلى طريق العودة
كانت أسرة « فونغ » تسير وتتأمل البرية
ذات الجمال الفتان • هنالك ساقية تتلوى
وتدمدم تحت عريشة من الاشجار
وفجأة ظهر على جانب الدرب قبر
يغطيه عشب ذاو أصفر

سألت كيو : في هذا اليوم يوم الصيام الصافي ،

لماذا لا يحتـرق البخور ، على هذا القبر المهجور ؟ !
وقال كوان • هذا قبر « دام تيان » كانت مومساً محترفة ،
في زمانها ، وبجمالها ومواهبها
عرفت المجد ، وعلى بابها تراحم

عدد من العشاق • أكثر من المنادل والعصافير في أيام الربيع •

ولكن وا أسفاه · ما أشقى حظ الحسان ذوات الخدود الوردية ·
في عز ربيعها ، تكسر
الزورق الذي حمل هذه الزهرة الخالدة
وصل عشق من مقاطعة بعيدة
ما كاد زورق الحب يرسو على الشاطىء
حتى تكسر أصيص الزهرة ومضى عطرها
ساد الغرفة الحزينة صمت الجليد
ومحا العشب آثار العجلات
ولم يستطع العاشق كتمان لوعته

فصاح : « يا دام تيان » كتب علينا
الا تنسج بيننا خيوط الحب
هذه السعادة حرمنا منها في هذه الحياة الدنيا
ولعلهـا أن تكون نذراً نقدمه لحياتنـا الاخـرى
وأمر لها بتابوت بديع ، ومضت الجنازة

ودفنت الميتة ، ومنذ ذلك الحين ، وعلى هذا القبر الوحيد
نما العشب على هواه ، والاقمار والشموس
بددت حرارتها ونورها دون جدوى ·
ما من أحد ، ما من أحد ، وقف على هذا القبر ·
قصة هذه المأساة التي لا تنتهي
أثارت في « كيو » الجميلة حناناً عميقاً
وانتزعت من عينيها الدموع ، ومن صدرها الآهات
قالت : ما أشقى حظ النساء :
القدر يناصبهن جميعاً ، العداء

يا خالقي : لم كل هذه القسوة ؟
قسوة تهترىء فيها سنواتنا الخضر ، وتذبل فيها خدودنا الحمر

هذه المرأة كانت في حياتها امرأة للناس جميعاً
وهاهي ذي الآن ، في مملكة الاموات ، تتشرد روحها وحيدة
أين كل أولئك الذين كانوا يشاركونها لذاتها ؟٠٠
أين كل أولئك الذين كانوا يركضون وراء عطورها ؟
أنتِ ، أيتها الروح الشاردة ! ما من أحد يتنزل فيفكر فيك
لقـد لقيتـــك مصادفة في طـريقي ،
سأحرق هذه الباقة من البخور لك ومن أجلك ،
أيمكن أن يبلغك هذا النجيب في عالم الظلمات ؟
وانحنت أمام القبر وصلّت أمدا طويلا ٠
احمر العشب في نار الغسق ٠
تمايل القصب في نسيم المساء
وعلى شجرة ، بدبوس شعرها ،
نقشت « كيو » رباعية ، ثم ها هي ذي من جديد ٠
واقفة ، لا حراك فيها ، ساكتة لا تتكلم ، ضائعة في أحلامها
وتجهم وجهها ، كأنها زهرة لفحتها عاصفة
ولامتها « فان » ٠٠٠ ما هذه المهزلة يا أختاه !
الـدموع تهطـل غزيـــرة
في بكائك على من مضى

وقالت « كيو » منذ زمن بعيد ، والنساء الجميلات
لم يرأف بهن القدر القاسي
ها هي ذي راقدة في قبرها ، كما أراها اليوم
وأنا نفسي أجهل ما ينتظرني غدا ؟
تدخل « كوان » : لماذا هذه الكلمات المتطيرة ؟!
لنعد الى البيت ٠ ظل الغروب يمتد
وقد تصاعدت أبخرة المساء ٠
وأجابت « كيو » : أولئك الذين يملكون الجمال والموهبة

يعيشون الى الأبد . الجسد ميت والروح حي
الحب لا يقابل الا بالحب .
مهلاً . إن روحها في هذه اللحظة ، سوف تظهر لنا
هبت فعلاً عاصفة من الريح قطعت صوتها ،
مثل جيش يهجم ، ناشراً أعلامه
انتزعت الأوراق ، هزت الأشجار
وطاف عطر ناعم في قلب العاصفة
هناك حيث هبت الريح ـ ما في ذلك شك ـ
انطبعت آثار أقدام فوق العشب . أقدام امرأة ...
وصعقوا كلهم رعباً
وقالت « كيو » نعم ، أقسم . إنك أجبت على سؤالي ،
قابلت حبي بحب
أنت في مملكة الظلال ، تمشين
وقد عرفت في أختاً لك تعيش في عالم النور
وتأثرت « كيو » فأعدت لها قصيدة ثانية
نقشتها على جذع شجرة هرمة واهية .

★ ★ ★

وقفوا هنالك لا يعرفون : هل يبقون أو يروحون
عندما سمعوا فجأة وقع حوافر حصان
فارس شاب دنا منهم ، وقد أرخى لفرسه العنان
كان حمله خفيفاً ، وكان يطير كالريح .
ووراءه عدد من خدمه
كان حصانه أبيض كالثلج ، ولباسه
يؤلف بين لون الأوراق الخضر ولازورد السماء
وقفز الفارس عن حصانه وجاء إليهم

يمبث مهماراه بالعشب الأخضـــر
كل ما فيــه يفــرح بالانسجام والجمـــال
وعرقه « كوان » فــره عليه تحيته
وذهبت الفتاتـــان فتوارتا وراء الأزهـــار
كـــان الفـــارس « كيم ترونغ » جاراً لهــم
من أسرة نبيلة ، ذو ذوق رفيــع ، وثقافة واســعة •
جميــل ، ممتاز ، كريــم لا ينقصــه شــيء
عرف ، هذا المواطن ، وهو صديق « كوان » أن في جواره
تعيش فتاتان جميلتان ، ربيــع شبابهما في إبانه
الستائــر تحجبهما أكثــر مما تحجب الأنهار والجبال •
لم يكن في وسع « كيم » إلا أن يحترق في لحب ، ويتنهــد في صمت •
حظ غـــريب ، لقـــاء عجيب
ذلــك الذي يحب الأزهار جــاء في عيــد الأزهار
من بعيــد كان يرى ظل زهرتـــين
زنبقــة الربيــع ، وأقحوانة الخــريف
من يستطيع أن يعــرف أيتهمـــا أكثر جمالاً ؟
« كيو » الجميلــة و « كيم » النبيل ، من أول نظرة
أصبحا حبيبين : القلب يعرف والوجه لا يجرؤ فيعتــرف •
أهـــذا حلـــم ؟ أهـــذا واقـــع ؟
أيذهبون ؟ : لا يستطيعون • أيبقون ؟ : لا يعرفون
وطـــال ظل الغسـق وامتــد في كآبـــة
وركب « كيم » حصانه ، وتبعته نظرات « كيو » طويلاً
كان المــاء الصافي يزغرد تحت العــريشة
وأشــجار الصفصاف تتمايل في ريــح المســاء •

★ ★ ★

عندما عادت « كيو » إلى ما وراء ستائرها المزهرة
كانت الشمس قد غابت وراء الجبال
وقرعت أجراس المساء معلنة نهاية النهار
وأطل القمر من النافذة
يذر سبائك الذهب فوق ماء البرك .
وفي الباحة مدت الأشجار ظلالها
وألقت شجرة الكاميليا الحمراء أغصانها على الأرض
وقد أتعبها حمل كل هذه الأزهار الربيعية الغزيرة
وتأملت « كيو » القمر وهي وحيدة في الليل
كان قلبها مثقلاً بالرجاء القريب ، وبالقلق البعيد
تلك المرأة الوحيدة في قبرها ، كان مصيرها
هناك ، بعد كل ذلك المجد وبعد كل تلك الأبهة !
وذلك الفتى الذي ألقاه القدر في طريقي
أترى تجمع الأقدار بخيوطها بين قدرينا
كتبت بعض الأبيات ، أودعت فيها
قلبها الذي تزدحم فيه ألف فكرة وألف فكرة ...
وتسرب شعاع من القمر وراء الستارة
نامت « كيو » وفجأة ظهر خيال امرأة
رائعة ، ناعمة ، يتلألأ وجهها كقطرة من الندى
جسدها في بياضه الناصع مثل الثلج
أتراها تقترب ؟ أتراها تبتعد ؟ لم تعرف « كيو »
واستقبلتها في فرح . وسألتها : أتكونين
روحاً هائمة في هذا العالم ، جاءت من وادي الخالدين ؟
وقالت المرأة المجهولة الجميلة : عطف خفي يؤلف بيننا
أتراك نسيت تلك التي لقيتها اليوم ؟
في الناحية الغربية ، أتذكرين ذلك القبر الوحيد

والساقيــة التي تدندن تحت العريشــة
لقــــد منحتني عطف أخت
كلمـــاتـــك الذهبيــة بلغت مسامعي
في ســــحل القــــدر الــــذي يحكمتـــــا
قرأت اسمك • زورق واحد يمضي بنـــا
زورق الفتيـــات اللواتي لا يُوفـّرهن الشـــقاء
نعم • نحن نجر سلاسل تاسعتنا القاسي (٤)
وأنت أيتها الشاعرة أسألك صوغ أبيات حول هذا الموضوع
أنت تملكين من الريشة الزاهرة ، من الأشعار الخالدة
ولبّيَت « كيو » رغبتهــــا ، وبأصابعها السحريــــة
صنعت أنغاماً وصاغت أبياتـــاً
وصاحت الزائـــرة الجميلة متعجبة : يا لك من موهبة
يا لك من قلب ذهبي ، يا لها من كلمات رائعة مثل الديباج المذهب
كـــل الحسان اللواتي كـــان حظهن شقياً
انت ولا شـــك مبكة عليهـــن في الموهبـــة
وودعت الزائرة « كيو » عند الدرج
وأمسكت بهـــا « كيو » ولكن الريـــح حركت الستائـــر •
وارتجفت « كيو » : ما هـــذا إلا حلم من الأحــــلام
لا ظل لأحد ، ولكـــن هنا وهناك كـــان يتماوج عطـــر ندعم
وظلت « كيو » وحيدة تفكر حتى ساعة متأخـــرة من الليـــل
لتفكـــــر في المستقبل يملؤهـــا ذعـــراً
أتراها ستصبح زهرة ، في عاصفة ، مشة تتقاذفها الأمواج ؟
وكالأمواج التي لاتني ترمجر ، كانت أفكارها القاتمة
تهاجمهـــا وتنتزع منهـــا آهات وزفرات حرساء ••
واستيقظت أمهـــا فجـــأة وراء الستائـــر
وقلقت عليها وقالت لها : أفي قلب الليل يا ابنتي

تتمدين ؟ وقد غسلتك الدموع
كأنك زهرة تفاح بيضاء تحت المطر
وقالت « كيو » لست إلا طفلة يا أمّاه
أنت غذوتني وربيتني ، ولم أعطك شيئاً
اليوم قدمت إحترامي ل « دام تيان »
والليلة بدت لي في منامي
وذكرت لي ما ينتظرني من قدر رهيب
تلك هي الموضوعات التي اقترحتها عليّ ، والأشعار التي كتبتها
ما أشأم هذه النبوءة .. ماذا ينتظرني غداً ؟
وقالت أمها ولماذا تستسلمين يا ابنتي لحلم من الأحلام ؟
لماذا تعذبين نفسك دون سبب معقول ؟!
وكأنما أوحت هذه النصائح الحكيمة السكينة الى « كيو »
التي كان قلبها يفيض بحبها الجديد
وزقزق عصفور وراء النافذة
وتمايلت أغصان الصفصاف تداعب الستائر ..
وألقى القمر تحت الشرفة أشعته المنحرفة
وأحست « كيو » ، في مرارة ، بكل ما يحيط بها من وحدة .

★ ★ ★

هكذا هو الحب ، وهكذا هم العشاق
تشابك العواطف في قلوبهم لا يدركه أحد
وراء النافذة ، بين الكتب ، تستبد الذكرى
بالفتى كيم ، كان كلما حاول كبح المسه
فاض وزاد . وامتدت أيام الانتظار
كأنما هي فصول من الخريف طويلة لا تنتهي
الستائر تخفي مرها ، كأنها حجاب من الغيوم

ما من سبيل إلى رؤية الحبيبة غير سبيل الأحلام •
الأقمار تمضي : وطول الليالي
يستنفد زيت القناديل
إنه يفكر دائماً في تلك الطلعة
يئن قلبه بحثاً عن القلب الآخر
باردة بدت له غرفته
الريشة تستلقي إلى جنب القيثارة محلولة الأوتار
الريح تعبث ، دون هوادة بستائر الحرير
لا يكاد يحترق البخور حتى يبعث عطر الذكرى
أطيب كأس من الشاي يصبها مذاق الحب ينقصها
أترى سيجتمع شملانا ، ذات يوم ؟ لم هذا العبث القاسي ؟
أيتها السماء لم قدّرت عليّ أن القاها في الطريق ؟
وهي ، هي الجميلة ، جمالاً يدك القلاع والحصون •
لا شيء يمحي في خياله :
لا وجه الحبيبة ولا ذكرى ذلك المكان
وعاد مراراً يزور مكان اللقاء الأول
العشب ، دائماً أخضر يمتد على مد البصر ،
الماء ، دائماً صاف ولكنه لا يحفظ صورة الحبيب
نسيم المساء يبش المه من مكامنه
يدغدغ القصب ، فيتمايل في مهب الريح
في أعماق الذكرى تنسج الأحلام رقاها الساحرة
ولم يستطع صبراً ، فهرع إلى منزل « كيو »
البوابة مغلقة ، الجدران صارمة ، لاشيء يمر
لا عصفور السماء ، ولا ورقة الأرجوان (٥)
كانت أغصان الصفصاف تتدلى كأنها الستائر
عصفور دوري ساخر يقفز بين الأوراق
الأبواب مغلقة ، والمزاليج محكمة

الأزهــار تتناثر على الشرفة ، ولكن ما من ظـل لانسان
وتسمر هنالــك ساعات طوالاً
ثـم وجـد في جوار بيت الحبيبـة منزلاً خاليـاً
استأجـره وحمـل إليـه كتبـه وقيثارتـه
كـان البستان وارف الظـلال ، وهنــاك صخرة صغـيرة
وقد كتب على الشرفة « لام توي » ووجـد فيهـا بشارة سعيدة (٦)
وفـرح وقـال لنفسه : حبذا قـدر من الأقـــدار
وخلف نافذتـه المفتوحـة دائماً
كان « كيم » يرصد البيت يوماً بعـد يوم .
ما تزال البوابة مغلقـة ، ليس يفصل بينهمـا إلا شبر
ولكن تلك اللوحة الموردة التي ينتظرها لا يرى لها أثراً
والزمان يجري ، وانتظـر قمريـن كامليـن
ولكن ! ذات يوم جميـل ، خلف الجـــدار
سمع صوت ثوب يتموج في الريـح ، تحت ظـل شجرة دراق
وتـرك كيم قيثارته ، وأوغل في الحـديقة
ليس هنالـك أحد ، ولكـن ما يـزال يرف عطـر ناعم
ومشى عـلى الحائط ، فوجد على الشجرة قلادة من ذهب
أمسك بها ، وحملهـا إلى بيته ، وقال لنفسه : هذه الحلية
وهي جـزء من حياة المـرأة الشخصية ، فأل حسن .
أيمكن أن تكون قد سقطت بـين يدي دون سبب ؟
وجعل يقلبهـا ، ويتأملها ، فطـار نومـه
كان هنالك عطـر فواح يؤرقه طـوال الليل
ولم تكد تذوب قطـرات الندى عند الصباح
حتى رأينـا شبحاً يلتصـق بالجـــدار
كان « كيم » يرقب ، وحاول أن يقترب ليرى من وراءه
كانت الحلية بـين يديـه ، أيمكـن أن تكـون

مثل لآلىء (هوب فو) (٧) تعود إليك دون تردد •
ورن صـــوت « كيو » الجميـــل تقول .
ما قيمـــة هـذه القـلادة الضـــائعة
عنـدك ، أيهـا الفتى النبيـل ، الـذي
يرجـح شرفـه على كل ما في العالـم من ذهب ؟
وصرخ « كيم » : ألا تعرفيني ؟ ألا أعرفك ؟
لقـد قطفت هـذا العود النواح الـذي سقط منك
ولكن ، يعلـم الله كم من شهور طويلـة تألمت
وكـم ترقبت هـــذا اليـوم ،
اسمعي لي بدقيقـة ، أريد أن أقـول لك أشيـاء وأشياء
وعـاد إلى منـزله وأحـد قـلادة من ذهب
وقطعـة من الحرير ، ثم هـ هو ذا يقفـز الحائط
نعـم • إنهـا هي : يحمـر خدّاها خجلاً وتخفض رأسـها
شربتهـا عينـاه وقـال : لقـد رأيتك
يوماً من الأيام ، ومنذئذ أصبحت حياتي انتظاراً طويلاً
أنـ أذوب كأني شجرة دراق تـذوي
مرت شهـور ، وأنا تائه في غيـوم أحـلامي
ظللت في عناد أستند إلى دعامة الترقب (٨)
سؤال واحـد أسألـه : هذا البيت الوضيع
هل يمكن أن يرجو شعاعاً من هـذا النجم الرفيع ؟
وجـاء الجواب متردداً ، دون زخـرف كأنه الثلج :
تقاليد أسرتنا ريفيـة أصيلة مثـل هـذه الأعشـاب
ورقـة الأرجوان ، رسالة الحب ، خيوط الرقـاق الوردية
كل ذلك يتعلق بالأب وبالأم يقطعانه أو ينسجانه
لست إلا زهرة متواضعة ، ضعيفة واهنة
طفلة لا تعرف كيف تجيب •

ورجاها « كيم » . غداً يمكن أن تهب الريح ، أن تنطلق العاصفة
أيمكن أن تعود روعة الربيع مرة ثانية ؟
إذا لـــم ترحمي حبي الجنـــوني
فسأقع في براثـــن اليأس ، وماذا تربحـــين ؟
قولي فقط كلمة واحدة ، لا تكلفك شيئاً ، فتجمع بيننا
سأرسل ، حسب القواعد المتبعة ، في طلبـــك إلى أهلـــك .
وإذا عارضت السمـــاء حبي
فاقسم : لأهدرن سنواتي العشر هدراً .
دعي قلبـــك يتفتح لأنســـام الربيـــع
لا تتركي قلبـــاً يختـــارك دون جــــواب
كانت « كيو » تصغي صامتة ، تهدهدها هذه الكلمات
وطاف في عينيها الصافيتين ، كبحرتين في الخريف ، حلم من أحلام الربيع .
قالت : نحن لم نكد نتعارف ، ولكن كيف أمنع قلبي وأمسك به
أمام هذه العواطف النبيلة ؟ أيهـــا الفتى النبيل ، لقد أعطيتني كلمة شرف
وهي منقوشة على قلبي أقوى من نقشها على الذهب أو على الحجر .
كانت هذه الكلمـــات برداً وسلاماً على قلب « كيم »
ومد الى « كيو » قلادة الذهب ، وقطعة الحرير

قال : سنبقى مرتبطين إلى مدى مائة عام ، إليك هذا العربون
وأعطته « كيو » مروحة مزهرة ومنديلاً مطرزاً
واقسمـــا يمـــين الحب الأبـــدي
وسمعا وقـــع خطوات ، ونباة لأصوات
تفرقا في سرعـــة يتخطيان الأوراق و لأزهـــار
وعـــاد إلى مكتبتـــه ، وعادت إلى ستائـــرها .

★ ★ ★

احتبرت الصخرة صفاء الذهب
كلما زاد الترابط بين القلبين
زادت حرقة الانتظار ضنى العاشقين .
جف نهر « تونغ » وأصبح ساقية صغيرة (٩)
الحبيبة تنتظر عند منبعه ، والحبيب يتنهد عند مصبه
لا يفصل بينهما غير جدار
ولكن الثلج والضباب كانا يحجبانه
في ربيع حبهما لم يجدا رسولاً ولا رسالة
ومضى الوقت يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة
خلعت الأشجار برد الأزهار واكتست بالخضرة
والربيع يكاد يمضي ، وفي أسرة الأم
كانوا يحتفلون بذكرى سنوية ، فذهبت أسرة « فونغ » تحمل النذور
وبقيت « كيو » وحيدة في ثياب لميد
الفرصة طيبة ، وحملت مسرعة بعض الفواكه والحلوى
وها هي ذي في رشاقة تهرع إلى الجدار
ومن بين أكوام الزهر أسمعت صوتها
ووراء الأزهار كان « كيم » ينتظر
وصاح : « ما أقسى هذا الاهمال ، لماذا
« نترك نار حبنا تخبو ، وما كادت تشتعل ؟ »
« أيامي نسجها الانتظار والألم »
« وشعري بدأ يشيب »
وقالت : « الأمطار والرياح حالت بيننا . »
« أعترف أني أخطأت ، غابت أسرتي اليوم »
« وها أنا الآن يلبي قلبي نداء قلبك »
ودارت حول الصخرة الصغيرة ووصلت إلى أعلى الجدار
كان سياج صغير يقطع الطريق ؛ فأزاحته

وانفتح أمامهما وادي لسعادة .
كانا واقفين وجهاً لوجه ، يتعب أحدهما من التطلع إلى الآخر
ولا يكفان عن ترداد الكلمات الحلوة
ومضيا إلى بيت « كيم » كتفاً إلى كتف
في نجواهما دغدغة النسيم ونور القمر
أما أيمانهما فكانت خالدة خلود الأنهار والجبال
كانت على منضدة هناك ريش ومجموعة شعر
وعلى الجدار لوحة تمثل صبوبرة أكثر جمالاً مما هي في الطبيعة .

ولم تكف « كيو » عن الاعجاب به ، ورجاها « كيم » أن تكتب عليها بضعة أبيات
وبأناملها ، وهي أنامل حورية ، وفي سرعة الريح
كتبت على اللوحة بعض المقطوعات
ودهش « كيم » وصاح معجباً « تحت يديك يولد اليشب والألماس »
« بان » و « تان » هاتان المرأتان اللتان يفتخر بموهبتهما القدماء
« تكادان تبلغان عبقريتك ، على أبعد تقدير
« لعل مآثر حيواتي السابقة .
هي التي جعلتني أستحق هذه السعادة . »
وقالت . « عندما أراك تبدو لي رجلاً ذا أصل طيب ومستقبل لامع . »
« أما أنا فقدري سريع العطب كأنه جناح يعسوب
« أترى تتيح لي السماء أن أذوق السعادة »
« كنت ما أزال صغيرة عندما قالت لي النبوءة : »
« هذه الزهرة كثيرة النضارة ، وستبقى طوال حياتها
« عرضة لضربات الحظ »
« أنا أرى أي رجل ستغدو ، فأفكر في نفسي »
أيمكن أن تجتمع لسعادة والتعاسة ؟ . »
وأجاب « كيم » : لقد كان لقاؤنا قدراً »
« إن إرادة الناس تنتصر غالباً على قسوة الحظ »

« إذا حدث وانفصمت عرى حبنا
فسأضحي بحياتي على مذبح أيماني * »
ألف كلمة حلوة وألف كلمة تبادلاها
إن فرح الربيع يزدهر في قلبيهما
ومع الخمر تذوقا نشوة حبهما
زمن السعادة قصير ، بل هو أقصر من شمس
هنالك في الغرب حجبت الجبال الشمس
إنها لا تستطيع أن تتأخر ، فودعته
وفي بيتها علمت أن أهلها مدعوون إلى العشاء
وفي سرعة أسدلت ستائر الباب
ومضت إلى الحديقة في الليل
كان القمر يطرز أوراق الأشجار بأنواره وظلاله
وفي ضوء قنديل خافت ، كأنه حباحب أصفر في الليل
ووراء ستائره سمع « كيم » بين اليقظة والحلم
وقع خطوات خفيفة كأنها نسيم يخطر على أزهار الميلوس

كان شعاع من القمر يتسلل خلسة
واقترب ظل رشيق كالزهرة
أتراه يرى حلماً من الأحلام التي تنبثق في الربيع ؟
وسمع صوتاً ناعماً : الليل معتم ، والحديقة مقفرة
ولكن ليس أمام من يريد قطف زهرة الحب طريق طويل
نحن نقف وجهاً لوجه • لعل ذلك سيصبح غداً حلماً
يمكن في سهولة أن نتصور استقبال « كيم » لها وفرحته بها
أعاد ملء قنديله وتأجيج بخوره
وعاد الحبيبان يؤكدان أيمانهما ، ومن شعرها
الذي يتموج تموجات أروع من تموجات الغيوم ، قصت « كيو » خصلة
وقسمتها قسمين : كانت الخصلة عربون الحب

القمـر ، في أعلى السماء ، مضيئاً صافياً ، كان هو الشاهـد •
تناجيـا وتحادثـا
وباح كـل منهمـا لصاحبـه بأعمق أسراره وأفكـاره
وقـررا مصيرهمـا إلى مائـة عام ، إلى الأبـد
كانت كأس الخمـر تتلألأ كأنهـا جوهرة
وستاشر اسمرير معطرة ، والمرآة ترصـع صورتيهمـا
وقـال كيم : « أشعة القمر صافية ، نسيم الليـل نـدي »
« وانا أكاتـم رغبـة لـم ترتـو منـذ زمـان
« على جسر « لام » (١٠) لم تخرب يد البشب
« ولكني أخشى ، إن رجوتك ، أن أزعجـك
وقالت « كيو » « لقـد تبادلنـا ورقة الأرجـوان
« ونسجنا الخيـوط الحمـر ، وتكفي كلمة واحدة فتتم وحدتنا
« دعنـا مـن حديث القمـر والـزهر
« فأنا ، دون أسف ، لا أره لـك طلبـاً • »
وقال : « أنت موسيقية مشهورة
« مثـل « شونغ كي » (١١) ، وأحب أن أسمعك
« وأحلـم بالأنهـار والجبال التي تحلمـين بهـا • »
وأجابت « كيو » « انا قليلة الموهبـة ، ولكني ألبي رغبتـك • »
كان في الشرفة قيثارة ، وقدمها « كيم » إليها في حفاوة واحترام
وقالت : « فـي متواضـع ، لست أستحق كل هذا الاهتمام • »
وجسّت الأوتار العليا والسفلى وأحكمتها
وانبعثت الموسيقى ، فسمعت الحـديد يصـدم الحـديد
وسمعنا الذهب يرن : إنها الحرب بين « هان » و « سو » (١٢)
ثم جاء دور التنهدات الطويلة ، والأنات الأليمة
« تو ما » تبكي المغناء التي دلهها الحب (١٣)
وعزفت « كي كانغ » لحن « كوانغ لانغ » (١٤)

هذه هي أغنية الماء الجاري ، والغيوم الشاردة
وسواح الحسناء « شيو كوان » التي باعوها للبرابرة (١٥)
إنهـا تجتاز الحدود وتبكي عـلى ملكهـا الذي تحبـه ،
وتبكي على أسرتهـا اليائسة ••• وتتابعت الأنغـام
رائعـة ، صافية ، صرخـات عصفور في ليـل
تضطـرب كأنهـا زمجـرة سـيل عـلى ر بية
الأنغــام البطيئـة تهب مثل نسمـة ناعمـة
والأنغـام السريعـة تجـري مثل سيل هـادر •
ويحيل إليك أن القنديل يسطع نوره أو يخفت على حسب الألحـان
وها هو ذا يستمـع إليهـا ويغرق في حلم حزيـن
يخفض رأسـه ويسـوي ركبتيـه
ويحـرك حاجبيـه ، ويشعـر بتقطـع أحشائـه
إنـه يقـول : « موسيقـاك رائعـة

« ولكن كم فيها من مرارة ، كم فيها من أسى !
« لماذا تختاريـن هـذه النغمـات المؤثـرة
« التي تجرح قلبك ، وتقلق من يستمع إليك ؟ »

وأجابت . « العادة غالبة
« كل إنسان لـه طبعه : سواء أكـان حزيناً أم مرحاً
« سأحاول تعديلهـا ، متبعة نصيحتك ، فهل أنجح ؟ • »
بدت الزهرة أكثر نضارة والعطر أكثر إثارة للنشوة
وفي عيون المحبين تصاعد محرقاً لهيب الحب •
وتصاعد هوى « كيم » كأنـه موجـة
وأطـل شيء من الرغبـة في حنانـه •

وقـالت « كيو » تتـذره « لا تفسد هوانا »
« دعني أقـل لـك كلمـة بسيطـة

« ما أسرع الذبول إلى زهرة الخوخ ، عصفور السماء
« لن أوصد في وجهه أبواب الحديقة
« لقد رفعتني إلى منزلة زوجة
« والمرأة التي تحمل رداء القنب (١٦) ، يجب أن تظل نقية .
« أ أكون من اللواتي يرتعن بين أشجار التوت ؟
« سأكون غاضبة منك ، محتقرة لك
« أترانا نقطف عابرين زهرة يوم واحد
« لنفسد إلى الأبد حب حياة كاملة
« ألم تكن « توا » و « ترونغ » أجمل الأزواج (١٧)
« ولكن سرعان ما احمدت الغيوم والأمطار بريق اليشب والذهب
« الزهرة اللينة سرعان ما تسلم طيور الربيع
« أجنحتها تتلاقى ، أفنانهما تتعانق
« ولكن هذا لحب ذبل وغطاه العار
« وخبا بخور اليمن ؛ وتحت سقف المعبد
« هوى ذلك الحب في العار وقد كان صافيا ورائعا
« وكان على « توا » الحسناء أن تلقي مكوكها (١٨)
« لكيلا تخجل بعد ذلك من حبها
« لماذا تريد أن تسرع في كسر الغصن ، في انتزاع الزهرة ؟
« سوف يلبي حبي حبك ذات يوم » » .

كانت الكلمات مستقيمة صادقة فأجبرت « كيم » على احترامها .

شحب ضوء القمر على أوراق الشجر
وعند البوابة أعلن أن رسولاً أتى

★ ★ ★

اسرعت « كيو » في العودة ، ومضى « كيم » إلى الحديقة
يفتح البوابة . ودخل رسول صغير
جبين مزعج : مات عمه في أرض غريبة
ووالده يطلب منه السفر
إلى (ليو زونغ) السيدة ليشرف على الجنازة
واضطرب « كيم » وهرع إلى « كيو »

يحزنها بما حل به من مصيبة ، ويأساه على فراقها

« ما كدنا يرى أحدنا صاحبه
« ما كدنا نعقد بكلمة مصيرنا يا للحب الحزين
« وها نحن هؤلاء نفترق . القمر الذي شهد أيماننا ما يزال يضيء
« سأصبح بعيداً عن عينيك ، ولكني سأبقى قريباً من قلبك . أقسم لك
« على بعد ألف فرسخ منك ، وطوال فصول وفصول
« سأبقى غريقاً في آلامي التي لن تنقشع عن قريب
« صوني نفسك ، أكثر من الألماس ، أكثر من الذهب
« لكي يشعر هذا الذي يحبك أنه مطمئن القلب
« وهو في الناحية القصوى من الأفق ، وراء الغيوم البعيدة . »

وصرخت « كيو » وقد مزق الألم أحشاءها ، في كلمات متقطعة :
« ما أقسى الاله الذي ينسج خيوط الحب
« وقبل أن نذوق لذة الوصال يقسم لنا ألم الفراق
« نحن مرتبطان بأيماننا : وهي مر الأيام والليالي
« قد يتبدل لون شعري ، أما سويداء قلبي فلن تتغير
« لن أعد شهور الانتظار ولا سنيه
« سأفكر فيك وحدك دائماً ، وأنت تأكل تحت المطر
« وتنام في الريح ، وسأحتمل ألمي في صمت
« لقد تعاهدنا على الاخلاص طوال الحياة ، وأقسم لك

« إني لـن أعـزف عـلى قيثارتي في مركب آخـر
« ستبقى الجبـــال و لأنهار وحياتنــا طويلـة
« وسأذكـــرك حتى تمــوت » »
بقيت أيديهما متشابكات ، لا يستطيعان الفراق

ولكـن ، على أعـلى السطح ، بـدت طلائـع أنوار النهـار
كـل خطـوة تفصـل بينهمـــا ، كل كلمـة وداع
تمـزق قلبيهمـا ، وخنقت الــدموع الكلمـــات
كان الحصان قد أسرج ، والزاد قد أعد في سرعة
ومضى كل في طريق ، يحمل عبء ألم مشترك
تتابعت القـُرى أمام المسافر الكئيب
وعـلى الأغصان كانت العقاعـق ترسل صرخاتهـا
وأسـراب متفرقة من البط البري تخترق السماء
والريــح تعصف والمطـــر يهطـل
وأحس الفتى أنه ينـوء بعبء الحب



بقيت « كيو » في الشرفـــة
تلملـم في صعوبـة ما في قلبهـا من قلـق .
ووراء نافذتهـا يصعـد دخان رمادي
يا لها من زهرة رائعة الألوان ، أضاعت ألقها
يا لهـا من صفصافة ندية ، تساقطت أوراقها في الربيع وأصبحت صفراء
ظلت تفكـر حتى عادت الأسرة من العيـد
ولـم تكد تلتقي بأسرتهـا حتى داهمت البيت
شرذم من الشرطـة ، هـذا يحمل سيفاً ، وهـذا يحمـل عصـا
رؤوس ثـيران ، ووجوه خيـول وسـادت فوضى ليس لها مثيل .

وضعوا نيراً خشبياً في عنق العجوز (مونغ) وفي عنق ولده
وضربوهما ضرباً مبرحاً فيا للعار !
وامتلأ البيت بطنين هذا الذباب الكريه
كسروا أنوال النسيج ، كسروا صناديق التطريز
والأشياء الشخصية وأشياء الأسرة التذكارية ، لم يتركوا شيئاً -
كلها اختفت في جيوبهم الواسعة
من أين حلت هذه المصيبة المفاجئة من نصب الفخ ؟
من ألقى الشَرَك ؟ ذلك ما عرفوه بعد قليل
تاجر حرير نصاب اتهمهم ، في جنون
بأنهم بثوا الشقاق في أسرته ، كان ينادي بظلامته
فتهتز الأرض ، وكانوا يعلنون براءتهم ، فتتزلزل السماء
جعلوا يرجونه ويستحلفون له ، ولكن عبثاً فالآذان صماء
وظلت الأيدي تتابع عبثها السمج
على جسر من الخشب عقدت أصحابها
لو حل ذلك بالصخر لتقلقل ، فكيف وقد حل بالناس ؟
وارتسم الذعر على كل الوجوه
وتوسلو إلى السماء ، ولكن السماء كانت بعيدة
يا لهؤلاء الحكام والشرطة من عصابة حقيرة .
أي شناعة لا يرتكبونها في سبيل المال ؟
وفكرت « كيو » ما العمل لانقاذ أهلها الأعزاء
المصيبة حلت ، ويجب أن تقرر
أتراها ستضحي بهذا الحب الذي عقده القدر ؟
أترى ما تترك أباها وأمها اللذين غذياها وربياها ؟
أتراها عبثاً أقسمت على حب واسع كالبحر خالد كالجبال ؟
يجب أولاً أن أفي ديني : البر بالوالدين يجب أن ينتصر .
وقالت للشرطة : اتركوهم ، سأبيع نفسي وأشتري حرية أهلي

كان العجوز (شوبع) مدير التمميد ولكنه كان طيب القلب
وأعجب بعواطف « كيو » النبيلة
ونصحها قائلاً : « كي ترشو هذا وذاك
عليك أن تدفعي ثلاثمائة قطعة ذهبية ، غير منقوصة
سأحاول أن يبقى أهلك تحت المراقبة
حاولي تدبير المال ، في مدى يومين أو ثلاثة . »
يا لهذه الطفلة المسكينة ، يا للصبية البريئة ،
لقد حلت بها الكارثة كما تحل الزوبعة ، إن الفراق أقسى من الموت .
ولكن كيف تأسى على حبها ، وهي التي لم تأس على حياتها ؟
قطرة المطر ، هل يحق لها أن تتشكى ؟
والقشة من العشب أليس عليها أن تدفع دينها لرب الربيع ؟
تشمّم السماسرة رائحة الصفقة الرابحة
وانتقل الخبر من فم إلى أذن
وجاءت إحدى السمسارات بزبون قدم من منطقة بعيدة
يدعى (ما جيام سينه) زعم أنه من (لام تانه)
كهل في الأربعين من عمره ، حليق ، يلبس لباساً فاخراً
السيد يمشي في المقدمة ، والخدم في المؤخرة ، ودخلت معه حاشيه صاخبة .
ووراء السمسارة التي أربكها تقديم واجبات الاحترام
تربع الرجل رأساً على مقعد الشرف
وجعلت السمسارة تستعجل « كيو » لتستقبل الزبون
والصبية مثقلة بعذاب الحب وشقاء الأسرة
كانت تتقدم في بطء تحت الشرفة المزينة بالأزهار
كل خطوة تخطوها تكلفها سيلاً من الدموع
يا لها من زهرة تحت المطر تضربها الريح ويعبث بها البلل .
كانت تخجل من رؤية الأزهار
كانت ترى عارها في المرآة

أخـذت السمسارة بيدهـا ، وداعبت شـعرها الجميـل
كـان وجـه « كيو »أقحوانـة ذابلـة
تمشي كـأن أقدامهـا مكسورة . مثل شجرة اجتثت من جذورها
رازوا مواهبهـا ، ساومـوا عـلى محاسـنها
والزموها أن تعـزف على القيثارة ، وأن ترتجـل أشعاراً
أرضت البضاعـة ذوق الرجـل ، ووجـد طعمهـا طيباً ذا نكهـة .
وبدأت عمليـات النخاسة . وقال الرجل . « علىّ جسر « لام »
اكتشفت جوهـرة ، ويهمني أن أعـرف ثمنهـا . »

وقالت السمسارة : « مثل هذه الصبية الجميلة تساوي ألف قطعة من الذهب
ولكـن الأسـرة المفجوعـة تعوّل عـلى كرمـك . »
واستمرت المساومة عنيفة : فلساً بعد فلس

ثم اتفقو : ٤٠٠ قطعة ذهبية ، ويضاف إليهـا بضع قطع
وانتهى المزاد ! راكبـة الزورق تستطيع أن تأخـذ المجـداف
البطاقـات المكتوبـة باسـم الخطيبين تقوم مقـام الرهينـة
تاريـخ الخطبـة ، يوم الزواج ، كل ذلـك تم الاتفـاق عليـه
الرجل غني غنى فاحشاً : فمـا الذي يعسر عليـه أن يسويـه
وتوسلوا إلى الشرطي العجوز فتدخل : وأطلق سراح الأب
يا للأب المسكين ، يا للبنت المسكينة ، ها هما هذان يتلاقيان وجهاً لوجه
وشـعر العجوز بقلبـه يقطـر دما وبأحشائه تتقطع
وصـرخ قائلاً : « يا ابنتي ، كم من حلم جميل حلمت به من أجلك

« كنت أظن أن رب السعادة سيقود يديّ
« فأنسج خيوط زفافك الأرجوانية ، وألقي الكرة إلى خاطبيك (١٩)
« أيتها السماء : لم كل هذه القسوة ؟! لم كل هذه المظالم ؟!
« لمـاذا تفرضـين علينـا هـذا الفـراق ؟
« إذا كان هذا الجذع المعوز يحتمل ضـربات الفأس فلا بأس

« ولكن لم عذاب هذه الطفلة ، ألكي يزداد أسى أبيها
« وهو الذي سوف يموت ليوم أو غداً . خير لي أن أقضي من أن أقاسي هذا الشقاء ! »

ورافقت سيول من الدموع كلمات الأب العجوز .
وها هو ذا يسرع ، ويضرب رأسه بالحائط
أسرع الجميع للامساك به . وأخذته « كيو » في رفق
قالت له : « أنا طفلة فضة موردة الخدين ، دَيْن أبويَّ اللذين ولداني .
« لم أدفع منه قشة ، وأنا خجلى
« أمام (وانه) التي كتبت تطلب الرأفة أو (لي) التي باعت نفسها (٢٠)
« يا والدي : أنت جذع الشجرة الخالدة ،
« التي تحمل أثقال أغصان لا يحصى لها عدد
« إذا نحن لم نحطم القيود التي تربطنا
« عصفت الزوبعة بأسرتنا كلها
« ومن الأفضل أن أضحي بشخصي المتواضع
« ما قيمة زهرة اقتلعتها الريح
« ما دامت الشجرة خضراء . ذلك هو قدري مبني
« برعماً سقط في مطلع أيامه
« كفاك عذاباً وحساباً ...
« إنهما يهدمان سقف بيتك ، ويؤديان إلى ضياعك . »

أصغى الأب إلى صوت العقل ، ونظر إلى ابنته
وسالت الدموع على الخدود محرقة مرة
ولكن ها هو ذا « ماجيام سينه » وحاشيته
وقع العقد ، ودفع المال ..
يا رب الزواج ، لماذا أنت قاس .
لماذا تعقد ، مصادفة ، الخيوط التي تمسكها بيديك ؟

المال موجود إذن فمن اليسير أن يصبح أبيض
ما كان أسود . وساعد الشرطي العجوز ، وقدمت الهدايا للسلطات
وسويت القضية باسم القانون .

★ ★ ★

مضت العاصفة التي زعزعت الأسرة
وحل موعد الفراق المسير على « كيو »
كانت تتبع في غرفتها ، ليلاً ، وحيدة هي والمصباح
ثيابها مبللة بالدموع ، شعرها يشمثه الألم
« أيها القدر ، مهما كنت قسياً ، فأنا صابرة ، ولكن الألم
يعتصرني وأنا أفكر في ذلك الذي وعدته وعد شرف
لقد تعب وتألم عبثاً
لقد مزق حبي حياته
ما تزل الكأس التي شربناها ندية ، لم نكد نقسم على الوفاء
حتى حنثت بيميني ، وفصمت عرى حبي
كيف يستطيع ، وهو تحت سماء (ليو زونغ) وراء الأنهار والجبال
أن يعرف ما حل بي من مصائب ؟
أيها القسم ، يا دين الحب ، ليس لي أمل في هذه الحياة
ولكني ، إذا بعثت مرة أخرى ، فسأبقى وفية لوعدي
سأصبح ثوراً أو حصاناً ، لكي أصون كلمتي
أما في هذه الحياة فسيبقى ديني عليّ لا أستطيع الوفاء به
سأحمل إلى مملكة الظلال ، حبي نقياً صافياً كالبلور . »
ظلت وحيدة تجتر أفكارها السود
والزيت ينفد في مصباحها
والدموع تمزق مناديلها
واستيقظت أختها « فان » ، فجأة من نومها الربيعي

ودنت منهـا تحت نور المصبـاح ، وسألتهـا في حنـان :

« ما أشـد عمى المربـات التي كالتهب لنا السماء !
« من كـل أعضـاء الأسرة ، أنت وحـدك يا أختي حملت أثقالنا
« لمـذا ترهقين نفسـك بالسهر في الليـل

أتكتمين في قلبك حبـاً يائساً ؟ »

قالت « كيو » « قلبي يفيض أمىً وأنا أكتم زفراتي ،

« أنا ضائعة في شباك حب لا أستطيع أن أحـل عقـدها
« إذا حللت وثـاق شفتي لأتكلم خجلت
« وإذا كتمت السـر كان الكتمـان خيانـة
« لي عندك رجـــاء ، إذا شئت

انحنيت أمامـك قبـل أن أتكلـــم
« لقد تقطع نياط قلبي في منتصف الطريق

وأنا أترك لـك يا أختـاه أن تلمي قطعه المبعثـرة

« منذ ذلـك اليـوم الـذي رأيت فيـه « كيم » ،
« في يوم من الأيام سجلنا عهودنا على المروحـة
« وذات مساء شربنا معاً خمرة القسم
« ولكن العاصفة هبت فجـأة ، ولم أعرف هـل أدفع
« دين حبي أو دين أهلي عليَّ ؟
« ما تـزال لك في ربيعـك أيـام طيبـة
« فأرجـوك يا أختي ، أن تحلي محلي في المحافظـة على يميني
« أستحلفـك بـروابط الـدم التي تجمـع بيننا ،
« يمكن أن تتحول عظامي إلى رماد ، وفي مملكة الموتى
« سأمضي والابتسامة على شفتي أتنشـق عبـير سعادتك

« إليـك القـلادة ، وهي عربون حبنـا ، وإليـك سجل قسمنا
« احتفظي بهذه الـذكريات المشتركـة ، وبخيط حبنـا
« رُبّما غدوتما زوجـين ذات يـوم
« فتذكري هـذه التي حل بهـا الشـقاء
« لن تجدي شخصي ، ولكن ذكرياتي ستبقى هنـا :
« ملامس قيثـارتي ، بقايـا بخوري
« وإذا حـدث أن أحرقت هذا البخور وأن لمست هذه القيثارة
« وإذا رأيت الأعشاب والأوراق تتمايـل في هبة الريح
« فاعلمي أنني قـد عدت إليـك لحظـة ، وأنني معك
« ستبقى روحي دائمـاً مثقلة بحمـل يميني
« وجسدي وهو طري كالقصبة سوف يتكسر ليفي بوعدي
« لن أرى في مملكة الظلال وجهيكما ، ولن أسمع صوتيكمـا
« ستسكبين كأساً من المـاء من أجل راحـة روح ملعونـة
« لقد تكسرت القلادة والمرآة ، وتكسر شبابي
« وا أسفاه كيف أستطيع أن أصف لـك سعة حبي
« مائة مرة ، ألف مرة أقـدم احترامي لحبيبي
« ما أشد ما كان الخيط الذي جمع بـين قلبينـا قصـير المدى
« ما أشـد ما كان الحظ الذي أصابنا سـريع العطب
« الموج يرتفع ، والزهـرة التي انتزعتهـا الريح تمضي في التيار عـلى غـير هـدى
« كيم ، يا حبيبي كيم ، ذلـك كـان حظي
« لقـد خنتـك منـذ اليـوم ! »

وأغمي عليهـا ، وخمدت أنفاسها وتجمـدت أطرافهـا
واستيقظ والدهـا ، وأصـاب البيت ذعر شديد
وقدمت إليها الاسعافات ، ومضت الأزمة ، وظلت « كيو » تبكي
وسألوها فازدادت نحيباً ، ولم تبس بكلمـة

قالت « فان » في صوت خافت تفسر موقفها :

« إليكم القلادة واليمين ... »

وصرخ الأب : « أمن أجلي سحقت حبك ؟!

« الخيوط التي تقطعت ستعيد أحتك عقدها

« أيتها السماء ، لماذا يجب على الابرة أن تنفصل عن المغاطيس ؟

« وعلى البذرة أن تنفصل عن العبير ؟ ، وأنت يا أبتي

« لماذا حكم عليك أن تكوني عشبة تتقاذفها الأمواج ؟!

« أن تكوني غيمة تمزقها الرياح كما تشاء ؟

« لقد تركت لنا وصاياك الأخيرة

« قد تتفتت الصخرة ولكن وصاياك ستبقى قاعدتنا الذهبية . »

وانحنت « كيو » أمام والدها ، وقدمت له احترامها

سيدفع دين حبي بفضلك يا أبي

لست أبالي إن كان كُتب عليّ أن أكون أَمَةً

لست أبالي إذا ابيضت عظامي في أرض غريبة

★ ★ ★

أين من يصف لي شقاء « كيو » ؟

في الليل ، كانت جولات الحرس ، سريعة الخطى

كأنما تستعجل سهرات الليل

كان هودج الزفاف ، وكله مغمور بالزهر ، ينتظر عند الباب

وها هي ذي القيثارات والمزامير تعزف أغاني الوداع

ما أشد ألم هذه التي تسافر ، وألم أولئك الذين يبقون .

الخيوط التي تربط بين قلوبهم تتمزق

وتتداخل كأنها خيط دودة القز تنسجه وهي خائرة القوى .

الدموع تنهمر حتى تكاد ترق لها الحجارة .

وعند المساء ، كانت الغيوم السود تغطي السماء بالقتام .
والاعشاب تيبس والأغصان تثقلها الأنداء
وقادها الموكب الى المعدق ، وأغلقوا عليها الأبواب .
وحولها تسشر روائح ربيع من الشهوات .
يا للعار ! أتسقط صبية في عمرها ، في مثل هذا التورد وهذه النضارة ؟!
ان قلبها يتمزق ، وهو تجتر ألمها ويأسها
لقد سقطت الزهـرة لالهيـة في أيـد قـدرة

وقالت لنفسها : « ألم يكن حرصي على طهارتي عبثاً ؟

« عندما كان حبي حاراً مثل الشمس ، جامحاً مثـل المطـر
« آه . لو كنت أعلـم أني سـوف أقع في هذه الحمأة
« لكنت أنت التي قطفت زهـرة بكـــارتي
« لماذا أغلقت الطريق أمام نسيم الشرق الرفيـــق ؟!
« نحن الآن نتوجع ، وألمي دون حـدود
« أترانا نلتقي مرة ثانية ، أيتاح لنا أن نحلم بأمل ؟
« ماذا بقي مني ؟ وقـــد أرهقني حظي
« أتراني سأحمل القدر الأسود قدر الخدود الوردية ؟ . »

كانت على المنضدة سكين أخذتها وخبأتها طي ثيابها .
« سأضع حداً لأيامي ـ إذا حدث في يـوم من الأيـام
« أن غمرت قـدمي أمواج الخزي والعار . »
هزيع من الليـل مضى بعد هزيع ، وهي وحدها ساهرة تحلم
لا تشـك في أن القـــدر تمثل لهـا
في شـــخص « ماجيام سينه » الحــــزين
كان قـد مارس مهنة الحب السهل ، كان غريبداً لم يبتسم له الحظ
كـان يمطـاد ما بـين القمـر والأزهـار
تناونه (تو با) وهي سيدة لها مقاصير خضر (٢١)

كـانت محطية شاحت ، وذبلت
دبوت المصادفـة الأمور ، فـانتعـة النشـارة
تحالفت مع النصاب بائع الكوسى المر (٢٢)
وفتحا معاً دكاناً ، يتاجران فيها
بالمساحيـق والعطـور ، والابتسامات والمداعبـات
يطوفان المدن والقرى ، ويجمعان ما يزعمون أنه خادمات
يدربانهن عـلى اللهو والملذات
أترى ذلك حظاً سعيداً أو تعيساً · من يستطيع اكتناه أقـدار السماء ؟
لقـد اختـار الحظ امـرأة بائسـة
فيا لـه من قـدر حزيـن يصيب فتـاة نقيـة بريئة !
إنها زهـرة بيعت في صباها لداعـرين حقيريـن
وكـان الفخ منصوباً في إحكـام : خطبة وزواج
وفـرح الرجـل ··· لقـد أمسك براية الشـرف
كـان كلمـا تأمل غنيمتـه زادت شهوتـه
أين يجد مثل هذا الجمال ، مثل هذا العطر الالهي ؟

« إن ابتسامتها وحدها ـ دون مبالغـة ـ تسوى ألف قطعة ذهبية
« عندما تحـل لدينـا ، فسأكون أبا عدرتهـا
« الأمراء النبلاء ، والزبائن الأغنياء ، كلهم سيتخاصمون عليها
« وهذا وحده يسوى على أقل تقدير ثلاثمائة قطعة ذهبية
« وهكذا نستعيد رأس المال وتأتي بعد ذلك الأرباح ···
« ما أحسن هذه الروعة المنتقاة في متنـاول شفتي !
« بزواجي منها سوف أنقص سعرها ، ولكن الاغراء كبير
« هـذه الزهرة السماوية على طرف يديْ النجستين
« لنقطف الغصن ، لنشـرب حتى نرتوي ·
« مَنْ مِن زبـائنـا الباحثـين عن اللـذة
« يعرف مداعبة الأزهار ، يفهم أسرارها ؟

« يكفي نقيع قشرة الرمان ، دم ديــك
« بعض الاحتياطات وتبقى المظاهر سليمة
« لن يجدوا قطرة ، وتبقى التعرفة عــلى حالهــا
« وإذا أرادت العجوز إزعاجي ، فسوف أرضيها
« أركع أمامهــا عــلى ركبتي فتــرضى
« ومع ذلك فستكون الرحلة طويلة ، وغيابي يثير الشبهات • »
وا أسفاه • إن الزهرة الغضة عرفت لسعة اليعسوب
في أكثر أحشائها سراً عاثت الحشرة الحقــيرة •••
ثارت الزوبعة في أقصى غضبهــا وعنفهــا
لم تشفق عــلى الجوهرة ولم ترفـــق بشذى الزهــرة
كانت تلــك الليلة ليلة أحلام مرعبــة وكوابيس
« كيو » راقدة دون حراك ، وحيدة تحت المشاعل التي تنفث دخانها
تبكي بدموع كالسيل ، وتشمئز من نفسهــا
يتفجــر حقــدها على الرجــل • أي مخلوق سمــج !
هذا الجسد الثمين مثل الذهب ، هذه الخدود الوردية المعرضة للاهانة
أي أمل بقي لها ؟ أن تبقى هنا ، تلك هي النهاية
غاظهــا قــدرها وكــرهت حظهـــا
وامسكت بالسكــين لتضــع حــداً لحياتهــا
وعاد إليهــا صوابها : سأموت أنــا وأستريح
ولكــن ماذا يحـــدث لأولئك الأعــزاء ؟
سيحيـــق الظلـم مرة أخــرى بأبوي
عليّ أن أتعقل ••• لا بد مما ليس منه بدّ عاجلاً أو آجلاً
وظلت طويلاً تزن الأسباب الموجبـــة والسالبــة
وها هو ذا صياح الديــك ينبعث من وراء الجـــدران
وفي المرقب نفــخ البوق في ضبــاب الصبـــاح
وأسرع « ماجيام سينه » فأمــر بالرحيل

آه يا لمأساة الفراق • وعلى الطريق الوعرة
تعثرت الخيول ، وترنحت العجلة •
وفي الاستراحة لأول على بعد عشرة فراسخ قدم الأب طعام الوداع
كان الضيوف والمدعوون يشربون ويأكلون خارج المنزل •
وفي الداخل جلست الأم والبنت معاً
كانتا تتبادلان النظرات وتبكيان بدموع سخية
وأسرت « كيو » إلى أمها هامسة :
« أنا أخجل لأني خلقت بنتاً ناعمة سهلة العطف
« لا استطيع أن أقوم بوفاء ديني لوالدي
« اليوم ، تعكرت الموجة وثار الغبار
« أيمكن أن أودع قلبي عندك إلى الأبد
« يا أماه ، لقد راقبت سكناته وحركاته في هذه الأيام
اخشى أن أكون قد وقعت بين يدي نصاب
« إذا قدم تركني وحيدة ، وإن دخل كان مرتبكاً
« وإن خرج كان كأنه يهرب ، كلماته يلقيها جزافاً ،
« خدمه لا يحترمونه ولا يخافونه •
« ليس فيه شيء من علائم النبل والوجاهة ، ولو نظرنا جيداً
« فان فيه كل مظاهر التصنع والتكلف
« يا أماه ••• بنتك عما قليل لن تصبح لك بنتاً
« ستصبح الأرض الغريبة مأواها ، ثم يضمها قبرها • »
أرادت الأم ، عند سماعها هذه الكلمات • أن تصرخ بالسماء طالبة عدلها
ولكنها لم تكد تفرغ كأس الوداع
حتى كان لرجل يحث العجلات على السفر
كان الأب أشبه بالميت وهو يرى ابنته المعذبة
أمسك بسرج « ماجام سينه » يرجوه :
« غصن من الصفصاف غض ، زهرة من أزهار الخوخ ناعمة ،

« تلك هي إبنتي . ولكـن شقاء والديهـا جعل منها أمـة لـك
« ستصبح ضائعه في البحر الواسع ، وتحت لسماوات البعيدة
« لتكـن أنت لهـا الصنوبرة الكبيرة التي تحتضن في ظلهـا
« هذه العشبة المسكينة وتقيها الثلج والندى »

وأجـاب الرجـل : « نحـن الآن نؤلف بيتنا
« روابط الـزواج المقدسـة ... وإذا حنثت يوماً
« فليكـن لقمر والشمس شاهديـن عليّ
« وليسقط عـلى رأسي غضب السمـوات . »

اختفت العجلـة في زوبعـة من الغبـار الأصفـر
كأنهـا ذاهبة إلى الجحيم تسوقها الريـاح والغيوم
ادمتها أسرتها ، فرنغ ، نظراتها طويلاً ، وهي تمسح عبراتها
وظلت أنظارها معلقـة ، يوماً بعد يوم ، بهـده البرقعة من الأفق

★ ★ ★

بعيداً بعيداً قادت الطريق « كيو » عبر بلاد غريبة
وجسـور بيض من الجليد ، ورقاب غيوم سود كثيفة ؛
وأقصاب ترتجف ويلتصق بعضها ببعض عند هبوب الريح
كـانت سـماء الخريف تسكب حزنهـا عليها وحدهـا
والقمر يذكرها ، ويا لعارها ، بقسمها
الذي أرادت أن تجعله ثابتاً مثل الأنهـار والجبـال
كـان الخريف ينشر قطعاً من الذهب على الغابات الخضـر
والعصافـير ترقرق فكأنها تذكرها بأهلهـا البائسـين
أنهـار غريبـة تتلاحق بعـد جبال مجهولة
ومضى شهر ، ووصلوا إلى « لام تري »
وقفت العجلـة أمـام بـوابة

وأزاحت امرأة ستارة ، ودنت منها : سحنة شاحبة
ولكن ما أسمنها ! ... وما أكثر نهمها !
وجعلت ، دون تردد ، تدور حول القادمة الجديدة
وبدعوة منها دخلت « كيو » الى البيت .
على اليمين بنات مخضبات الأهداب
وعلى اليسار زبائن ، وفي الوسط مذبح فيه بخور
على الجدار صورة ملك له حواجب بيض
لقد جرت العادة في « المقاصير الخضر »
أن تكون تحت حماية هذا الملاك ،
وأن تقدم إليه الأزهار والبخور في الصباح والمساء .
وعندما لا تستطيع « بنت » اجتذاب الزبائن
كانت تخلع ثيابها وغلالتها وتحرق كومة من البخور
أمام حاميها المقدس ، تدعوه مرة بعد مرة
وكانت تجدد أزهار المذبح وتضع بعضها تحت سريرها
فاذا الرجال يعودون إليها ويحومون حولها .
وانحنت « كيو » للرئيسة حائرة
وبدأت العجوز تدعو : « لتزدهر أعمالنا

« ولتتتابع أيام الأعياد وليالي القصف واللهو
« ليسقط الوف الزبائن تحت سحرك
« لتزدحم الصنادل والعصافير في جوقة صاخبة
« على أشجار الخيزران والخوخ التي تهتز معاً
« لتتدفق سيول من البطاقات الحلوة ورسائل الحب
« فلا يكاد زبون يخرج من البوابة
« حتى تتلقفي آخر في مخدعك . »
لم تفهم « كيو » مغزى كل هذه الكلمات
ولكنها أحست انها وقعت في فخ مشروع قذر .

لم تكد « تو با »تقدم نذورها إلى أرواح المنزل
حتى قفزت واستقرت على السرير الكبير وأصدرت أوامرها
وقالت : يا ابنتي ··· انحني أمام امك التي هي أنا
ثم قدمي تحياتك لأبيك هذا ···

وقالت « كيو » · لقد قررت أن أبيع نفسي ، عندما حلت المصيبة

« لأكون زوجة من الدرجة الثانية . ولست أفهم الآن
« هذا الغموض ··· أي دور تعدونه لي هنا
« كل شيء جرى حسب القواعد : الخطبة والزواج
« لقد تقاسمنا حلوة الزوجين
« وأرى الأدوار تغيرت ، فأرجو أن توضحوا لي هذه الأمور · »

فهمت « توبا » ما جرى وانفجر غضبها :
« إذن فقد أصبح زوجي فريسة لك
« لقد أغوته الصبايا الناعمات
« أما رضا الزبائن ، وأما أرباح أعمالنا
« فقد داس عليها بقدميه ، وكان أول من ضاجعك فيا له من وغد
« لقد أفسد البضاعة ، فلوداع للأرباح والوداع لرأس المال ·
« وأنت التي خنتني ، ستلقين في هذا البيت العذاب ·
« عندما أرادك هذا الوغد العجوز على الفحشاء
« قدمت إليه جسدك بدل أن تصفعيه على وجهه
« تركته ينالك أيتها القذرة ··· فيا لك من صبية ويا لك من فاسقة ·
« انتظري فسوف تعرفين قانوني · »
دنت منها المرأة الشرسة ، وفي يدها سوط من الجلد
وصاحت « كيو » : « الأرض قاسية علي ، والسماء ليس لها قلب
لقد ضحيت بحياتي من أول يوم تركت فيه أهلي ···
قلت لها دون أسف : الوداع ··· » وأخرجت « كيو » سكينها

وخافت العجوز ، ورمقتها ، ولكن الحركة كانت قد تمّت
الوداع أيها الجمال ، الوداع أيتها الموهبة ... طعنة بالسكين
تكفي لقطع كل علاقة بهذا العالم الترابي
وانتشر الخبر كأنه غيمة باردة ، واكتسح لبيت جمهور غفير
وخيل للناس أن « كيو » قد رقدت إلى الأبد
وأضاعت العجوز صوابها
وحملت البائسة الى غرفة داخلية
واعتنوا بها وجاؤوا لها بطبيب
ولكن الموت لم يبرح « كيو » ... ما تزال الحياة تشدها إلى هذا العالم .

وأثناء سباتها ظهرت لها صبية وأسرت في أذنيها .

« إن دورة الأسباب والنتائج لا يمكن أن تنقطع
« أنت لا تستطيعين الافلات من دين الآلام الذي عليك
« أيتها الحسناء ذات الخدين الموردين ، ستحملين قدرهما الثقيل
« هل يملك الانسان قطع الخيط الذي لا تريد السماء أن تقطعه ؟ .
« عيشي حتى آخر لحظاتك معيشتك كمخلوقة غضة
« لكي أعطيك موعداً باللقاء ، بعد ذلك ، على نهر « تيان دونغ » .
استعادت « كيو » وعيها بعد يوم من العناية

كانت « توبا » قرب سريرها تلاحظها وتحاول ملاطفتها
« نحن لا نعيش إلا مرة واحدة ... وأنت تشبهين زهرة
« في ربيعها ، ما تزال الأيام الجميلة في انتظارك
« أقول لك بيننا . سوء تفاهم أصبح خطأ ، لا يطاوعني قلبي ،
« وقد عرفت أن لك كرامتك ، أن أدفعك إلى عشاق أنذال
« أنت هنا ضائعة تائهة - فأغلقي عليك الباب
« احتفظي بنضارة ربيعك في انتظار سعادتك
« ما دام الانسان حياً فان له في الأمل حقاً

« سمحت لك عن إنسان من أسرة نبيلة ، يكون أهلاً لك
« لماذا تشرين حيظ الحظ ، وتجرّين الشقاء إليك
« فتضيعين نفسك إلى الأبد وتخربين بيتي ؟ » »
هذه الكلمات المقنعة المهموسة في أذنيها في إلحاح
بدت لـ « كيو » مفعمة بالهوى وبالصواب
ثم ألا يذكرها الحلم الذي رأتـــه
بأن عليها أن ترضى بإرادة السماء ، وأنها إذا تخلصت من هذه الصورة في التنـــاسخ
فسيبقى عليها دين يجب أن تقضيه في هـذه الحياة ··· فلمـــاذا إذن تهرب منــه ؟
ستمضي في وجود آخر وهي مثقلة بحملها ····
وأصغت في صمت وانتباه وقـــالت .
« أنا لـم أجـر وراء النعامة ، ولكــن هل لي أمــل
« في أن تصبــح كلماتــك حقيقة واقعــــة
« وهــل ستحفظـين غـداً عهود اليـــوم ؟
« أخاف أن تحاصر اليعاسيب والفراشات هذه الزهرة
إذن فخير لها أن تموت نقية من أن تعيش في الطـين » »
وقالت العجـوز الداهيـة « اصبـري يا ابنتــي
« أنت امرأة ذات قلب ··· ولـن يخـــدعك قلبي
« إذا أخلفت وعـــدي
« فلتشهد عليّ هذه الشمس التي تلمع فوق رأسيك » »
هذه الكلمات الصارمة أدخلت الطمأنينة إلى نفس « كيو »
حبسوها في « مقصورة اللازورد الجميل » وحيدة هي وجمالها الربيعي
من بعيـــد كــانت تتـــراءى ظـــلال الجبـــال ،
كــانت رفيقــة لهـا مثـل القمـــر القريب

وحواليها على مد البصر تمتد رمال التلال الذهبية
ويدور غبار الطرقات الوردي •
والغيوم التي يلونها الصباح والمصباح الذي يترنح في الليل
كانت كلها تقلقها - المناظر التي تتأملها
والقلق الذي يأكلها كانا يتقاسمان قلبها
أين ذلك الذي كان يشرب كأس الحب تحت ضوء لقمر ؟
يوماً بعد يوم انتظرت أخباره دون جدوى
في هذا الشاطيء الضائع ، تحت تلك السماوات البعيدة
الحب ، الذي يعمر قلبهما ، لم يخمد أواره
ما أكثر أساها عندما تمكر في والديها ، وهما صبح ـ مساء
على عتبة البيت يرقبان الأفق دون أمل •
من ذلك الذي يروّح عليهما بالمروحة في الصيف ويغطيهما في الشتاء ؟
كم مرة في باحة منزلهما ، مسقط رأسه ،
قابت الشمس وهطل المطر ؛
وشجرة الكتلبة هنالك لعلها الآن أصبحت عجوزاً (٢٣)
ونظرت الى مصب النهر عند المساء في حسرة
أشرعة تبدو وأشرعة تختفي ، من بعيد
تحمل ما لا تعرف من المسافرين
ونظرت الى النهر تجري أمواجه ، في حسرة
الى أين تمضي هذه الانهار دون هدى وأين تستقر ؟
ونظرت الى السهل الذي يذبل فيه العشب في حسرة
السماء والأرض تختلطان في خضرة لا يميزها الناظر
شاهدت الريح تحتشد على الشاطيء • في لوعة
علت ضجة الأمواج حتى بلغتها ، وهي على كرسيها •

★ ★ ★

هـذه الأنهـار هـذه الجبـال ، كلهـا غريبـة عنهـا
رددت بضعة أبيـات تذكر فيهـا الـم المرأة المنفية
وفي حسرة ، أسـدلت ستائـرها ، ووراء الجـدار
سمعت صوتـاً يـردد شعراً عـلى وزن شعرهـا
وظهـر شـاب في زهـرة عمـره
حسن الهيئة ، أنيق ، صقيل الشعر ، يلبس في ذوق
وفكرت « لا بـد أنـه مثقف من أسـرة طيبة »
أفادت المعلومات أنه السيد « سو كانـه »
لقـد أبصر خلال الستائر ظل « كيو »
ويظهر أنه أبدى عطفاً عليهـا
وجعل يصرخ : كيف تستطيع مثل هذه الحسناء الفريدة هذا الجوهر الالهي
أن تتشـرد ، لتقـع في هـذه الأمكنة ؟
اني لاتميـر غيظـاً
آه يا قلبي من يستطيع أن يكتنه ما تشعر بـه ؟
آه ، لو علمت الحسـناء أن هنا بطـلاً
مستعداً لكسر القفص وتحريـر العصفـور
هـذا كله عنـده لعبـة من اللعب
وسحبت الستائـر ، وسمعت « كيو » هذه الكلمات المتباهية ترن رنيناً .
وفكـرت في الرجـل ، وفكـرت في حظهـا
واثـر فيها عطفه فشعرت أنهـا أقـل عزلة وتفرداً
وأعقبت أيام المطر أيام الصحو دون نهايـة
متى أنتهي من تجرير حياتي في الريح وفي الغبار ؟
لأتسلّح بشيء من الشجاعـة . لأكتب الى الرجـل بضع كلمـات
لعلـه يمد يده المنقـذة الى البـائسة الغريقة
في الكتـاب ذكـرت لـه كل قصتهـا
واجباتهـا نحو والديهـا ، وشقاءهما

ولم يكد ينقشع ضباب الصباح
حتى مضت الرسالة • ولم تكد تصطبغ بالذهب ألوان الغسق
حتى وصل الجواب : على ورقة زهرية جميلة
سجلت الرسالة صورتين رمزيتين ••• رسم « تيش فييت »
الاشارة واضحة لكل من يعرف القراءة :
« تعالي في الواحد والعشرين ، في الساعة « توات » (٢٤)
كانت العصافير المتمردة تعود الى الغابات عند المساء
وفوق أشجار الكاميليا لاح القمر
على جانب الجدار تحرك ظل الأوراق
وولج الباب « سو كانه » ودخل في رشاقة
واضطربت « كيو » ولكنها قررت أن تستقبله
وجمعت تحييه ، وأسرّت له في صوت خافت :
« أنا مثل الزبد ضائعة في غضب الأمواج
« كالعصفور الشريد الذي ترصده شباك الصياد
« أرجوك ، أنقذ حياتي
« سأعقد تحت قميصك خيوط عرفاني بالجميل • »
وأصغى « سو كانه » دون أن ينبس ، ثم حرك رأسه وتمتم
« فكري إذن • أنا لست مثل الناس
« لقد جعلتني موضع ثقتك ، ولن أعفي نفسي منها
« حتى أردم هذا البحر من الشقاء »
وقالت : « مالي حيلة الا أن أعتمد على شهامتك
أتوسل إليك أن تقرر ، لعلنا نصل الى نهاية • »
وقال : « عندي حصان سباق سريع كالريح ، وخادم شديد المراس
« والفرصة سانحة ، فنهرب
« فلن تكون هنالك ست و ثلاثون طريقاً للنجاة
« سأكون هناك ، ولن يصيبك سوء • »

أثـارت هــذه الكلمــات شكوك « كيو »
ولكنها وقد جرت شوطا غير قليل لم تستطع التفكير في الأخطار الممكنـة
يجب أن تتابع طريقهـــا ، مغمضة العينين
لترى أيـن يمكن أن تقـودها السمـــاء ...
وفي خفة هبطا الدرج معا
ركبا الحصان ، ومضيا واحدا رديف واحد
انقضى الليل هزيعاً بعد هزيع ، وفرغت ساعة الماء قطرة بعد قطرة
مضى ليل الخريف ، وهـزت الريـــح الأشـجار
ولمــع القمر خــلال الأوراق ، كأنــه مرآة
وغطى النــدى الشاحب الأعشاب عــلى الطرقــات المقفـرة
كــان قلبهــا ، الذي يعتصره الحنين الى أرضهــا ، يستيقظ عند كل خطوة
ما هي ذي الديكة تصيــح ، في الحــال متتابعة متسارعة
ووراءهمـــا هــدرت أصـــوات
وخفــق قلب « كيو » حتى كــاد ينفجـر
ولوى « سوكانه » عنــان حصانه في اتجاه ، لا يعلمه الا الله
وتركهـــا وحيــدة يفترسهــا رعب لا يوصف
في الغابــة الكثيفة ؟ ما المسلك ؟ أتتقدم أم تعود أدراجهـــا ؟
آه يا رب ... علام كل هــذه القسوة ؟ علام تصر
على سحق زهرة بأقدامك ، على إلقاء هذا الصمام المورد في الدنس ؟
وأسرعت نحوها عصابــة كثيرة العـــدد
لماذا لا تكون ذات أجنحــة فتطير ؟ لماذا لا تكون ذات مخالب فتشق الأرض ؟
كانت « توبا » هنــاك ، ووثبت على « كيو » وقادتها الى البيت
دون أن تنبس ، وفي ســورة غضبها
هجمت عــلى الزهــرة المسكينة مزقت جسدها الغض مثل الصمصام
يا للوجع الذي يعانيه مخلوق من لحم ودم !

يا للأسى الذي يحسه من يرى عذاب هذه الزهرة القرمزية !
وتقطعت أنفاس الفتاة المسكينة وهي تعترف وترجو الرحمة
ومن ظهرها الممزق تناثرت قطع من اللحم
ومن رأسها المسحوق بالأرض ، جرى الدم
وصاحت متوسلة : « لست الا امرأة مسكينة
انتزعت من أهلها ، وسقطت في هذا المكان
حياتي تحت تصرفكم ، وليس لي ما أرجوه
ان شخصي لا يهمني ، أنا راضية بحظي ولكن ماذا أعمل بما لكم علي من مال ؟
الضفدعة التي تعيش في الطين لا تخاف أن تدنس رأسها
النقاء والفضيلة بريئة منهما ، أعدكم بذلك • »
وطلبت المرأة كفيلاً ، اقراراً مكتوباً •
وجاءت فتاة من المنزل اسمها « ماكيو » حركها العطف عليها
غامرت فكانت ضامنة لها •
والعجوز ، التي كان يثور غضبها حيناً بعد حين
لم تعلن عفوها الا بعد أن أفرغت شتائمها
حملوا « كيو » الى داخل البيت لتستريح •••
ودنت منها « ماكيو » تمدها بنصائحها •
« ما حدث حدث ••• لقد وقعت في فخ خداعه
« من الذي لا يعرف هنا هذا الشخص الذي يسمى « سوكانه » ؟
« انه هنا في هذه المقصورات الخضر ، مشهور بوقاحته
« كم من غصن ناعم هصره
« انها هي الساحرة ، أما هو فالواسطة ، لقد أوقعاك في الفخ
« مثل المحارب الذي يدعي أنه يتراجع لكي يكر فيشق الصفوف •
« لقد قبض ثلاثين قطعة ، هذه هي نهاية الحكاية
« أما مرة هذا الاخراج المسرحي ، فانتظري جانبه الآخر

راقبي لسانك فان فيه حتفك ٠ »
وقالت « كيو » . « ومع ذلك فقد أقسم ايماناً غليظة
كيف يمكن أن أكتشف كل هذا الخداع ؟ ٠ »
وبقيت مفكرة ، عندما بدا وجه الوغد المشؤوم
أبيض صافياً كأنه صفحة ورق ، وجعل « سوكانه » يصيح :
قيل لي : « ان فتاة هنا تطلق إشاعة
تقول انني أغويتها واستطعتها
اذا تجرأت فلتنظر الي وجهاً لوجه ٠ »
وأجابت : « اذا كان الأمر كذلك فسامحني
وما دمت تنكر فأنا موافقة ٠ لم يحدث شيء »
وهاج « سوكانه » وماج وتقدم ، يستعد للوثوب عليها
وصرخت : « لتشهد عليك السماء »

« من أغوى البلبل ؟ من خدع العصفور ؟
« ينطقون بكلمات صارمة ثم يبتلعونها
« ما تزال معي الرسالة مع كلمات « تيش فييت »
« نعم لنلتق وجهاً لوجه ، فلا مجال للخداع ٠ »

هذه الكلمات المستقيمة الصادقة هزت الحضور هزاً
تحدث بعضهم عن نذالة الرجل ، وبعضهم عن وقاحته
صدر الحكم عليه بالاجماع : مذنب ٠٠٠ فتوارى عن الأنظار
ها هي ذي الآن في غرفتها وحيدة تفكر في قدرها
وتبكي بدموع حارة ، وتندب نفسها
وا أسفاه ٠٠٠ كانت مثل الثلج ، مثل الفضة طاهرة نقية
ولكن عندما تهب الريح في زوبعة سوداء
فان عليها مثل غيرها أن تتقلب في الريح وفي الغبار
هكذا حياة الانسان : حزن وفرح

الحسناوات ذوات الخدود الحمر لا يعشن إلى الأبد
لعلي في حياة سابقة كنت مذنبة لا أستحق تلك الحياة
وأنا الآن لا أستطيع أن أهرب من قضاء ما عليّ من دين .
ومهما كان ، فقد تصدع الاناء
وعليّ أن أدفع ديني ، ما دمت على قيد الحياة

★ ★ ★

ذات مساء ، كان القمر يسطع كالمرآة الصافية
انتحت « توبا » بـ « كيو » ناحية وجعلت تلقنها الدرس في لطف .

« ان تجارة الملذات فن قائم بذاته
ونحن ، بنات المهنة ، علينا أن نعرف أسرار هذه التجارة . »
وقالت « كيو » « لقد لفحتني الريح وبللني المطر
وما عليّ الا أن أدفع ديني على حسب جسدي ما دام ذلك لدي قدراً مقدوراً . »

وقالت العجوز « الرجال يتجمعون

« يريدون تعويضاً عما يدفعون من أموال
« هناك ألف وصفة ووصفة في مهمتنا
« علينا في الليل أن نعرف كيف نتعرض وكيف نقاوم
« علينا في النهار أن نظهر التحفظ والحياء
« يا ابنتي حاولي أن تحفظي هذه الوصفات عن ظهر قلب

« الطرائق السبع في الاغراء ، والأشكال الثمانية في الحب

« بعد اللذة ينبغي أن تسقط الزهرة واهنة ، والصفصافة منهوكة القوى
« الحجر يتدحرج والرجل يفقد توازنه وصوابه
« الابتسامة على طرف الشفاه ، الغمز بالحاجبين

« التعجب من القمر ، ومداعبة الأزهار
« تلك هي مهنتنا ، وستكونين فتاة بارعة

« عندما تحركين كل هذه الدقائق الناعمة . »
أصغت « كيو » الى هذه التعليمات من أولها الى آخرها .
وشحب وجهها ذو اللون الوردي ، الصافي كاليشب
سمعت هذه الكلمات وصعد العار الى جبينها موسمه
أية اختبارات غريبة لم تخضعها لها الحياة ؟

« وأنا التي ربيت في حي جميل وبيت نبيل
« ها أنذا أدعى الى القيام بمهنة و يالها من مهنة ، يا للحسرة .
« يجب أن يكون وجهي صفيقاً ، وألا اشعر بالعار . »

حقاً ! لا يمكن أن يسقط الانسان في مكان أكثر انحطاطاً من هذا المكان .
وا أسفاه ماذا يستطيع العصفور المتشرد أن يصنع ، وفي الفخ وقع .
وفي المقصورة الخضراء مدوا ستائر وردية
علقوا إعلاناً بأهل الأسمار
زاد عدد الذين يشتهون الجوهرة
تدفقت الفراشات الخليعة واليعاسيب الشرهة
واستمرت العربدة شهوراً ، وغمرت الضحكات الليالي
كان الغصن يتلقف كل العصافير التي تمر به
كانت الورقة تهب نفسها لمداعبات كل الرياح .
عند الصباح تودع عاشقاً ، وعند المساء تستقبل عاشقاً
فاذا انقضت نشوة اللهو والقصف وأشرفت الليلة على نهايتها
كان كيان « كيو » يهتز كله ، وتشفق على نفسها
« لماذا نشأت في الحرير والديباج ؟
« أنا الآن أجرر نفسي كما تجرر الزهرة التي سقطت في قارعة الطريق .
« أيها الوجه المسكين الذي لفحته الريح ، وشققته الأمطار

« أيها الجسد المسكين الذي استسلم لشهوة الفراشات واليعاسيب * »

الزبائن يمضون ، وقد غرقوا في النشوة
ولكن كيف تستطيع ان تغمس بأفراح الربيع ؟
كم مرة ، وقد تدثرت خوفاً من الريح ، واستندت الى أصص الأزهار
ظلت تتأمل الثلج الذي يغطي نصف النافذة
والقمر الذي يغمر ما حولها بنوره
اي منظر طبيعي لم يحمل الى نفسها أساه
كل منظر لا يمكن أن يحمل الفرح الى القلب الحزين
وحدث أحياناً أن رسمت وكتبت أشعاراً
وعزفت على القيثارة في ضوء القمر
لعبت دورة شطرنج في ظل الزهر
كل ذلك كان مرحاً تزمن به أمراً
أين القلب الذي يمكن أن يتجاوب مع قلبها ؟
الريح تغني في أشجار الخيزران
المطر يبلل أشجار الخوخ المزهرة
وهي تجتر ألف فكرة ، في غير مبالاة وقد عصرها الأسى
الذكريات ، البعيدة والقريبة ، تمزق أحشاءها
وتختلط الذكريات كأن أحداً يلف بعضها ببعض
ثم تنهار كأن أحداً نهال عليها ضرباً
وهي تفكر في أهلها ، وفيما قدموا لها من معروف لا حصر له
هناك ، تجنح الشمس للغروب ويمتد ظل أشجار التوت
ولكن الجبال العالية والأنهر العميقة تحول بينهم وبينها
أيمكن أن يشكوا في ما خبأ القدر لابنتهم ؟
في باحة المنزل الأبوي ، كان إخوتها وأختها وهم صغار
من يحل محلها في انقاذ الوالدين العجوزين ؟
تذكرت اليمين التي ترتبط بها الى الأبد

أيمكن أن يعرف « كيم » وهو بعيد ، ما في قلبي من حسرات ؟
لمسه منذ مودته سال من تلك الصفصافة ، صفصافة الأمس
ألم يقصف غصنها قاصف لينقله من يد الى يد ؟
وهل حلت أختي « فان » محلي لتعوضه عن حبه ؟
أو أن الزهرة سقطت على غصن لم يكن لها ؟
كانت كل هذه الأسئلة تختلط في قلبها ، مثل كبّة من الحرير
طوال الليالي كانت تحلم بمسقط رأسها
من نافذتها المكللة بالحرير ، تحت سماء غريبة
كانت ، وحدها ، ترى مغارب الشمس تتلاحق وراء المحارب
وترى السماء مرة بعد مرة يكسوها غيم الشمس بالذهب
أو تكسوها أقمار الليل بالفضة
أيتها السماء ! لماذا تصبين عليها جام الشقاء ؟
لقد قدر لها أن تولد ولها خدان موردان
ولكن القدر ينشب مخالبه فيها جزاء وفاقا على عطاياه
هكذا كتب لها أن تجرر نفسها في الريح وفي الغبار
ولن تنقذ نفسها من براثن القدر الا اذا شربت حتى الثمالة كأس العار



(تتمة القصيدة في العدد القادم)

الحـــواشـــي

(١) في بلاد الشرق الاقصى تتعرض الانهار والبحار غالبا للفيضانات وتشكل طبقات الطمي ، وتغيرات مجاري الانهر ، والاكتساح امد ، مما يجعل المياه تطغى كثيرا على الارض اليابسة أو يجعل الارض اليابسة تظهر حيث كانت تزمجر المياه . وصورة البحر الذي يكتسح حقول شجار التوت ، أو حقول التوت التي تظهر حيث كان البحر ، صورة تستعمل لتشير الى التغيرات والتبدلات العميقة التي تحدث في الطبيعة أو في حياة الناس ، فيقفون منها غالبا موقف العاجزين .

(٢) القصر « سويـن دو » موضوع « كيو » من رواية صينية . وعهد (جيا تيـه) من اسرة (ديه) (مانغ) يقع في القرن السادس عشر .
والعاصمتان هما « بكين » في الشمال و « نانكين » في الجنوب .

(٣) قيثارة « هو » وتسمى ايضا « ني يا » .

(٤) التناسخ (الكارما) انظر الشرح ص ٢١١.

(٥) وجد شاب في ساقية ، ورقة قرمزية كتبت عليها قصيدة ، فاخذ ورقة اخرى وخط عليها بضعة ابيات والقاها في الساقية . وحمل التيار الورقة لتقع بين يدي صبية من صبايا الحريم الامبراطوري ، كانت هي التي نظمت القصيدة المكتوبة على الورقة القرمزية التي وجدها الشاب . وبعد قليل من الزمن تحررت المرأة من الحريم ولقيت الشاب فتزوجته .
اما عصفور السماء اللازوردية فهو رسول الحب .

(٦) « لام توي » تأمل الفضاء اللازوردي . وكلمة « توي » هي أيضا شطر من اسم « كيو » وهو « توي كيو » .

(٧) « هوب بو » منطقة ساحلية غنية باللؤلؤ . واصداف اللؤلؤ تختفي عندما يكون الحاكم جشعاً وتظهر عندما تكون الادارة شريفة .

(٨) تواعد شاب وحبيبته على اللقاء تحت جسر . ولم تأت الحبيبة ، فانتظرها الشاب في عناد وهو يعتصم على دعامة الجسر حتى جاء المد فابتلعه .

(٩) اشارة الى اغنية صينية قديمة :
لو سبروا غور نهر « تونغ »
لكان اقل عمقا من حبنا .
انت ، يا حبيبتي ، عند المنبع ، وانا عند المصب
يمكن كل منا برؤيته دون أن يراه
كلانا يشرب من النهر نفسه .

(١٠) عي جسر « لام » طلب شاب يد فتاة . فطلبت أمها منه أن يقدم مهراً لا منتهى بدة مقصصه بتسبب جنونا لها من اليشب واعطت احدى الحوريات الشاب هذه اليد من اليشب . واستطاع الشابان أن يتزوجا .

(١١) « بابها » وهو صديق « شرنغ كي » الحميم كان يعزف على قيثارته . ومن يفكر في لجبال . ويصغي « شانغ كي » الى الموسيقى ثم يقول « هذه رائعة مثل الجبال العالية » ويفكر « بابها » في نهر كبير ، فيقول « شانغ كي » « الموسيقى تسيل مثل نهر كبير » . وعندما مات « شانغ كي » كسر صديقه قيثارته ، لانه لن يجد شخصاً يفهمه ، كما فهمه .

(١٢) مملكتان في الصين القديمة نشبت بينهما حروب ضارية .

(١٣) « تو ما » . موسيقي مشهور جنب له « تراك فان كون » الحسناء وهو يعزف قطعة « العنقاء العاشق » .

(١٤) « كي كانغ » مؤلف قديم .

(١٥) « هيو كوان » قدمت جزية لملك البرابرة و القطعة الموسيقية التي تندب شقاءها عنوانها « اجتياز الحدود » .

(١٦) الزوجة الشرعية المكلفة ادارة أرزاق الأسرة تلبس ، اقتصاداً ، ملابس من القماش الخشن ، ولا تبدو المرأة في لباس ثمين .

(١٧) « ترونغ » و « تو » تحديا تحت سقف معبد « هو كو » ، ولكن زوجهما لم يستمر الا شهراً واحداً .

(١٨) غازل « تا كون » فتاة مشغولة بالنسيج ، اسمها « توا » فالقت مكوكها في وجهه .

(١٩) أمر الامبراطور (هان فو دي) ابنته أن تقذف بكرة من برج على خطابها المجتمعين في أسفل البرج ومن نجح في الاستيلاء على الكرة فهو مقبول .

(٢٠) أرسلت « ونه » عريضة الى الامبراطور تلتمس فيها أن تحبس وتعاقب بدلا من أبيها . أما « لي » فقد باعت نفسها لانقاذ أبيها .

(٢١) بيت الــــدعارة .

(٢٢) امرأة باعت تشارة خشب ، مؤكدة أنها نحاسة ، لشاب آخر أعطاها كومي مرآ ، وهو يزعم انــــه خيار .

(٢٣) اشـــارة الى الأب .

(٢٤) اذا قسمنا (ليش نيت) حصلنا على اليوم الثاني عشر الهرب في ساعة « موت » .

□ ■ □

من الكتب

مذكرات بابلو نيرودا

« أشهد أنني قد عشت »

أديب عزت

على امتداد العواصم ، واختلاف البلدان ، وفي مختلف أقطار هذا العالم ، يرحل يوميا عن الحياة الى القرية التي لا عودة منها ، كما يقول ناظم حكمت عن الموت ، يرحل أناس كثيرون ، وقلما يمضي يوم ، ينقضي أسبوع ، يمر شهر ، ولا يرحل عن الحياة أناس ، بل أنه في بعض الاحيان يأخذ الموت عشرات ومئات بل وآلاف الناس في كوارث جماعية كالزلازل أو انهيارات مناجم . أو ٠٠ أو ٠٠ ويكون هذا الموت موتاً طبيعياً ، يحمل صفة الكارثة ، ومع الايام تندمل ذكرياته ، يذهب صداه ، وتبقى بشكل أو بآخر الجراحات التي يتركها ، الخراب الذي يخلفه . عن أن رحيل كاتب حقيقي ، موت شاعر مجيد ، مناضل كبير ، يترك ، ودائماً يترك الصدى الاكبر ، الحزن الأعمق والأسى الأشمل والأعم ، وكثيراً مـا تشعر الانسانية ، كثيراً ما يشعر الانسان في اي بلد كان لـدى فقد شاعر مناضل ، كاتب كبير ، مناضل جيد ، بأنه انما فقد صديقاً عزيزاً ، انساناً غالياً ، ويهمه شخصيا وكذلك تشعر الشعوب ، فتصدر عن ذلك الشاعر أو الكاتب كتب ، وتنشر دراسات وتستحضر ذكريات في شتى عواصم العالم ، وكثيراً ما تنشر ملصقات عنه ، صور له وتضيء على جدران بيوت يهتم أهلها بالثقافة والأدب ، وثمة لا ريب على جدران بيوت كثيرة في وطننا وفي العالم ٠٠ والى جانب اللوحات مساحات جدارية تشع عليها صور غيفارا أو هيمنجواي ، لوركـا أو نجيب محفوظ ، ناظم حكمت أو ٠٠ والى



● بابلو نيرودا ●

جانب كل ذلك فان ثمة عدداً كبيراً من التماثيل لشعراء وأدباء تضيء في ساحات هذه العاصمة أو تلك من بلدان العالم .

وفي مثل تلك الحالة ، الحالات ، فقط ، يندحر الموت ، موت الشاعر أو الكاتب ،

أو المناضل ، تستمر حياته خالدة في الحياة ، ويظل يعيش ويحيا رغم رحيله يسير في شوارع الناس ، يدخل الى بيوتهم ، ويضيء ، يتوهج ملء كل حياتهم ، ويتدحرج موته ، يتوقف ، ينهزم ، يفسح المجال أمام استمرار الحياة أفكاراً وحضوراً وتواجداً كما حدث عند استشهاد لوركا ، عند رحيل ناظم حكمت ، عند انتحار هيمنجواي وماياكوفسكي ، فالانسان كاتبا كان أم شاعراً أم قائداً ، عندما يلتزم بالشعب وبالانسان ، وبالمستقبل الاجمل للناس ، ويكافح من أجل هذا المستقبل فانه لا يموت يموت ويفنى جسداً ، لكنه يستمر في العيش ، وفي الحياة فكراً ومعطيات ، ويظل يرفرف فوق وطنه وفوق العالم مثلما الصوم والنسمة ، كما يقول مالك حداد ، ولا يموت ، لا يستطيع أن يموت كما يقول بوتيف الشاعر البلغاري الشهيد .

وقد مرت أيام ، انقضت شهور ، وستمر أيام ، وتنقضي شهور ، وتنصرم سنون ، على رحيل الشاعر التشيلي بابلو نيرودا ، ومثلما ظل الى الآن حياً ، أفكاراً وأشعاراً وحضوراً في الساح الثقافي عبر العالم ، فانه كذلك سيبقى كما بقي خالداً ماياكوفسكي واللورد وهيمنجواي ، وكل الذين عاشوا في هذه الحياة ، الرحلة ، وكانت حياتهم،وجودهم عملا وأعمالا واضاءات على دروب الانسان والمحبة والمستقبل الأكثر جمالا وعدالة وحرية وحياة .

والى جانب العديد من الدراسات والمقالات التي نشرت في وطننا وفي العالم ، والتي تناولت حياة وكفاح نيرودا فقد صدر حديثاً كتاب جيد يعتبر مرجعا لدراسة أفكار وحياة وكفاح نيرودا ، ويحمل الكتاب اسم « مذكرات بابلو نيرودا أشهد أنني عشت » والكتاب مترجم عن اللغة الاسبانية ، وقام بترجمة الكتاب الى اللغة العربية د. محمود صبح ويقع الكتاب في « ٥٠٩ » صفحات من القطع الكبير وعنوانه الاصلي هو : « بابلو نيرودا ، أعترف بأنني قد عشت ، مذكرات Pablo Neruda Conrfese Quehe vivide, memorias وقد صدر الكتاب أول ما صدر عن دار النشر « سيكس بارال Editorial seix Barral, S. A. » وتم طبعه في برشلونة بتاريخ ٢٣ آذار ١٩٧٤ أي بعد مضي ستة أشهر على وفاة الشاعر ..

ويشرح د. محمود صبح الجهود التي بذلها في ترجمة الكتاب فيقول

« لقد شرعنا بترجمة هذه المذكرات في منتصف شهر أيار من عام صدور الكتاب وقمنا بتعريبهـا على مرحلتين ، الاولى ترجمـة حرفية استغرقت ثلاثـة أشهر ، والثانية ، تعريب مع المحافظة على النص الأصلي وذلك بصيغة الترجمة الحرفية صيغة عربية جملة جملة ، ومراجعة النص الاصلي في الوقت نفسه ، وقد استغرقت هذه المرحلة أربعة أشهر » كما يستطرد قائلا :

لقد وضعنا نصب أعيننا منذ أن بدأنا بترجمة هذه المذكرات الى أن أنهيناها ، الحديث النبوي الشريف :

« ان الله تعالى يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

وبيت المتنبي :

« ولم أر في عيوب الناس شيئا　　　كنقص القادرين على التمام »

وهو يرجو من القارىء

« أن يضع نصب عينيه ، حين يقرأ هذا الكتاب ، بيت أبي تمام :

« وعين الرضا عن كل عيب كليلة　　　ولكن عين السخط تبدي المساويا »

وأود أن أقول هنا بادىء ذي بدء بأن المترجم كان في غنى عن هذه المقدمة الرومانسية ، اذ أن الكتاب يحمل من الثراء والجودة ما يستطيع به وحده أن يقدم نفسه للقارىء ، دون مقدمات . ولا ريب أن الذين يقرأون بيرودا ، أو يهتمون به هم على مستوى أكبر من استصغارهم كقراء بمقدمة تريـد أن تعتذر عن تقصير في الوهم ، وهم أيضا على مسافة أبعد من الرجـاء « نرجو من القارىء أن يضع نصب عينيه حين يقرأ هذا الكتاب » وشرح الفارق لهم بين عين الرضا .. وبين السخط والاستشهاد على ذلك ببيت شعر لأبي تمام .. ولكن المترجم أراد لهذه الرومانسية في العلاقة بين المترجم والقارىء أن تكون بطاقة يتوجه بها الى قراء الكتاب الذي ترجمه وبذل في ترجمته جهداً ملحوظاً ولعله يؤمن بهذا الأسلوب العاطفي .. وهو على أية حال أسلوبه في تقديم ما يترجم .. و .. المهم .

يتحدث نيرودا في الفصل الاول من فصول هـذا الكتاب عن ذلك العالـم الذي ولد فيه وترعرع ، وشب ونما •

« انه لعالم شاقولي ، أمـة من العصافير ، حشد من الاوراق .. تمش بحذر ، أحدش الرقبة المكشوفة ، عنكبوت هائل ذو شعر أحمر يرمقني بعينين ثابتتين ، بلا حراك ، كبير في حجم سرطان ، عقرب مذهب ينفث نحوي سمه المشتق ، بينمـا ينحني قوسه القزحي المشع مثل برق خاطف •• حـين أمـر أجتاز غابة من شجر السرخس أكثر علواً من قامتي • تـدع أن يساقط عليّ ، فوق وجهي المشرئب ، ستون دمعة تهمي من عيونها الباردة الخضراء ، ومن خلفي تظل مراوحهـا ترتعش لمدة طويلة ، ثمة جذع متآكلة : ياله من كنز !• ذات الفطر الأسود و الأزرق قدمها اذاناً ، نباتات طفيلية حمراء قد أطعمتها بالجواهر والحلي ، نباتات كسلى أخرى أعارتها لحاها وينفجر ، سريعا ، ثعبان يطلع من أحشائها المتآكلة ، كمـا انبثاق النفس ، كما لو أن الروح هربت من جذوعهـا الميتة ، وهناك بعيداً ، كـل شجرة انتحت مكاناً قصياً مبتعدة عن نظيراتها •• تميس فوق بساط الدغل المكتوم ، وكل ورقة سواء أكانت هيفاء أو مكتنزة أو ملساء أو ورقاء لها نمو مختلف وشكل اخـر كما لو أن مقصاً ذا حركة متبدلة قـد قصها فصيلها بعضها ليس كبعض •• ثمـة غدير ، الماء الشفاف من تحت ينزلق فوق الحجر الأغبر واليشب ، تطير فراشة نقية كنقاوة الليمون ، تتراقص بين الماء والنور ، تحييني عن قرب الرياحين وهي تنحني لي برؤوسهـا الصغيرة الصفراء ، وهناك في الأعالـي ، مثل قطرات فصدت مـن الشرايين ، تتموج زهور الكوبهيوية الحمراء ، الاحمر منهـا هـو زهـر الدم ، والابيض منها هو زهر الثلج ، قد شق السكون ثعلب سريع فاهتزت الاوراق بيد أن السكون هو ناموس هذه الأوراق •• قلما يسمع صراخ بعيد لحيوان متململ • رجيع وخاز لعصفور مختبيء الا لماماً ، قلما يوشوش عالـم النبات الا قليلاً ، قليلاً الى أن تهب زوبعة فتجعل موسيقى الدنيا كلهـا تتجاوب ، مـن لا يعرف الغابـة التشيلية ، فهو لم يطأ هذا الكوكب الارضي ، من تلك الاراضي ، من ذاك الطين ، من ذاك السكون ، خرجت أنا لأسير ، لأغني عبر الكون ••

ومن الذكريات الشعرية الجميلة التي يتحدث عنها الشاعر في كتابه ، ذكــريات المطر ·· فهو عندما يشرع بالكلام عن أيام طفولته وأعوامها يقول ·

« المطر كان لي الشخصية الوحيدة التي لا أنساها ، مطر القطب الجنوب العريض الذي يهطل مثل الشلال من قطب بولو polo ينحدر من سماء « كابودي هورنوس » حتى سماء الثغر ·· في هذا الثغر ، أو فرونتيرا بالنسبة لوطني ، ولدت للحياة ، للأرض ، للشعر والمطر ··

كانت السماء تمطر خلال شهور بكاملها ، أعوام بأسرهـا كان المطر يتدلى خيطاناً كأنها ابر طويلة من البلور يتكسر عـلى أسطحة المنازل ، أو أنـه يستحيل أمواجاً شفافة تلطم النوافذ ، وكانت كل دار كأنها سفينة لا تبلغ الميناء الا بشق الأنفس والجهد الجهيد في ذلك المحيط الشتائي ·

لقد كنا نتوجه الى المدرسة عبر الدروب نقفز الحصى من حجـر الى حجـر ، متعرضين للبرد والمطر ، الرياح تتخاطف المظلات ، الماطرات « الرشكوتات » كانت غالية جداً ، ولم تستهوني القفازات ، وكانت الاحذية تبتل بالماء ، سوف أذكـر دائماً الجرابات المصمحة وهي تجفف قرب الموقـد وكثيراً من الاحذية وهـي تنفث بخاراً يتقطر ، كأنها قاطرات بخارية صغيرة ، ثم تأتـي الفيضانات ، التي كانت تجرف القرى والمساكن حيث كان يعيش أكثر الناس فقراً ، الى النهر ، كذلك كانت الأرض تهتز راجفة ، أحياناً أخـرى ، كانت تطل من سلسلة الجبال قرعة نور رهيب : البركان « بايما » كان يستيقظ ·

والدي هنا من بلدة « بارال » حيث ولدت أنا هناك ، في وسط شيلي ، تنمو الكرمة ويكثر النبيذ ، من غير أن أذكر ، دون أن أعرف اني كنت نظرت اليها مرة بعيني ، ماتت أمي السيدة (روسيابازو لتو) · أنا ولدت في الثاني عشر من شهر تموز « يوليو » من عام ١٩٠٤ بعد شهـر في آب هلكت أمي بمرض السل ، أمـي لم تعد توجـد · »

ويتحدث نيرودا في هذا الفصل أيضاً عن والده فيقول .

« كان سائق قطار صابورة ، فلائل هم الذين يعرفون ما هو قطار صابورة في المنطقة الجنوبية ذات الزوابع الهائلة ، تجرف المياه القضبان الحديدية ان لم يكن قد وضعت لها فواصل وحجيرات بين الروافد ، ولذلك فانه يجب أن تستخرج الصابورة من المقالع في قمم ثم يقلب الحجر الصغير الى العربات المستوية السطوح في القطار ، قبل أربعين سنة كان سائقو قطار من هذا النوع يجب أن يكونوا عمالقة أشداء ، أما أجور الشركة فقد كانت بائسة جداً ، وما كان يطلب من الذين كانوا يريدون العمل في القطارات الصابورية أن يبرزوا شهادة بلا سوابق « لا حكم عليه » ، والذي كان يسوق القطار ، ليس الا ، لكنه كان قد تعود على الأمر والطاعة ، فهو أحياناً يأمر وأحياناً يطيع ، ولطالما أخذني معه ، كان الرجال هناك يقتلعون الاحجار في منطقة « إبورو » التي هي القلب البري للثغر والتي كانت مسرحاً للمعارك الرهيبة بين الاسبان و لاراوكانيين ٠

كانت الطبيعة هناك تمنحني شيئاً من النشوة ، وتبعث فيّ شيئاً من الثمالة ، لشد ما كانت تجذبني العصافير ، الخنافس ، بيوض الحجل ، وكم كان صعباً العثور عليها خبيئة بين الفجاج والشقوق ، قاتمة اللون براقة المحيا والبشرة ، لونها كان شبيهاً بلون ماسورة البندقية ٠٠ »

ولعل قراءة هذه السطور من مذكرات نيرودا تطرح سؤالاً .

كيف كانت العلاقة ٠٠ علاقة الشاب الصغير ، الفتى المتطلع ، والذي أصبح فيما بعد واحداً من أكبر شعراء العصر ٠٠ مع أولئك الرجال الذين يقتلعون الاحجار والذين « لطالما أخذني والدي معه » الى أماكن عملهم وكفاحهم من أجل اللقمة والحياة ؟

يقول نيرودا في مذكراته عن تلك الرابطة التي كانت تجمعه اليهم ، معهم

« ان استكشافاتي هذه كانت تثير حب الاستطلاع في نفوس الشغيلة وسرعان ما أخذوا يولون اهتماماً بهذه المكتشفات ، فما ان يسهو والدي أو يغفل حتى ينطلقون الى الغابة البكر ، وكانوا يعثرون لي على كنوز غريبة عجيبة طبعاً ، بمهارة وذكاء وقوة تفوق ما كان عندي من هذه المواهب ٠ »

وفي مقطع آخر يحكي نيرودا ، قصة واحد من أولئك العمال الذين غالب ما تكون حياتهم هي ثمن الحصول على الأرغفة وفرح الأطفال في عالم قاس لا يرحـم ، وإذا كان الشاعر الفرنسي جاك بريفير يقول في قصيدة له عن عامل من زماننا .

« الشمسُ في كبد السـماء
سـاطعةٌ
مشرقـةٌ
جميلـةٌ
وفجـأة :
أمـام بـاب المعمـل
وقف العـامل
نظـر الى الشمس الحلـوة
وقـال :
قولي أيتها الشمس الساطعة الجميلة :
أليس من المؤلم إعطاء يومٍ مشرقٍ ساطعٍ آخر
الى رب العمـل .. »

وإذا كان ناظم حكمت يقول عن ظروف العمل اللا إنسانية ، في قصيدة له

« المطـرُ :
يهطـلُ بغـزارة
يهطـلُ :
والريـحُ
تعصف بالشجر والبيوت والناس والدروب
وفي غرفـة بـلا ستائـر
وملؤهـا الصقيـع
استيقظ الفتى مـذعورا
فقـد كانت صفارة المعمل تدوي وهي :
لا ترحـم أقـل تاخيـر .

وإلى جانب النهارات الجميلة الساطعة التي تذهب هدراً ، وتضيع من أجل الجبن وجشع أرباب العمل ، وإلى جانب البيوت البسيطة الحزينة ، التي تمتلىء بالصقيع وظروف الحياة اللا إنسانية ، والتي يستيقظ فيها العمال مسكونين بالذعر خوفاً من أن يتأخروا دقائق بعد أن دوت صفارة العمل .. ثمة أيضاً من يلقون حتفهم ببشاعة ، ويسمهم يفجع خبزهم وخبز أطفالهم

« من بين هؤلاء الرجال كان ثمة رجل اسمه « مونجه » ، كان والدي يقول عنه أنه ضارب سكاكين خطير ، وكان له في وجهه لأسمر خطان كبيران ، أحدهما كان عبارة عن ندبة شاقولية حددتها في خده حد سكين والخط الآخر كان موسم ابتسامته البيضاء ، أفقية الطيف مفعمة باللطافة والمكر معاً ، « مونجه » هذا كان يجلب لي زهور شجر « الكوبيهوية » البيضاء ، عناكب كثيفة الشعر ، أفراخ الحمامات المطوقة ، وذات مرة عثر لي على ما هو أكثر خلباً للأبصار ، أحضر لي جُعل شجر « الكوبيهوية » والقمر ، لست أدري ان كنتم قد رأيتموه ذات مرة ، فأنا لم أره الا في تلك المرة ، كان برقاً يرتدي قوس قزح ، لقد كانت أنواره ذيله وقشرته تخطف الأبصار بالأحمر والبنفسجي والأخضر والأصفر ، ثم فرّ من بين يديّ حين لم يكن معي مونجه لكي يعود فيلتقطه لي ، ما استطعت قط أن أبرأ من تلك المشاهدة لحلاية ، ولا نسيت أبداً ذاك الصديق ، لقد قص عليّ أبي حكاية موته ، لقد وقع من القطار وهوى متدحرجاً في بادىء الأمر ، فتوقف القطار ، لكن كما كان يروي لي أبي ، ما عثروا الا على جثة هامدة وكيس من العظام . »

ويتحدث نيرودا عن مرحلة الدراسة الاولى ، والمعاناة والعذاب على درب تحصيل العلم وسط ظروف قاسية من الفقر .

« ها هو ذا عام ١٩١٠ يصل الى « تيموكو » في هذا العام الذي أذكره دائماً دخلت الى المدرسة ، كانت عبارة عن دارة كبيرة فسيحة ذات قاعات غير متناسقة ، وسرداب تحت الأرض معتمة ، ومن هناك من علو المدرسة كان يلمح في الربيع ، نهر كاوتين المتعطف اللذيذ وهو يصافح ضفافه العامرة بأشجار التفاح البرية . كنا نهرب

من الـدروس لكي نغطس أرجلنـا في الماء لعرات الـذي يترقرق فوق الأحجـار الصقيلة البيضاء ،

لكن المدرسة كانت حقلاً لمجالات عديدة بالنسبة لأعوامي الستة ، فكل شيء كان له احتمال المجهول ، مصير الفيريم ، الـذي ما تركوني أدخله أبداً ، كـان مليئاً بأدوات بهرة ، بأنابيب معوّجة ، بأوان كثيرة ، المكتبة كانت بشكل دائـم مغلقة أبوابها ، ما كان أبناء الرواد يتذوقون المعرفة والعلم ، بيد أن القبو أكثـر الأماكن سحراً وروعة ، ففيه كان يخيم السكون وتسود العتمة ، وهناك كنا عـلى ضوء الشموع نلعب لعبة العسكر واللصوص ، فكـان العالمون يربطون الأسـرى بالأعمدة العتيقة ما زلت حتى الآن أشتم رائحة الرطوبة ، رطوبة مكان محصور ، رطوبة جدث ، رطوبة كانت تفوح من قبو مدرسة « تيموتو » ٠

كنت آخذ بالنمو جسماً وعقلاً ، وراحت تثير اهتمامي الكتب وراحت تجول روحي عبر منطق الحلم في حماسة بوفالوبيل ، Buffalobill وفي رحلات سالغاري Salgari أما أوائل الحب النقيـة جداً فقد كـانت تفيض في رسائل موجهـة الى «ملانك ويلسون » وكانت هذه الفتاة هي ابنة حداد البلدة الشهير ، وبناء عـلى طلب أحد الفتيين التائهين في حبها كنت أكتب باسمه هذه الرسائل الغرامية اليها ، لم أعد أذكر كيف كانت هذه الرسائل ، لكن ربما أنها باكورة أعمالي الأدبيـة ، إذ أنه ، ذات مرة ، سألتني زميلتي الفتاة المعنية عما إذا كنت أنا هو من كان يصوغ لها هذه الرسائل الغرامية التي كان ينتحلها عاشقها حين يحشرها في يدها ، ما كنت لأجرؤ على انكار أعمالي الأدبية ، وبتلكؤ أجبتها أن أجل ، إذاك ناولتني سفرجلة ، لم أشأ أن آكلها ٠ فاحتفظت بها وكأنها كنز ثمين وهكذا وقد احتجت عن قلبها صاحبي ، حللت موضعه فمضيت أدبـج لها رسائل غراميـة لا تنضب ولا تنتهي ورحت أكنز سفرجلة إثر سفرجلة ٠٠

وتمضي الأيام ٠٠ ومع الأيام التي تمر ، الشهور التي ترحل ، والسنوات التي تنقضي يمضي الشعر قدماً في عالم المعرفة ، في نهر الكتب على غير هدى أو ترتيب مثل بحار يبحر في الخضم وحده ، من كان ليرتوي أو يقنع : « ينهي للقراءة

في أثناء الليل وأطراف النهار ، عثرت على الشاطيء بميناء « بورتوسابيدرا » على مكتبة تابعة للبلدية وعلى شاعر أصيل هو السيد « ألفونسو وينز » فكبرتي وأكبر في نهمي الأدبي ، « أفقرأتها جميعها ؟ » كان يقول لي ، وهو يناولني كتاباً جديداً لـ « .. بارغاس بيو » أو لـ .. إيبسن أو لـ .. روكامبل ، كنت ألتهم كل شيء دون تمييز كما النعامة .

وفي سطور أخرى يكتب نيرودا ، أناشيد عرفان ، يقدم بالحرف والكلمة الحساوة جميلة ، اعترافاً انسانياً ، ولا ينسى من قدم له ذات يوم وردة ، أو أغنية أو كتاباً فيذكر ذلك المطاء ، يمجد « الانسان » الذي مد ذات يوم يداً تحمل ورداً ، تعاطفاً ، محبة ، فيقول :

« في ذات الوقت وصلت الى « تيموكو » سيدة طويلة القامة ، ترتدي ملابس طويلة ، فضفاضة ، تنتعل حذاء ذا كعب واطيء قصير ، انها المديرة الجديدة لمدرسة الاناث ، قدمت من مدينتها الجنوبيـة ، من ثلوج « مغاياليس » تدعى غابرييلا ميسترال كنت أنظر اليها وهي تجتاز شوارع قريتي بأثوابها السابغة الفضفاضـة فكنت أخشاها ، غير أنه حين قابلتها وجدتها فتاة طيبة ، كانت تتألق أسنانهـا البيضاء في وجهها الملوح الذي يسوده الدم الهندي كما يسود في دن « تاراوكاني » جميل ، حين تبتسم ابتسامة عريضة سخية تضيء المكان . ما كنت لأكون خليلاً لها ، لأنني كنت بعد صبياً هياباً ، مغرقاً في التفكير والتأمل ، رأيتهـا من بعـد مرات قليلة وفي كل مرة أراها ، كنت أخرج وأنا أحمل كتباً تهديها إلي ، مجموعة من الروايات الروسية تعتبرها في أفضل وأجمل ما في الأدب العالمي ، أستطيع القول أن « غابرييلا » قـد أربكتني في هذه الرؤية الجـدية الرهيبة الفظيعة ، رؤيـة الروائيين الروس وأن « تولستوي » ودوستويفسكي وتشيخوف ، كانوا الأثيرين لدي وما زالوا يرافقونني . »

واذا كان هناك شاعر فرنسي كبير يقول :

« كلنـــا اخــوة جففت ثيابنـــا
أشــعة شمس واحـــدة . »

واذا كان هناك شاعر انساني كبير يقول في رسالة الى ولده

« ثـق في الحب وفي الأرض وفي البحـر
ولتمنـح ثقتك قبل كـل شيء .. للانســان
امنح حبك للسحابة والآلة والكتاب
ولكن امنح حبك قبل ..
كـــل شــيء !
للانســـــان . »

فان نيرودا يؤكد أيضاً وأيضاً في كتابه هذا ، على أهمية الايمان بالانسان ، الانسان الحميمي الذي يكون النور عندما يدلهم الظلام ، الواحة في الصحارى ، الفرحة في الحزن والأسى والجراح ، والذي أبـداً يضيء قنديله ، يوقد ناره ، يفتح بيته للمتعبين والحزانى ..

ويورد نيرودا قصة ايمان بالانسان .. قصة ظلت في ذاكرته أعواماً وأعواماً

« دعيت ذات يوم لمشاهدة درس الحنطة بالأفراس ، كان البيدر في مكان عال بالجبال بعيداً جداً من القرية ، استهوتني مغامرة أن أمضي وحيداً أستجلي الدروب وأتبينها بين سلسلة الجبال تلك ، وان تهت فلا ريب أني سأجد من يغيثني ويحميني ، ابتعدنا أنا ومطيتي عن « باخو ،مبريال » واخترقنـا حاجز النهر ، كـان المحيط الهادي هناك يمد عقاله فيلطم في تواتر وكر وفر الصخور وأحراج ربوة (ماولة) آخر تلة على الشاطيء ، شاهقة سامقة جداً ، ثم انحرفت عبر ضفاف بحيرة «بودي» تلاحم الأمواج كان يقذف قواعد التلة بضربات هائلة عنيفة ، كان علينا أن ننتهز تلك الفرصة حيث تنحسر احدى الموجات وتتقهقر لتستعيد أنفاسها ، لنعبر في ضيق شديد المضيق بـين الربوة والمـاء ، قبـل أن تأتي موجة جديـدة تهرسني ومطيتي بمهراس التلة المسننة الحادة ..

عند الغروب وقد انقضى الخطر ومضى الحذر وبدت تتجلى صفيحة البحـيرة الزرقاء الساكنة كانت الرمـال تنجرف بعيدة عـن الشاطيء حتى مصب بحـيرة « تولبتن » ان هذه الشواطيء التشيلية هي صخرية ناتئة ولكنها سرعان ما تستحيل

أشرطة رقيقة عديدة تسمح للعابر أن يطأها لمدة نهارين وليلتين تحته الرمال وإزاءه زبد البحر ·

انها سواحل تبدو أبدية غير منتهية ، كأنها على امتداد تشيلي خاتماً لكوكب ، خاتما محدقاً تضغط عليه بحار الجنوب الصخابة مدرجاً تبدو كأنه يدور عبر سواحل تشيلي الى ما هو أبعد من القطب الجنوبي ··

على جوانب الطرقات كانت تحييني أشجار البندق ذات الأغصان المورقة الخضراء بامسة اشراقه بجميع أصنافها ما كان منها مرصعاً بعناقيد فاكهة وما لم يكن ، اشجار بندق تبدو كأنها قد طليت ورسمت فبرزت حمراء فاتنة في هذه الفترة من السنة ، سراخس جنوب تشيلي الضخمة سامقة جداً الى درجة أننا ، أنا وحصاني كنا نسير تحت أغصانها دون أن نستطيع لمسها · وإن دنت أحياناً فيمس رأسي ، ما رأيت أحداً إلا في آخر الشوط ، صيادين غريبين ، في ذلك المدى حيث يلتقي المحيط والبحيرة ، يتعانقان أو يتشاحنان · » ويتابع الشاعر وصف عدد من المشاهد حتى يقول ·

« أدركت أنني قد تهت ، الليل والغابة اللذان كانا لي البهجة والسرور ، ها هما يتهددانني ويتوعدانني ، يملآني رعباً وهلعاً ، طارق وحيد ، فجأة ، تقاطع وإياي في وحدة الطريق المدلهمة حين تقربنا توقفت فرأيته فلاحاً من هؤلاء الفلاحين الحفاة العراة ، ليس له الا عباءة بالية وحصان ضامر واحداً من هؤلاء الرعاة من الذين يطلعون من الشاطيء ، وقصصت عليه ما جرى لي ·

أجابني بأني لن أبلغ ليبدر تلك الليلة ، هو كان يعرف المكان كله موضعاً موضعاً وزاوية زاوية ، يعلم علم اليقين أين يدرسون القمح ، قلت له اني لا أريد أن أقضي الليلة في الخلاء ، وطلبت منه أن يرشدني الى موضع آوي فيه الى أن يبزغ الفجر ، فأشار لي في ايجاز بأن أمضي في درب متفرع عن الطريق مسافة فرسخين ···

« سوف ترى من بعيد بيتاً خشبياً كبيراً ذا طابقين » قال لي ·

ـ أهو فندق ؟ سألته ·

ـ كلا أيها الفتى ، لكنك سوف تلقى الترحاب والرحابة ، انهن ثلاث

فرنسيات يعمل في تجارة الاخشاب ، ويقطن هناك منذ ثلاثين سنة ، انه طيبات المعشر مع الناس جميعا ، ولسوف يأويك ويرحب بك . شكرت اصلاح على نصائحه الشحيحة المحترفة هو ابتعد يحث به حصانه المقوس ، وأنا سلكت الدرب الضيق كأنني نفس في جوى وأسى ، هلال بكر أبيض محفوف كقلامة ظفر حديثة القص كان يشرع بالصعود عبر السماء .

لمحت عند التاسعة ليلا أنوارا ، لا متدوحة في أنها منبعثة من منزل ، أجهدت حصاني قبل أن تحرمني الاقفال والمفاتيح من دخول ذلك المعبد ذي الأعاجيب ..

اجتزت حواجز الحمى ، متجنبا جذوعاً مقطوعة وجبالا من نشاره ، وصلت الى الباب منه الى رواق أبيض لتلك الدار الضخمة في تلك الأنحاء المنفردة المتوحدة ، ماريت قرعت الباب ، بادئاً في رفق ثم في قوة ثم عنف ، حين يئست وقد مرت دقائق رهيبة ، وظننت ان ما في الربع من أحد أطلت سيدة ذات شعر أبيض ، نحيلة ، في ثياب حداد ، تتفحصني بعيون صارمة ، ثم فتحت الباب بين بين ، كي تستقصي الطارق القادم في غير وقت .

من أنت وماذا تريد ؟ قال صوت لطيف ناعم ، صوت شبح .

لقد تهت في الغابة ، أنا طالب في مدرسة ، دعاني لحضور درس المنصة على البيدر آل « ايرنانديث » لقد أنهكني المسير ، لقد قيل لي أنك وأحتبسك فتالات للخير ، لست أبغي الا أن أنام في أي مكان وأن أواصل حين يطلع الفجر طريقي نحو حصاد آل « أيرنانديث » .

تفضل ـ أجابتني ـ لأنك في بيتك .

قادتني الى بهو معتم وهي بنفسها أشعلت قنديلين أو ثلاثة ، لاحظت ان القناديل جميلة من البرونز المذهب البهو يفوح برائحة الرطوبة ، ستائر كبيرة تنسدل على النوافذ العالية ، مقاعد مغطاة بأغطية تحفظها وتصونها مم ؟

كان ذلك البهو من عهد آخر ، صعب التحديد ومعلق كالحلم ، السيدة الساهمة الحالمة ذات الشعر الأبيض كانت تتحرك دون ان اتبين لها قدما أو أن أسمع لها خطوا ، يداها تلمسان شيئاً أو آخر ، مجمع صور ، مروحة هنا أو هناك داخل السكون .

تخيلت اني قد هويت الى قعر بحيرة وفي أعماقها أحيا ، مرهقا منهوكاً ، فجأة دخلت سيدتين طبق الأصل من التي استقبلتني ، كان الوقت متأخراً وكان ثمه برد شديد ، جلستا من حولي احداهما في ابتسامة حميمة ذات عبق عتيق والأخرى تنظر اليّ بعينين كئيبتين ، كعيني التي فتحت لي الباب بتمد الحديث كثيرا عن تلك الحقول النائية ، عن تلك الليلة المثقوبة بآلاف الحشرات ، المحترقة بنقيق الضفادع وغناء العصافير الليليه ، سألنني عن دروسي ، فاجأتهن حين لفظت على حين ترقع منهن اسم « بودلير » واستمرين حين قلت لهن بأني قد بدأت بترجمة أشعاره •

كان ذاك كشرارة كهربائية ، السيدات الثلاث المطفئات اشتعلن ، عيونهن المكروبة ووجوههن الصارمة ، كما أن لو أن ثلاثة براقع نزعت عن وجوههن ذات الملامح العتيقه •

— بودلير — هتفن ، لعل هذه هي المرة الاولى التي فيها يلفظ باسمه في هذه الاماكن المعزلة منذ أن وجد الكون لدينا هنا كتابه « أزهار الشر » Fleurs du Mal ليس من احد هنا يستطيع قراءه صفحاته لرائعة في هذه الاماكن على مسافة دائرة قطرها « ٥٠٠ » كيلو متر ، لا أحد يعرف الفرنسية في هذه الجبال •

اثنتان من لاخوات الثلاث ولدتا في أفينيون ••• الصغرى تشيلية المولد لكنها كذلك فرنسية الدماء طبعا ، جدودهن ، آباؤهن جميعاً ، ماتوا منذ زمن بعيد، هن الثلاث كن قد تعودن على المطر ، على الريح ، على نشارة الاخشاب ، على التعامل مع عدد قليل من الفلاحين البدائيين والخدم الاجلاف المتأخرين وعلى البقاء هنا في هذه لدار الوحيدة الموحشة وسط تلك الجبال المستنة الوعرة •

دخلت خادمة فهمست بشيء الى السيدة الكبرى • حينذاك خرجنا باشارة منها عبر دهاليز باردة جدا الى غرفة الطعام ، اندهشت وذهلت • في وسط القاعة، مائدةمستديرة بسماطين بيضاوين طويلين، مضاءة بشمعدانين من فضةملئتين بشموع مشتعلة ، كان الزجاج والفضة يلتمعان معاً على تلك المائدة المفاجئة-

اجتاحني حياء عارم ، كما لو أن الملكة « فيكتوريا » كانت قد دعتني الى وليمة في قصرها ، فقد جئتهن أشعث الشعر ، مغبر الثياب ، مرهق الجسد ، وهذه المائدة تبدو وكأنها تتوقع زيارة أمير ، وأنا على حالتي أبعد الناس عن أن اكون أميراً ، بالاحرى كنت ابدو وكأني راعي بغال برائحة كريهة ترك عند الباب قطيع ماشيته ودوابه •

مرات قليلة جدا أكلت كمثل هذه المرة ، عصيماتي كن معلمات في الطهي ، ورثن عن جداتهن وصفات فرنسا العديدة في فن الطهي والتطبيب •

على الرغم من أن التعب كان يغمض لي العينين على حين غرة ، فاني كنت أسمعهن يتحدثن عن أشياء غريبة كان فحى الاحوات الاعظم الاكبر هو التفنن في الطهي ، المائدة بالنسبة لهن هي ممارسة « ارث مقدس » ممارسة ثقافة لن يعدن اليها أبدا وقد عزلهن عن وطنهن الزمن الغبي والبحار الهائلة ، أراني كأنهن يستهزئن من أنفسهن ، سجلا غريبا •

ـ نحن عجائز معتوهات ـ قالت لي الصغرى •

خلال ثلاثين سنة زارهن ٢٧ عابرا قصدوا هذه الدار النائية ، بعضهم بعرض التجارة ، وبعضهم بهدف الاستطلاع وبعضهم كحالي بمحض الصدفة ، ما لم ير من قبل مثله البتة ، كان احتفاظهن ببطاقة عن كل واحد من زوارهن ، تاريخ الزيارة ، وجبة الاكل التي أعددتها في كل مناسبة •

ـ نسجل وجبة الاكل حتى لا نقدم منها ولا طبقاً واحدا ، فيما اذا عاد مرارنا من كان قد تذوق هذه الاطباق من قبل •

رحت لأنام فهويت على الفراش مثل كيس يصل في سوق ، عند انبثاق الفجر ، في العتمة ، أشعلت شمعة ، فاغتسلت ، ولبست ملابسي ، عندمـــا أسرج لي الحصان أحد الخدم كان النهار يأخذ بالطلوع والوضوح •

ما تجرأت على توديع السيدات الكريمات الشحيات اللابسات ثياب الحداد • في أعماقي شيء كان يقول لي أن ذلك كله حسا غريباً لذيذاً ، وانه ما كان لي أن أصحو منه حتى لا يتلاشى السحر وتضيع الرقة •

لقد انقضى على هذا الحديث أربعون سنـــة ، كان ذلك في مستهـــل فترة

مراهقتي فماذا جرى لتلك السيدات المفيات وكتابهن « ازهار الشر » في وسط تلك الغابة البكر ؟ ماذا حصل لزجاجات نبيذهن المعتق ، لمائدتهن البراقة المضاءة بعشرين شمعة ؟ ماذا كان مصير المناشر والدار البيضاء الضائعة بين الأشجار ؟

لا بد أنه طرأ ما هو أبسط شيء : الموت والنسيان ، ربما أن الغابة التهمت تلك الحيوات وتلك القاعات التي احتضنتني ذات ليلة غير منسية لكنهن ما لن يحين في ذكرتي كما لو كن في عمق بحيرة الاحلام الشفاف ..

مجداً وطيبا لهاته النسوة الثلاث الحرابى اللواتي صارعن بلا جدوى في وحدتهن القاسية لكي يصن لياقة عريقة ، كن يدافعن عما أتقنت صنعه أيدي أسلافهن ، أي : أواخر قطرات ثقافة عذبة لذيذة ، هناك بعيد ، في أقصى حدود جبال هي أكثر الجبال صلابة ووحدة في هذا العالم . »

ويواصل نيرودا الحديث في مذكراته عن ظروف الأسى وسمقى والكفاح وسط تلك الظروف في سبيل حياة أفضل ومن أجل الدراسة والتسلح بسلاح العلم والمعرفة في مواجهة الحياة والاعباء ، فيقول عن سني الدراسة

ـ حياة الطلبة في غرف الايجار خلال تلك السنين العجاف كانت جوعاً على جوع ، كتبت شعراً أكثر مما كنت كتبت من قبل ، لكنني كنت آكل أقل بكثير..

من تلك الغرفة بشارع « ماروري » انسحبت مثلما ينسل رحوي من صدفه ، ودعت ذيل السحماة ذاك كي أتعرف على البحر ، أي على العالم ، البحر المجهول هو شوارع « سانتياغو » التي ما كنت شاهدتها من قبل حين كنت أمضي غادياً أو رائحاً ، ذهاباً أو إياباً بين الجامعة العتيقة ، والغرفة الخاوية في دار تلك العائلة بشارع « ماروري » ..

كنت أدري أن مجاعاتي المتراكمة سوف تزداد في هذه المغامرة ، أكثر من مرة ، سيدات تلك الدار اللواتي لهن علاقة بعيدة بمنطقتي كي يبعثن بحبة بطاطا وبرأس بصل ، تنزل علي كرحمة من السماء ، لكننا ، لم يكن من ذلك بد ، الحياة ، الحب ، المجد ، التحرر ، كل هذه المغريات كانت تدعوني لالبيها أو هكذا خيل الي . »

وعن الشعر ومعاناة نيرودا مع الشعر وعن البدايات التي عاناها من أجل طبعة مجموعته الاولى يقول نيرودا .

« التجأت الى الشعر في سرعة الخائف الوجل ، كانت ترفرف فوق «سانتياغو» المدارس الأدبية الجديدة ، في شارع « مروري » رقم ٥١٣ ، انتهيت من كتابة ديواني الاول ، كنت أكتب قصيدتين ثلاثاً ، اربعاً ، خمساً في اليوم الواحد .

في عام ١٩٢٣ ، نشر ديواني الاول هذا « شفقيات » ، كي أدفع تكاليف الطباعة كنت أواجه كل يوم صعوبات جمة واحقق انتصارات عظيمة ، أثاثي القليل بيع ، الى دار الرهائن على عجل مضت ساعتي التي كان والدي قد أهداني اياها في وقار وجلال ، اذ أنها كانت ساعته الخاصة به ، ولحقت بالساعة بدلة الشاعر السوداء لقد كان صاحب المطبعة رجلا لا يرحم ولا يشفق اذ أنه بعد أن أصبحت الطبعة جاهزة والأغلفة ملصقة ، قال لي في نفس الحاسم : لن تأخذ منه ولا نسخة واحدة حتى تدفع لي قبل كل شيء التكاليف كلها » ، ساعم الناقد الونه Alone في سخاء بدفع ما تبقى علي من « بيسوس » فابتلعتها حلاقيم صاحب المطبعة ، وخرجت الى الشارع وكتبي على منكبي بحذاء مهترىء ممزق ، مجنونا من الغبطة والطرب ... » .

وكيف كان نيرودا ينظر الى الشعر ، ما الذي كان يريده من الشعر في تلك السنوات ووفقا لأي منظور انطلق يكتب ؟

وما هي الأرضية التي انطلق منها واية أفكار ، رؤى ، أهداف ، حملته على الكتابة معا لنستمع اليه يقول في كتابه ، يشرح كل ذلك :

« كان رأيي دائماً هو أن عمل الكاتب ليس لغزاً ولا هو بالمأساوي ، بل أنه على الأقل بالنسبة للشاعر ، عمل شخصي ، ذو منفعة عامة ، ان ما هو أكثر شبهاً بالشعر ، هو رغيف خبز أو وعاء خزفي أو حفر على الخشب مشغول في طراوة وحنان ، ولو أن الأيدي التي تصنع هذه التحف بليدة غير متقنة ، بيد أني أعتقد أنه ليس ثمة من صانع واحد يشعر كما يشعر الشاعر ، لمرة واحدة خلال حياته كلها ، هذا الشعور الثمل نحو أول خلق ابتدعته يداه .

وعن الظروف الاقتصادية والحركة السياسيه وأوضاع الحياة العامه التي كانت سائدة في تلك البلاد ، يتحدث نيرودا

« أثناء ذلك كانت الحياة تتبدل في تشيلي ·

مدوياً كان يعلو نداء الحركة الشعبية التشيلية وهي تبحث بين الطلبة والكتاب عن دعم أصلب وتأييد أمتن، من جهة أخرى ، كان الزعيم الكبير للبرجوازية الصغيرة أرتورو اليساندري بالما الديناميكي الديماغوجي ، فقد كانت البطالة وقلة الأعمال تهز مؤسسات النظام الرأسمالي . أنا في تلك الأوقات كنت أكتب في مجلة « وضوح » أسبوعياً ، كنا نحن الطلبة ندعم المطالب الشعبية وندافع عنها وكثيراً ما كنا نصطدم بالشرطة أثناء مظاهراتنا في شوارع سانتياغو ، فيهال رجال الأمن علينا ضرباً وتشتيتاً ، كان يصل الى العاصمة آلاف العمال المطرودين من أعمالهم في مناجم ملح البارود والنحاس ، لقد كانت المظاهرات وما يتبعها من حملات الاعتقال والاضطهاد تصبغ الحياة القومية للبلاد بطابع مأساوي ·

منذ تلك الفترة وعلى تناوب امتزجت السياسة في شعري وفي حياتي ، لم يكن ممكناً اغلاق الباب عن الحياة ، عن الفرح ، أو عن الحزن في قلبي ، قلب شاعر تشيلي ·

ويتحدث الشاعر في الفصل الثالث من فصول الكتاب عن الاصداء التي تركتها شهرته التي بدأت تنمو وعن ردود الفعل لدى الناس ، وعند الحركة الثقافية

« والحقيقة هي أنه ما أن حزت على شيء من الشهرة في مستهل شبابي ، حتى بدأ الناس ، يسألونني ان رأوني في أحد الشوارع أو أحد الاماكن « لكن ماذا تفعل هنا ؟ يجب عليك أن تذهب الى باريس » ويتحدث في هذا الفصل عن الذكريات وعن سفره الى « رانغون » ليعمل هناك في السلك الخارجي التشيلي وعن نمط الحياة وحياة الناس في عدد كبير من المدن والضواحي والقرى الهندية ··

وفي الفصل الرابع وتحت عنوان « اسبانيا في القلب ، يتحدث الشاعر عن عودته الى تشيلي وعن أول لقاء له مع الشاعر الاسباني الشهيد « فيديريكو غارثيالوركا » فيقول :

« سفر طويل عبر البحر دام شهرين أعادني الى تشيلي عام ١٩٣٢ ، هناك في تشيلي نشرت ديواني « حامل المقلاع المتحمس » الذي كان مبعثرا بين أوراقي، ونشرت كذلك ديواني : « مقام في الارض » الذي نظمته في الشرق ، في عام ١٩٣٣ عينت قنصلا لتشيلي في « بوينس إيرس » ، حيث وصلت في شهر آب .

لقد وصل الى هذه المدينة في الوقت نفسه تقريباً « فيديريكو غارثيالوركا » كي يدشن مسرحيته مأساة « أعراس الدم » لم نكن قد تعارفنا بعد ، فتم تعارفنا في « بوينس إيرس » وكثيراً ما كان الادباء والاصدقاء هناك يحتفلون بنا معاً ويكرموننا ، على فكرة ، لم تنقصنا بعض الحوادث ، كان لفيديريكو خصوم ، وكذلك كان لي أيضاً خصوم وما زال هناك لي خصوم كثيرون ، هؤلاء الخصوم يشعرون بأنهم مدفوعون غريزياً كي يطفئوا النور حتى لا يرى ، وهذا ما حصل في تلك المرة ، بما أنه كان هناك اهتمام لدى الناس لحضور حفلة هذا التكريم التي كان يريد اقامتها على شرفنا « نادي القلم » في فندق « بلازا » . قام أحدهؤلاء الخصوم أخذ يتصل بالناس هاتفياً كل يوم ليخبرهم بأن التكريم الذي سيقام على شرف لوركا ونيرودا قد ألغي ، وقد بلغ بهذا الخصم أو الخصوم الحد من الصفاقة أنهم اتصلوا بمدير الفندق وعملة الهاتف ورئيس الطهاة كي لا يشاركوا في الاحتفال ولا يعدوا الوليمة ، لكن هذه المناورة فشلت وانعقد شملنا أخيراً وحضر الاحتفال بما مائة من الكتاب الأرجنتينيين . » .. ويواصل نيرود في هذا الفصل الحديث عن الشاعر الاسباني ميغيل إيرنانديث وعن الحرب الاهلية الاسبانية ، وعن الجريمة التي حدثت في غرناطة ، جريمة اغتيال لوركا فيقول عن الحرب الاهلية « أما أنا فلقد عرفتها ، مليوناً من الضحايا الاسبان ! مليوناً من المنفيين الاسبان ! كان يبدو لي أن هذه الشوكة الدامية لن تمحى أبداً من ضمير الانسانية .

وعن اغتيال لوركا :

« كل شيء بدأ بالنسبة لي ليلة التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ ، كان يعمل شاب تشيلي لطيف ومغامر يدعى « بوبيّي ديملانه » متعهداً في السيرك الكبير « برثيه دي مدريد » ، صرحت له بتحفظاتي حول جدية هذه الألعاب «الرياضية» فأقنعني أن أذهب الى السيرك وأن أصطحب « غارثيا لوركا » معي لنتأكد من

أصدقاء هذا الاستعراض الجميل ، أقسمت « لوركا » واتفقنا أن نتلاقى هناك في ساعة محددة مناسبة ، كما سنقضي فترة ممتعة بالتفرج على تهريجات « ساكن الكهوف المبرقع » والمارد و نسناس الغابة الشرير ..

تخلف « فيديريكو » عن الموعد ، كان قد راح ليلقى حتفه ، لم أره من بعد هذا أبداً ، موعده كان مع مردة وسفاحين آخرين ، هكذا بدأت حرب اسبانيا التي غيّرت شعري ، لقد بدأت بالنسبة لي باختفاء شاعر . وأي شاعر . أبداً لم أر شاعراً مثله اجتمعت فيه اللطافة والعبقرية ، القلب المجنح والشلال الشفاف ، لقد كان العبقري المسرف في وحيه والهامه ، كان خلاصة أعمار اسبانيا وعهودها ، صفوة الازدهار الشعبي ، نتاجة عربية اندلسيا ينير ويفوح مثل أيكة ياسمين على مسرح اسبانيا ، كان كل هذا ، يا ويلتي لقد اختفى ذلك المسرح فأواه وآه .

ثم يشرح الشاعر ظروف طباعة مجموعته « اسبانيا في القلب » في الجبهة ، حيث تعلم الجنود صف حروف المطبعة ولأنه كان ينقصهم الورق وجدوا طاحونة قديمة فقرروا صنعه هناك ، لقد كان خليطاً غريباً ما صنعوه من القنابل المتساقطة في أجيج المعركة ، كانوا يقذفون بكل شيء الى الطاحونة من راية للعدو الى عباءة مدماة على الرغم من هذه المواد غير المتآلفة فيما بينها ، ومع قلة خبرة الأيدي الصانعة فقد خرج الورق بديعاً جداً . ان ما يحفظ حتى الآن من نسخ قليلة من هذا الكتاب تدهش بما فيها من وضوح الحروف والطباعة ، رأيت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في « واشنطون » بمكتبة «الكونغرس» موضوعة في واجهة زجاجية تعرض أكثر الكتب غرابة في زمننا .

ما أن طبع ديواني وجلّد حتى أخذت تتسارع هزيمة الجمهورية ، لقد امتلأت الدروب التي تؤدي الى خارج اسبانيا بمئات الآلاف من الرجال الهاربين ، لقد كان هذا النزوح أشد الحوادث ايلاماً في تاريخ اسبانيا ، وكان عملي القنصلي قد انتهى الى أن الحكومة التشيلية قررت خلعي من منصبي بسبب مشاركتي في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية ويتحدث نيرودا بعد ذلك عن حياته في باريس وصداقته مع اثنين من أعظم أدباء فرنسا وهما بول ايلوار

وآراغون ، وعن الكفاح المشترك مع الادباء والمثقفين الفرنسيين في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية .

وفي الفصل السادس يتحدث عن التزامه الحزبي وعمله في حل مشاكل المهاجرين الاسبان ، وفي الفصل السابع يتحدث عن المكسيك والأدباء والفنانين في ذلك البلد وينهي هذا الفصل بقوله :

ان المكسيك يعيش في حياتي مثل نسر صغير ضال يدور في عروقي ، ما من شيء سوى الموت يقدر على أن يطوي أجنحته فوق قلبي .

وفي الفصل الثامن يحكي عن استقالته من العمل في وزارة الخارجية ، وفرحه بموافقة وزارة الخارجية على تلك الاستقالة ، وعاد الشاعر الى وطنه ليجد الوطن كما كان :

« لم يكن البلد قد تغير أو تبدل ، أرياف وضيع نائمة غافية ، فقر مريع في المناطق . والناس المتأنقون يملأون ناديهم . و .. يجب على المرء هنا في تشيلي أن يتحزب في سبيل الفقراء ، في سبيل من هم بلا مدرسة وبلا حذاء » .

وعن وصوله الى مجلس الشيوخ في آذار ١٩٤٥ يقول :

« لقد اختارني هؤلاء الناس الذين هم بلا مدرسة وبلا حذاء نائباً في مجلس الشيوخ ، انني سأظل أفتخر مدى حياتي بأن الذين صوتوا لي هم آلاف من التشيليين يعيشون في أتعس منطقة بتشيلي : منطقة المناجم الكبيرة ، مناجم النحاس وملح البارود ، ولأن الشاعر اختار الدفاع عن قضية هؤلاء الناس الفقراء المعذبين الذين اختاروه ليكون صوتهم ذاته .

« لقد كانت خطاباتي عنيفة دوماً ، وكانت قاعة مجلس الشيوخ مليئة دائماً بالناس الذين يأتون ليسمعوني ، لكن بعد مضي وقت طويل على انتخابي وعضويتي طلب من المجلس طردي فطردت منه ووجه الامر الى الشرطة باعتقالي » .

ولكن الناس الذين أحبهم ، قاتل من أجلهم ، وكان صوتهم وفرحهم هم الذين حموه من الاعتقال وأحاطوه بدفء الحب والحماية والدفاع عن قضيته التي هي قضيتهم ، قضية حياة أكثر عدالة وحرية وحياة :

« كنت أبدل داراً بدار في كل يوم تقريباً ، في الجهات جميعهـــا كانت الأبواب تفتح كي تحميني ، كان ثمة دائما أناس لا أعرفهم يعبرون عن رغبتهم في ايوائي لعدة أيام ، كانوا يرجون مني أن أبقى عندهم ملتجئاً ولو لبضعـــة أسابيع ولو لبضع ساعات ، عبرت قرى ، حقولا ، مدنا ، مخيمات ، كذلـــك بيوت فلاحين ، مهندسين ، محامين ، عمال مناجم ، أطباء ، بحارة » وبمساعدة الناس ، وتخطيط الحزب يتم تهريب الشاعر الى الارجنتين ، من هناك باسم جديد وجواز سفر جديد يسافر الشاعر الى باريس ويتحدث عـن مساعـدات أرغوان وايلوار له في باريس ، وعن الوضع شبه السري الذي عاشه هناك ، وعن زيارة بيكاسو له في مخبأه وعن لقاءاته مع ايليا اهرنبورغ الكاتب السوفيتي المعروف ..

وفي الفصل التاسع يتحدث عن خروجه من باريس ، من المنفى حيث دعي لأول مرة الى الاتحاد السوفيتي بمناسبة احياء ذكرى بوشكين المئوية ، وينثر في هذا الفصل العديد من الافكار والذكريات عن مشاعره وهو في الاتحاد السوفيتي كما يسرد ذكرياته عن لقاءاته الكثيرة مع الشاعر ناظم حكمت .

« كنت على الدوام أزور في موسكو أو في الريف شاعراً كبيراً آخر ألا وهو الشاعر التركي «ناظم حكمت» ، وهو كاتب خرافي اسطوري . كانت حكومـة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنته خلال ١٨ سنة ، لقد اتهم « ناظم » بأنه كان يريد اثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية فأدانوه بكل عقوبات جهنم ، جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية ، كانوا يحكون لي كيف أنهم جعلوه يمشي على درجة الانهاك وعلى جسر الباخرة ومن بعد أدخلوه الى المرحاض حيث كان الغائط يعلو أكثر من نصف متر فشعر أخي الشاعر بالاغماء وخارت قواه ، كانت الرائحة الكريهة تجعله يتقزز ويرتعد ، عند ذلك فكر : لا بد أن الجلادين يراقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون أن يروني أتداعى ، يريدون أن يروني تعيساً بائساً ، فانبعثت قواه في أنفه وعنجهة ، وبـدأ يغني أولا في صوت حقيقي ، من بعـد في صوت أكثر علواً ، في النهاية شرع يغني بملء حنجرته ، غنى الأغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، أناشيد شعبه النضالية ، غنى كل ما كان يعرفه من غناء ، وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة

والعذاب ، عندما قص عليّ ذلك ، قلت له « يا أخي ، انك بهذا قد أجبت عنا جميعاً فلم نعد نحتار فيما نفعله ، فها نحن جميعاً معشر الشعراء نعرف متى يجب علينا أن تبدأ الغناء » ..

كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قساوة سادة تركيا الاقطاعيون .

ويتحدث نيرودا في هذا الفصل أيضاً عن زيارته للهند وعن زيارته الاولى للصين .

وفي الفصل العاشر يتحدث عن سيلان ، وعن زيارة جديدة للصين ، وعن عودته الى الاتحاد السوفيتي وعن علاقته مع عدد من الادباء السوفييت .

وفي الفصل الحادي عشر يتحدث عن حياته الشعرية وعن الشعر حرفة ، فيقول بأنه أبداً ما فكر من قبل حين كتب أوائل كتبه المفعمة بالحزن والوحدة، انه مع مضي السنين :

« سأجدني أنشد شعري في ساحات وشوارع ومعامل وقاعات ومسارح وحدائق عامة ، لقد جبت وجلت في انحاء تشيلي كلها ، أشر شعري بين أناس شعبي ..

ومن ايمانه الكبير بالشعر وموقف الشاعر يقول نيرودا شارحاً نظرته للشعر.

« عليه أن يجوس الدياجير حتى يلتقي عيني الرجل ، بعيني المرأة ، بهؤلاء المجهولين الذين يعبرون الشوارع ، الذين قد يحتاجون في ساعة شفقية أو في ليلة ذات نجوم الى بيت شعر واحد على الاقل ، ان هذه الزيارة المباغتة تعادل كل ما قرأناه ، كل ما تعلمناه ، لا بد لنا من ان نصنع ونعيش بين من لا نعرفهم .

كي يقطعوا عما قريب ثمار أشعارنا من الشارع ، من الرمال ، من الأحداق المتساقطة منذ ألف سنة وحتى الان في الغابة ذاتها » .

وعن زوجته وملهمته والانسنة التي وقفت أبداً معه و إلى جانبه تمنحه الوردة والابتسامة ، القصيدة وكوب الدم يقول نيرودا :

« ما تيلده أوروتيا .. زوجتي .. ان زوجتي لهي قروية مثلي أنا ، ولدت في بلدة بالجنوب تدعى « تشيليان » وهذه شهيرة من الناحية السعيدة ، بأوانيها

الفخارية الريفية ، ومن الناحية التعيسة بزلازلها الرهيبة ، لقد قلت كل ماأريد أن أقوله لها في ديواني « مائة أرجوزة حب » ربما تستطيع هذه الاشعار أن تدل عما تعنيه هي بالنسبة لي ، لقد جمعتنا الحياة والأرض .

مع أن هذا لا يهم أحداً غيرنا فاني أقول ، نحن سعيدان جداً ، نقسم وقتنا المشترك الى جلسات طويلة في شاطيء تشيلي المنعزل الوحيد ، اني لأهدي اليها كل ما أكتب وكل ما أملك ، ليس بالكثير لكنها سعيدة راضية .

لقد جلبت لي من الأرض برجليها ويديها وعينيها وصوتها الجذور كلها الزهور جميعها . ثمار السعادة الشابة جمعاء .

وبحزن عميق يتحدث نيرودا عن موت صديقه الشاعر الفرنسي «بول ايلوار» فيقول :

.. قد كان لي صديق كل يوم ، كفاف يومي وأني أفتقد حنانه الذي كان جزءاً من خبزي ، كفاف يومي ، لا أحد يستطيع أن يعطيني ما حمله معه لأن اخوته الفعالة كانت قيمة فاخرة من قيم حياتي .

يا برج فرنسا النقي ، اني لانحني فوق عينيك المغلقتين اللتين ما زالتا تعطياني النور والعظمة ، البساطة والاستقامة ، الطيبة والتواضع ، كل ما غرسته أنت في هذه الارض . » ثم يتحدث عن ذكرياته وصداقته مع الشعراء بيير ريفيردي وجيزي بوريرجا الشاعر البولوني وسومليوجورجي الشاعر الهنغاري وكواسمودو الشاعر الايطالي وبابلو الشاعر المشهور من البيرو وغابرييلا ميسترال الشاعرة التشيلية المعروفة ، وعن النقد والنقد الذاتي والدور الذي لعبه النقد الأدبي في حياته الشعرية فيقول

« لا يمكن انكار أني حظيت بنقاد جيدين ، لا أقصد الولائم والمآدب الأدبية التي أقيمت لي ولا أعني الشتائم التي أثرتها بشكل غير ارادي ، أعني أناساً آخرين ، من بين الكتب التي أُلفت عن شعري ، بعد أن أستثني ما كتبه شبان هواة متحمسون ، أخص بالذكر واضع في المكان الأول الأفضل ما ألفه الكاتب السوفيتي ليف أوسبوفات فلقد توصل هذا الشاب الى اتقان اللغة الاسبانية

قرأى شعري بشيء أكثر من الاقتصار على فحص للمعنى والمبنى فقد سلط عليه منظوراً مطابقاً من نور ماله ·

كما يذكر باهتمام في هذا المجال الناقد والكاتب « اميررودريغيث » من الاورغواي والباحث اللغوي الاسباني أمادو الونسو ·· وبعد ذكر دور انتقاد يؤكد نيرودا نظرته الى الشعر ودور الشاعر بقوله ·

يجب أن نطلب من الشاعر أن يتخذ له مكاناً في الشارع ، وفي المعركة كما في النور وفي الظل ربما أن واجبات الشاعر كانت هي نفسها على مدى التاريخ كله ، ان شرف الشعر كان الخروج الى الشارع ، كان المشاركة في هذا العراك وفي ذاك ·

كما يتحدث نيرودا في هذا الفصل عن الأسى العميق الذي تركه في حياته رحيل الثائر ارنستوتشي غيفارا ويذكر ما كان قد ذكره عنه غيفارا في يومياته فيقول

« لقد كان فجيعة مرة اغتيال « تشي غيفارا » رسميا في بوليفيا الحزينة جداً ، أن نعيه طاف في العالم مثل قشعريرة مقدسة ملايين المراثي حاولت أن تصبح جوقة كي تمجد وجوده البطولي المأساوي ، لقد انهمرت على الدنيا أشعار ما كانت دوماً على مستوى هذا الألم ، تلقيت برقية من كوبا من عقيد أديب ، يطلب مني مرثيتي التي لم اكتبها حتى الآن ، أفكر ان مثل هذا الرثاء يجب أن يحتوي ليس على الاحتجاج الفوري فحسب بل على الصدى العميق لهذه القصة الأليمة ، سأتروى في هذه القصيدة حتى تنضج في رأسي وفي دمي ·

انه ليهزني أن أكون أنا الشاعر الوحيد الذي ذكره تشي غيفارا ، هذا القائد العظيم في حرب العصابات ، في يومياته ، أذكر أن تشي حكى لي ذات مرة ، أمام ارقيب « ريتامار » كيف كان يقرأ مرات كثيرة كتابي « النشيد العام » على أوائل ملتحي « سييراماييسترا » المتواضعين الأمجاد ، ينقل في يومياته بجلاء هاجس بيت شعر من قصيدتي نشيد الى « بوليفار » جثته الصغيرة ، جثة قائد مقدام··

ويواصل نيرودا الحديث في هذا الفصل عن المرات العديدة التي تم فيهما ترشيحه لجائزة نوبل ومن المتاعب التي سببها له ذلك الترشيح من محاصرة

الصحفيين له و ٠٠ و ٠٠ وعن فوزه بهذه الجائزة عام١٩٧١وسفره الى استوكهولم لتسلم الجائزة ويصف الاحتفال البروتوكولي المنظم بتسليمه الجائزة ٠

ويسرد نيرودا ذكرياته عن لويس كارلوس بريستيس الزعيم اليساري البرازيلي وعن ستالين وفيدل كاسترو ، ومما يقوله نيرودا عن أول لقاء لـه مع كاسترو :

٠٠ أما أنا فقد أدخلوني الى الغرفة المجاورة ، وجدت نفسي في غرفة نوم اضافية كأنها غرفة نوم بستاني أو سائق ، لم يكن ثمة غير سرير واحد يبدو أن أحد الاشخاص كان نائماً عليه فنهض منه في استعجال تاركا الشرشف في فوضى والمخدة على الارض ، ثمة طاولة سرير صغير ولا شيء آخر ، ظننت أنهم من هناك سيأخذونني الى غرفة لائقة كي أقابل القائد ، لكن هذا لم يكن هكـذا اذ فتح الباب على حين غرة واذ به « فيديل كاسترو » يملأ الفراغ بقامته

كان أطول مني برأس ، اتجه نحوي بخطى سريعة ٠

ـ مرحباً ، بابلو ٠٠ ـ قال لي وغمرني بذراع شادة ضاغطة ٠

كما يصف نيرودا أول لقاء له مع أرنستو تشي غيفارا فيقول :

كان أول لقاء لي مع تشي غيفارا محتلفا جدا ، جرى اللقاء في « هافانا» ٠

وصلت لأراه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، تقريباً ، وقد دعاني لزيارته في مكتبه بوزارة المالية او الاقتصاد لا أذكر الان على وجه الدقة ، مع أنه كان قد حدد في منتصف الليل ، أنا وصلت متأخراً ، كنت أحضر اجتماعـاً رسمياً وأجلسوني في المنصة فلم أستطع المغادرة ٠

كان « تشي » ينتعل جزمة ، ويرتدي زياً عسكرياً للميدان ويتمنطق بحزام فيه مسدسان ، كان نمط لباسه هذا لا يتسق وجو المكتب المصرفي ، كان «تشي» أسمر ، متمهلا في الكلام ذا نبرة ارجنتينية واضحة ، ،قد لذ لي ما قاله عن كتابي«النشيد العام» كان يعتاد قراءته ليلا على رجاله المحاربين في«لاسيراماييسترا»، الآن ، بعد أن مرت السنون أفكر حين أفكر أن أشعاري رافقته كذلك في موته، عن طريق « ريجيس دوبريه » عرفت أنه في جبال « بوليفيا » احتفظ حتى اخر لحظة في زوادته بكتابين لا غير وهما كتاب في علم الرياضيات وكتابي «النشيد العام»٠

ودمعته ومن عدت قرأيته من بعد قط ، من بعد جرت معركته التي خاضها في غابة البوليميه وانتهت بموته المأساوي لكني ما زلت أرى في تشي غيفارا ، ذلك الرجل المتأمل المفكر الذي خصص دوماً في معاركه البطولية ، ازاء الاسلحة مكاناً للشعر .

وفي الفصل الثاني عشر يتحدث عن تجربته الحزبية والنماذج التي عرفها والتقى بها وخبرها خلال حياته الحزبية وإنعكاس انتمائه الحزبي على حياته كشاعر وانسان ، كما يتحدث عن ترشيحه لرئاسة الجمهورية .

ثم يشرح ظروف انسحابه من الترشيح لمرشح الوحدة الشعبية « : في لحظة مناسبة وصمت البشرى ، ظهر « الليندي » على أنه المرشح المحتمل للوحدة الشعبية بأسرها ، بعد موافقة حزبي قدمت على جناح السرعة انسحابي من الترشيح ، أمام حشد هائل جذل فرح تكلمت أنا لأعلن انسحابي وتكلم « أليندي » ليعلن ترشيحه ويطلب المبايعة له ، لقد عقد هذا المهرجان السياسي في حديقة عامة فكان الجمهور المكتظ يملأ المدى كله وكذلك الأشجار » .

وكما هو معروف فقد انتصر « الليندي » وسبب انتصاره كما يقول نيرودا للطبقة المسيطرة ذعراً مميتاً ذلك لأنهم ولأول مرة فكروا في أن القوانين التي تركوها في حبطة وحذر قد تضربهم على رؤوسهم ، هرولوا بأسهمهم المالية وبجواهرهم وحليهم وعملاتهم الصعبة الى الالتجاء في جهة من الجهات ذهبوا مع ذهبهم الى الارجنتين ، الى اسبانيا ، حتى أنهم وصلوا الى استراليا ، ان خوفهم من الشعب قد جعلهم يصلون في مهولة الى القطب الشمالي .

من بعد سيعودون .

وبعد أن يشرح نيرودا الدور الكبير الذي قام به « اليندي » في خدمة الشعب التشيلي وما حققه من انجازات خلال فترة رئاسته يختم مذكراته بالقول :

« ان أعمال « اليندي » وآثاره ذات القيمة التي لا تمحى اغضبت أعداء حريتنا ، والرمز المأساوي لهذه الأزمة ينم عنه قصف القصر الرئاسي .. »

اني اكتب هذه السطور العاجلة في مذكراتي بعد انقضاء ثلاثة أيام فقط على تلك الاحداث التي لا يمكن نعتها والتي أدت الى موت صاحبي ورفيقي العظيم

الرئيس « أليندي » لقد أحاطوا اغتيـاله بجدار من الصمت ودفنوه سـراً ، ولم يسمحوا الا لأرملته بأن ترافق ذاك الجثمان الذي لا يموت ، ان رواية المعتدين هي أنهم وجدوه جثة هامدة بأدلة بيّنة على أنه انتحر ، أما الرواية التي انتشرت في الخارج فهي مختلفة اذ أنه بعد القصف الجوي اقتحمت الدبابات، الدبابات الكثيرة لتقاتل في بسالة رجلا وحيداً فرداً الا وهو رئيس جمهورية تشيلي « سلفادور اليندي » الذي كان ينتظرهم في مكتبه دون أن يكون له من رفيق سوى قلبـه العظيم ، ولقد أحيط بالدخان والنيران فقد كان بهؤلاء أن ينتهزوا هذه الفرصة النادرة ، كان لا بد من افراغ الرصاص من الرشاشات في جسده فهو لن يتخلى أبداً عن منصبه ، ودفن ذلك الجسد سراً في مكان ما ، لقد مضى ذاك الجثمان الى لحد لا يصاحبه الا امرأة وحيدة تحمل في نفسها ألم العالم كله ، ان تلك الشخصية المجيدة الميتة كانت تمضي وهي ممزقة برصاص رشاشات عساكر تشيلي الذين خانوا تشيلي مرة أخرى .

ولقد انتهت في الثالث والعشرين من أيلول ١٩٧٣ حياة نيرودا ، وتحت وطأة المرض والحزن العميق بعد أن شهد الانقلاب العسكري الذي أطـــاح بالحكـــم الديمقراطي الذي كان هو أحد دعائمه ، ولذلك فانه وكما يقول د . محمود صبح مترجم الكتاب

« يقال أن نيرودا قتل كما قتل الرئيس سلفادور اليندي » بأيدي أعـداء الحرية والنور والعدالة ..

وبالرغم مما ذكرته في المقدمة فان كتاب « مذكرات بابلو نيرودا أشهد أنني قد عشت » ترجمة وشروح د . محمود صبح هو اضافة جادة للمكتبـة العربية ، وصورة مشعة مضيئة ، عن حركة الحياة والناس والكفاح والشعر والحب والثورة في غابات أمريكا اللاتينية ووثيقة هامة عن نضال الشاعر بالكلمة والساعـد والمنشور والسلاح من أجل الانسان والشعر والحياة ، ولا .. ريب أن د. محمود صبح يستحق التقدير لجهوده الواضحة في ترجمة الكتاب و .. تقديمه للقارىء على امتداد الوطن العربي الكبير .

□ ■ □

حياة

جورج صاند اليومية

بقلم : جاك فيمـــان
ترجمة : مهـاة فـرح الخوري

شاءت الظروف أن تصادف الذكرى المئوية لوفاة جورج صاند الأديبة الفرنسية الشهيرة في سنة ١٩٧٩ التي تلت عام المرأة الدولي • وبدون شك ، لو كانت جورج صاند لم تزل على قيد الحياة ، لصفقت لهذه الظاهرة الدولية ولشاركت فيها بكل قدرتها ووزنها • وهي المرأة التي كانت تعشق التحرر و لمجابهة فكانت تلبس زي الرجال ، وتتخذ لنفسها اسم رجل مع أن اسمها الحقيقي « اورور دوبـان » وتدخن السيكار والسيكارة و الغليون ، وتسر من معاشـرة الجمهوريين والاشتراكيين والثوريين متحدية عصرها •

وقد اقيمت اعياد رومانطيقية في مسقط راسها ، قرية نوهانت ، كان لها وقعها • وشاركت فيها الاذاعة الفرنسية كما نظمت في القرية نفسها حفلات موسيقية شارك فيها كبار العازفين المنفردين واشهر الفرق الموسيقية •

قضت الكـاتبة المذكورة بتـاريخ الثامن من حزيران ١٨٧٦ ، وكانت بذلت اقصى جهودهـا في سبيل تحسين ظروف حياة المرأة ، وكرست لهذا الهدف حياتها وكتاباتها • وان كانت هذه الروائية نالت شهرة في عصرها ، فهي نموذج المؤلف الذي خدمه اسمه اكثـر من انتاجه وروح شخصه يثير الاهتمام اكثر من مؤلفاته • وقد استحوذت حياتها الغرامية على قلوب هواة الروح• لماذا ؟ كيف كانت جورج صاند تقضي حياتها اليومية ؟ هذا ما اهتم به جاك فيفان في هذا المقال الذي نشرته مجلة « استوريا » •

اذا ما ألقينا على وجود جورج صاند نظرة اجمالية ، ندرك أنه ما من وجود غيره كان أكثر سكونية وأقل تعرضاً للطوارىء والمآسي • وقد بلغ مجموع ما عاشته خارج فرنسا حوالي ثلاثة عشر شهراً • شهران في مدريد خلال طفولتها ، وسنة في ايطاليا ، وبضعة أسابيع في سويسرا وشتاء واحد في جزر الباليار • وباستثناء بعض الرحلات الى جبال البيرينة والى جنوب غرب فرنسا ، فانها قضت حياتها جيئة وذهابا بدون هوادة بين باريس وبين قصرها الريفي •

من جهة ثانية ، لم تتعرض لحدث ما ولا لمرض خطر • وعلى الرغم من انها كانت تشكو باستمرار ، فانها كانت بالوقع تتمتع بصحة جيدة متينة • وكذلك لم تتعرض قط لمغامرات ولا لعطف غرامي ، ولا لمآس ، اذ كانت علائقها الغرامية كلها تعقد بترو وتقطع أيضاً بناء على رغبتها • الجهاز العاطفي بنظرها جهاز على الهامش ، جهاز متمم ليس الا ، بالرغم مما أوحت هذه العلاقات من ابحاث غزيرة •

وكان ينحصر اهتمامها الكبير في أن تعيش حسب هواها في اطار بيتها في مقاطعة بري • كان هدفها أن تهيمن بمفردها على البيت الذي ترعرعت فيه وأن تصون العمل الذي حررها ومنه تعيش وهي اشبه ما يمكن بالرجل الذي يُطوّع كل شيء ويُخضع كل شيء •

باريس لم تعن جورج صاند الا قليلا • وباستثناء كتاباتها الاولى راحت ترضي بحماسة شهيتها للحرية ونزواتها الفكرية • وقضؤهـــ موسم الشتاء في باريس له مبرراته • فعملها يتطلب ذلك ، ثمة كتب للنشر ، ومسرحيات للتمثيل• من جهة ثانية ابنها موريس يتابع دراسته هنـــاك ، والموسيقار شوبان لا يستطيـــع أن يتغيب طويلا عن العاصمة الفرنسية • وبدءا من عام ١٨٤٨ اكتفت بشقة صغيرة في هذه المدينة وتتناول وجباتها وتستضيف أصدقاءها في مطعم صغير يقدم الطعام بسرعة وباتقان ويحافظ على تقليد العشاء الدسم •

ثلاثون وأربعون عاماً من أصل اثنين وسبعين عاشتها في مقاطعـــة « بري » في قصرها في قرية « نوهانت » • اقليمية بكل ما في هذه الكلمة من معنى • فلـــم تتمكن من التخلي عن خجلها ، ولا عن اشغف بناقوس الكنيسة • وكلما برزت

أسباب ، مهما كنت ، من حيث أمل في الحب أو تعقيدات سياسية ، أو مباشرة أعمال صيانة أو انهائها ، كانت تتهزها مناسبة للجوء الى نوهنت ·

تحب بيتهاهماك حباً جماً ، تشعر بالراحة في أرجائه، تبذل الجهد كله لصيانته وللمحافظة على طابعه · وكان زوجها يبدو لها في أول الامر عريبا في نوهانت، كدخيل · وما أن تقرر انفصالهما حتى حصرت متاعبه في ابعاده مهما كلف الامر · تدفع له نفقة شهرية مقابل الارتحال · مرادها أن تعيش مع نفسها وفي بيتها ·

ويكفي أن نصغي الى ما قالت بهذا الصدد لنعرفها على حقيقتها الثابتة وفي طابعها التقليدي :

« ساتلو بضع كلمات عن هذه الارض ، أرض توهانت حيث شاب حيث قضيت عمري كله تقريبا ، وحيث أرجو أن أموت ·

الواردات متواضعة ، السكنى بسيطة ومريحة ، المنطقة خالية من الجمال على الرغم من موقعها في قلب الوادي الاسود وهو موقع واسع رائع ·

وبكل الاحوال ، انها ترضينا ونحن نحبها · جدتي كانت تحبها أيضا ووالدي كان يقصدها ليستجم وليمضي ساعات عذبة من الراحة عبر عناء اضطرابات حياته · أما القصر ، لو كان ثمة قصر ، فكان بيتا متواضعا من عهد لويس السادس عشر ، متاخما للقرية واقعا في قلب الساحة الريفية لا يزيد ابهة عن مسكن قروي » ·

« من كتابها : قصة حياتي »

بالواقع شيّد بيت جورج صاند في أواخر القرن الثامن عشر من قبل المالك نفسه الذي باعه لوالدتها مدام « دو ان » · وهو مؤلف من طابق أرضي حيث مدخل واسع وغرفة طعام وصالة ومسرح ، ومن طابق أول فيه سبع غرف ومكتبة · وحين بيعت هذه الاخيرة في عام ١٨٩٠ كان جدول جردها يشير الى وجود ٧٦٧٠ مجلداً · ثمة عليّات واسعة مملوءة في ذلك الحين بالالبسة والازياء وبمجموعات من الحشرات

والنباتات ، وفيها مشغل لم يكن المصور « دي لا كروا » يترفع عن العمل فيه · حديقة جميلة تحيط البيت ، مزروعة بأشجار الفواكه والخضار والورود الجميلة.

جهزت جورج صاند بيتها بوسائل الترفيه كلها المعروفة في ذلك العصر ، من جهاز تدفئة وحمام وغيرهما · سعيدة كانت الأديبة داخله ، تعيش في ذكريات الآباء والاجداد ، وتتمتع بحضور شخصيات لسامة ·

في الصيف ، يعج قصر نوهانت بالناس· كان يشاهد على التوالي ، الموسيقاران « ليست » و « شوبان » ، والكتاب ، « بالزاك » و « فرومانتان » و « تيوفيل غويتي » و « فلوبير » والرسام « دي لاكروا » و لامير « جيروم بونابرت » · بيد أن جورج صاند المنزهة عن كل بهج ، لم تكن تستضيف الشخصيات ذات الشهرة بغير ما تستقبل به الآخرين · ولم يكن الدافع لاستضافتهم الا المحبة ·

فضلا عن ذلك ، حين يشعر الضيف بالراحة والطمأنينة ، يبقى في ضيافة البيت · شاهد على ذلك المصور « أوجين لامبير » صديق ابن الكاتبة « موريس صاند » ، أتى لبضعة أسابيع فلم يغادر الدار الا بعد مضي عشر سنوات ·

كانت الحياة داخل أرجاء البيت ، منظمة كما في دير · الفطور في العاشرة صباحا (لم تكن جورج تشارك فيه · نزهة ساعة من الزمن · من الثانية بعد الظهر الى السابعة مساء ، عمل لمن يود ، برنامج حر لمن لا يريد العمل · العشاء في السابعة مساء ، ثم سهرة يتخللهـا تبادل أحاديث ، الى حل ألغاز ، الى تمثيليات ، الى مسرحيات دمى ، قراءة ورقص وموسيقى في أمتع جو عائلي غنيبة في البساطة · كل داخل البيت يعيش حسب هواه · ولا تضحي سيدة البيت بشيء من عاداتها ، ولا تشارك في الحياة الجماعية الا بعد الظهر وفي المساء · تنسحب في منتصف الليل ، وتكتب الى الخامسة أو السادسة صباحاً · تنام بعد ذلـك وتستيقظ ظهرا ، فتتناول طعام غداء خفيف في غرفتها وهو مؤلف غالبا من شريحة لحم وشقة طير وشيء من الخضار وفنجانا من القهوة المرة · ويصادف ان تنصرف الى عملها بعد النزهة · كانت تعول في قصر « نوهانت » عددا من الخدم يتراوح من سبعة الى تسعة · السخاء والبساطة يهيمنان على طاولة الطعام،

بحيث يشعر الضيوف أيا كانوا شعور الأولاد الملتفين حول عمة محبوبة يسرها جمعهم أيام العطل ·

تمكنت جورج صاند من تغطية نفقات الضيافة هذه بفضل عملها ·

لا تبرج ولا تزين لدى الاديبة الفرنسية ، بل نظافة ونقاوة وعناية بالذات · لم تلجأ في يوم من الايام الى مساعدة وصيفة لارتداء ملابسها أو لتصفيف شعرها · وحتى في سن متقدمة ، كانت تستحم في النهر وتغطس في المياه الباردة ·

باستثناء بعض الازياء الباريسية التي تقتنيها ، كانت تخيط أزياءها بنفسها · ماهرة في فن الابرة والخياطة تطرز بسرعة واتقان · وتنفذ أشغال النجود وغيرها ·

نشأتها في الريف ودقتها المتناهية ، علمتاها كيفية المناقشة حول صفات رأس خيل أو ثمن بقرة · تهتم بكل كبيرة وصغيرة · تشرف على صنع المربيات وتحضر صحون الحلوى بنفسها ·

كرهها للاسراف وحرصها على الاقتصاد المنزلي لم يمنعاها من انقاذ المعوزين ومساعدة المرضى والمتقدمين في السن بدفع أجور الاطباء وفواتير الصيدلي ، ومن أن تجزل الخير سرا وبسخاء ·

باكتسابها بدانة مع التقدم في العمر ، وبوجهها الهادىء تحت العصابات السوداء ، حققت جورج صاند النموذج الكلاسيكي لسيدة الريف ، خبيرة في فن ادارة البيت والاستقبال ، مع شيء من الوقار الذي يكمن الشخصية · تشبهها كمثل جدها الاعلى المارشال « دي ساكس » تكره المجون ، متحفظة بما فيه الكفاية بسلوكها وبحديثها ، لا تقبل من خدمها أي تحرف في السلوك · وقد طردت أحد العملة لانه ساكن خطيبته قبل ثلاثة أيام من الزواج ·

مثل هذه التفاصيل التي تثير الابتسامة عندما يفكر المرء بجرأة حياتها الخاصة وبجسارتها ، تفسر هذه الحياة أكثر من أدق التحاليل · فهي تبرهن ،

اذا كان للبرهان ضرورة بعد كل ما نعرف عنها ، الى أي حد كان القلق الجسمي لدى هذه المرأة شدوداً وطارئاً • وهكذا نجد نفسنا أمام حالة فيزيولوجية هي السر الحقيقي لحيويتها ، حالة تنتفي أهميتها في مجال الحياة الخاصة ازاء نتائجها في المجال الفكري • وهي المهووسة على هذا الشكل بما لا يدرك ، فقد نمت فيها هستريا نفسية من النوع الخيالي الذي يجد في الابداع الروائي المهرب والمتنفس •

الطاقة الخلاقة هي واحدة بالفعل ، وان كانت المهمات التي تأخذها على عاتقها متنوعة • بالنسبة للوظيفة التناسلية ، فان الانتاج الفني أو الادبي هو نشاط ستعاضي ، تأليف لحن عوضا عن ولد •

بيد أنه يتعذر ممارسة النشاطين بنفس الوقت • بما انه ثمة تركيز للقوى على شيء محدد فانه يتعذر بذلها في أمر آخر • واذا كانت العبقرية لا تلتئم مع العجز ، فالنجمة الفنية هي وليدة المقة • الشعر الغنائي لا ينشد التملك ، بل الرغبة أو الاسف • الكاتبة جورج صاند تجهل راحة امتلاء القلب بالعواطف والسعادة • ان طبيعتها غير المكتملة تفرض عليها عدم الخروج قطعاً من مرحلة الرغبة ، وتحكم عليها بالاشغال الادبية المؤبدة •

بكل الاحوال يجب عدم الاستسلام الى محاولة اعطاء تفسير وحيد يجيب على كافة الاعتراضات • ذلك أن الحاجة الى المال كانت أيضا بالنسبة لجورج صاند حافزاً مستمراً أدى الى زيادة حجم انتاجها ، وبكل الاحوال أساء الى نوعيته •

كانت تكتب بصورة خاصة ليلاً • وأكدت قائلة :

« لا شيء يعوض هذا الهدوء العميق الذي يهيمن منذ منتصف الليل حتى الرابعة صباحا » •

ويقول بالزاك بهذا الصدد :

« حياتها اشبه ما يكون بحياتي ، انني أنام في السادسة مساء وأستيقظ عند منتصف الليل » ويفضل هذه العادة المتبعة منذ صباها والتي كانت تنقلها معها، فانها كانت تتكيف مع أساليب الحياة والاجواء كافة ، فتعمل بالانتظام نفسه في قصر « نوهانت » او في باريس أو في ايطاليا أو في جزيرة الماجوركا • ولكنها

لم تكن تلجأ مثل بالزاك الى القهوة المرة المنشطة بل تكتفي بالقليل من الماء المحلى بالسكر مع الليمون ، وهذا كان يكفيها لتمضية الليل •

كانت تضيء قنديل الزيت ، وتدخن السيكارات بدون توقف وتلقي بأعقابها في كوب من الماء - طاولتها خالية من أية وثيقة أو مذكرة أو من أي شيء آخر باستثناء الريشة والمحبرة ودفتر •

وعلى الرغم من اعترافها بأنها لم تلزم نفسها قط برسم مخطط لأي مؤلف، كانت تستوثق قبل المباشرة بالكتابة اذا ما شعرت بضرورة ذلك • من جهة ثانية ساعدتها رحلاتها على تصور « الاطار » الذي كانت تصفه فيما بعد •

وأخيرا فان مقدرتها الكبيرة على الاستيعاب كانت تتيح لها التعلم وهي تصغي، واغناء قصصها بشكل مناسب • الحياة ، واصدقاؤها والمقربون اليها فلاحوها يقدمون لها الشخصيات التي تحتاج اليها • وبالنسبة للباقي ، كانت تعتمد على شعور بسيكولوجي رقيق وأكيد وعلى سهولتها الخارقة •

وصدف أن كتبت رواية كاملة خلال شهر واحد • وفي عام ١٨٣٤ خلال الاشهر السبعة التي قضتها في ايطاليا ومرضت أثناءها ، ما ان استعادت صحتها حتى سهرت ثماني عشرة ليلة قرب سرير « الفرد دي موسه » وقاومت العواطف العاطفية التي نعرفها • وبنفس الوقت فرشت وزينت بيديها المسكن الذي كانت تحتله مع « باجيللو » وتمكنت أيضا من كتابة روايتي « اندره » و « جاك ماتيو» وأول جزء من « رسائل مسافر » أي مادة أربعة أجزاء •

لا يمكن أن يكون هذا معدل انتاج امرأة مرهقة بالحب ، بل يستنتج من ذلك صغر مكان الحب في وجودها ، وكم كانت قليلة الاوقات المكرسة له •

باستثناء المسرح الذي لم تكن جورج صاند موهوبة فيه ومع ذلك حصلت على بعض النجاح ، فانها عرفت طوال حياتها مجدا وشهرة قد يدعوان للاستغراب بالنسبة لاختلاف سوية انتاجها • ومع أن مؤلفاتها متفككة ومثقلة ومكتوبة بسياق الريشة ، فقد أغرت جمهوراً واسعاً ووفياً • ذلك أولاً أن الاسلوب واضح

للغاية وموسيقي من عرق كلاسيكي أصيل • فمهما بدا مهملاً تافهاً لا يستخدم سوى نعوت فقيرة ، فانه مع ذلك صاف خفيف سيال • واذا وقعت جورج صاند بالصدفة على المصطلح الملائم وعلى التعبير الصحيح ، فانها تبلغ الاوج أي الكمال في السهولة •

ثم اذا ما كان أكثر أشخاصها مختلقين ومبتذلين ، مصطنعين للاعراب عن وجهة نظر ما ، فانها تعبر عن المشاعر بنعومة ، وتحسن على الاخص بصفتها قروية أصيلة ، تصوير الحاجات والاشياء والطبيعة • كافة الملاحظات المجمعة بصبر تنتظم بصورة لا شعورية في أدبها الوصفي •

ويمكن القول انها عكست بالتتابع مثل مرآة متناسقة مشاعر عصرها ومفاهيمه ، وقد كتبت بهذا الصدد :

« لست الا مبسطا ، ذا ريشة سريعة وقلب مرهف التأثر » •

وكم هو صحيح هذا القول ••• كانت عبقريتها لاقطة ، نسوية بجوهرها ، فهي القيثارة التي ترتعش بمرور الريح • في البدء رومانطيقية ، ثم اشتراكية ، وأخيراً أخذت تتبرجز وهي تتقدم في السن ، شأنها شأن كل الناس • وعلى كل حال غير مكترثة بمتناقضاتها ، ترتاح لمشاعرها العاطفية الشبيهة بمشاعر العاملة المرحة ، ولميتافيزيقيتها النابعة من ضعف ايمانها • لم تضللها نجاحاتها قط ، اذ كتبت تقول :

« أعتقد انني سأغدو منسية تماما بعد خمسين عاما » •

منسية ؟ لا ستبقى دائماً لها صفحات من المختارات الادبية ، جواهر متناثرة في حشو من الكلام لم يعد يقرأ •••• ولكن الصحيح انها اذا ما بقيت ذكراها حية فانها مدينة بذلك لشخصها أكثر مما لمؤلفاتها •

كان ثمن هذا النجاح ، كما يحدث دائماً ، سرباً يتكاثف يوماً بعد يوم من الزوار والفضوليين والمراسلين والملتمسين • وبما أن طيبتها لا تنقطع ، فقد انتهت الى تكريس معظم وقتها في كتابة توصيات وقراءة مخطوطات وخاصة يريدها

الضخم · كانت تجيب بنفسها على الرسائل كلها· ولقد قدر انها كتبت في حياتها ٥٠ الف رسالة على الاقل أي ما يعادل ١٢٠٠ مجلد بـ ٣٥٠ صفحة الواحد أي حوالي ضعفي انتاجها كله ·

لو كانت جورج صاند أكثر اهتماما بمجدها ، أو على الاقل بمتطلبات فنها ـ وهي الموهوبة ـ لكان بوسعها أن تكتفي بموارد مزرعتها في قرية نوهانت ، وان تفرض على نفسها مجهود التأليف والانشاء الذي لم تخضع نفسها له قط · الا انها لم تجد في الادب بادىء ذي بدء سوى وسيلة للتخلص من سلطة زوجها ، ثم لتأمين لذة الرفاهية والكماليات · فلم تتمثل الادب الا من الناحية العملية ولكنها لم تتخذه وسيلة للعيش ، لان موارد مزرعتها كانت تكفي لتأمين معيشتها ، بل اتخذته مهنة مربحة تؤمن لها موارد غزيرة ·

الحقيقة ان دارتها في نوهانت ، المفتوحة للضيوف على الدوام كانت تكلفها كثيرا ، وكانت هي أيضا كريمة سخيةوتحرص على ارضاء نزواتها ومنها الرحلات التي كانت تستهلك جزءا كبيرا من مالها ·

واذا ما تذكرنا أنها لم تتوقف عن تأمين نفقات ابنها وعائلته تبين لنا ما كانت تتخبط فيه من صعوبات مالية والسبب الذي من أجله لم تخلف لورثتها سوى مزرعة نوهان وحقوق التأليف ·

وقد كتبت لابنتها في ٢٥ نيسان ١٨٥٢ :

« لنوجز وضعي المالي ووضعك · اننا نملك (تقصد نفسها وإبنها موريس وابنتها صولانج المنفصلة حديثاً عن زوجها) ربما قدره ٧٠٠٠ فرنك أما الموارد الاخرى فانها تخرج من دماغي ومن سهراتي ومن دمي المحترق ومن أعصابي المتوترة المريضة » ·

وكتبت الى لويس أولباخ في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٦٩ :

« لقد ربحت بالفعل مليوناً من عملي ولكنني لم أكتنز قرشاً واحداً · أعطيت

كل شيء باستثناء ۲۰۰۰۰ فرنك وظفتها منذ سنتين لكي لا أكلف أولادي نفقات الدواء اذا ما انتابني المرض » ·

لم تكن تسرف في الكلام الا اذا أرادت ذلك · ويصدف أن لا تنبث ببنت شفة طوال فترة الطعام · أحيانا كانت تذيب الجليد في الحال : هكذا كانت مع « فلوبير » بينما يصدف للزوار أن ينهوا زيارتهم دون أن يسمعوا نغمة صوتها · ولم يكن في الامر تكلف بل مزاج ونزوة ·

وأخيرا جاء الهدوء ولو متأخرا ·· وقد كتبت في شهر ايلول عام ١٨٦٨ :

« ها أنا ذي طاعنة في السن · انني اجتاز بلطف الخامسة والستين من عمري ·

من غرابة مصيري انني أنشط وأقوى وأرشق كثيرا مما كنت عليه في صباي · أمشي مسافات أطول وأسهر بشكل أفضل وأستيقظ بدون جهد بعد نوم ممتاز ·

انني أسبح في الماء البارد والجاري بسرور بالغ · لم أعد أصاب برشح قط · انني هادئة تماما · شيخوخة حصناء بالفكر ، بقدر ماهي بالفعل · لا أسف قط على الشباب » ·

يشعرنا هذا القول بمدى هدوئها وتحررها من قيودها وعودتها الى طبيعتها العميقة ·· انها أسطر ربما تساعد على فهمها بشكل أفضل ·

وهذه السيدة القصيرة الممتلئة المربعة الشكل ، المريضة الكتفين ذات الوجنتين الثقيلتين المسمرتين ، ذات اليدين الجميلتين والنظرة الثابتة العميقة تحت عصابتها الرمادية ، أعطت بما كتبته في رسالتها الى لويس أولباخ التي تصلح كخاتمة لـ « قصة حياتي » عن نفسها آخر شهادة طيبة ، اذ قالت :

« لست سوى امرأة طيبة اتهمت بشراسة وهمية في الخلق ، اتهمت أيضاً بأنني لم أعرف كيف أحب بشغف · يبدو لي أنني عشت بالحنان ويمكن للمرء أن يرتضي به » ·

□ ● □